امرؤ القيس

محمد سليم الجندي

امرؤ القيس

لسان العرب

امرؤ القيس

تأليف
محمد سليم الجندي

هنداوي

امرؤ القيس

محمد سليم الجندي

الناشر مؤسسة هنداوي سي آي سي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

٣ هاي ستريت، وندسور، SL4 1LD، المملكة المتحدة
تليفون: ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: محمد الطوبجي.

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ١٣٩٩ ٦

المحتويات

امرؤ القيس

ليس في شعراء الجاهلية من يوازي امرأ القيس أو يتقدمه في الإجادة في كل فن من فنون الشعر التي نَظَمَ فيها.

وأنا على مثل اليقين أن كثيرًا من مقلدات شعره ذهب بين سمع الأرض وبصرها، واشتبه على الرواة فنحلوه غيره، ولو جاءنا شعره وافرًا لرأينا فيه أدبًا جمًّا، وخيالًا رائعًا، وأسلوبًا ساحرًا.

وما وصل إلينا منه، على قلته، يكفي لأن يجعل امرأ القيس إمام الشعراء المتقدمين والمتأخرين؛ فإن المستقرئ لكلامه يجد فيه من عيون الشعر ما لم يتقدمه فيه سابق، ولم يشقَّ غباره فيه لاحق.

إلا أن متانة شعره، وقوة أسره، واشتماله على كثير من الكلمات الغريبة بالنسبة للمتأخرين؛ حالت بينهم وبين الاطلاع على براعته وثمرات قريحته.

وفي شعره أبيات رائعة لم يستطع الشعراء إلى هذا اليوم أن يأتوا بمثلها في جمال الأسلوب، وجلاء المعنى، وسلامة القصد.

من ذلك قوله يصف امرأة بطيب الرائحة:

أَلـمْ تَـرَ أنِّـي كلَّـما جئتُ طـارقًـا وجدتُ بها طِيبًا وإن لم تطيَّبِ؟!

وقوله يصف امرأة بطراوة الجسم ونعومته:

من القاصراتِ الطرف لو دبَّ محولٌ مِـنَ الـذَّرِّ فـوق الإتْـب مـنـهـا لأثَّـرَا!

وقوله يصف فرسه بشدة الجري:

على هيكل يعطيك قبل سؤاله أفانينَ جريٍ غير كزٍّ ولا وان

وقوله أيضًا يصفه بالمطاوعة والسرعة:

مِكَرٍّ مِفَرٍّ مقبلٍ مُدبرٍ معًا كجلمود صخر حطَّه السيل من علِ

وقوله يصف أرضًا أصابها الغيث فأنبتت أزهارًا مختلفة الألوان:

وألقى بصحراء الغبيط بعاعه نزول اليماني ذي العياب المحمل

وله في باب الوصف والتشبيه والكناية والغزل والحكمة والفخر وغيرها أبيات لا تزال مثلًا أعلى في جودتها ولن تزال.

وقد عُنينا في هذه الرسالة بشرح الغريب وإيضاح الغامض من كلامه، وتأليف المفترق، وجمع المتشتت، وإضافة كل نوع إلى جنسه؛ ليسهل الاطلاع على ما تَضَمَّنَه شعر امرئ القيس من الإجادة، ومهدنا السبيل أمام بعض الأبيات ليتجلى الغرض منها بحسب ما تراءى لنا، ولسنا نزعم العصمة، في كل ما أتينا به، من الزلل والخطأ. وإنا لنرجو ممن اطلع فيه على خطأ أو غلط أن يرشدنا إليه لنضاعف له الشكر، ونبادر إلى إصلاحه.

اسمه – نسبه – نشأته وحياته

اسمه: حُنْدُج (والحندج: الرملة الطيبة أو كثيب من الرمل أصغر من النقا).

لقبه: امرؤ القيس،[1] ويقال له: «الملك الضليل». قال في «نهاية الأرب»:[2] «وسمي امرؤ القيس بالضليل؛ لأنه ترك ملكه وتوجه إلى قيصر يطلب منه جيشًا يأخذ به ثأر أبيه من بني أسد.»

ويقال له: «ذو القروح»، لقوله:

وبدلتُ قرحًا داميًا بعد صحة

وسُئل لبيد: «من أشعر الناس؟» فقال: «ذو القروح.» وقال الفرزدق:

وهب القصائد لي النوابغ إذ مضوا وأبو يزيد[3] وذو القروح، وجرولُ

ويقال له: «الذائد» لقوله:

أذود القوافي عني ذيادًا

كنيته: أبو الحارث، وأبو وهب، وأبو زيد.

---

[1] القيس: الشدة، وقيل صنم؛ ولذلك كان الأصمعي يقول: «يا امرأ الله.»

[2] ج٥ ص١٩٠.

[3] أبو يزيد المخبل.

نسبه: أبوه: حُجْر بن عامر بن الحرث بن عمرو المقصور — لأنه اقتصر على ملك أبيه؛ أي أقعد فيه كرهًا — ابن حجر من بني آكل المرار[٤] معاوية بن ثور، من كندة من اليمن.

وكان أبوه حجر ملكًا على أسد وغطفان.

سبب تملكه عليهم: اختل نظام الأمر في البكريين في نجْد، واحتدم الخلاف بينهم، فاجتمع شيوخهم وأهل الرأي فيهم، وقالوا: إن سفهاءنا غلبوا علينا حتى أكل القويُّ الضعيفَ، ولا نستطيع دفع ذلك! ثم رأوا أن يملِّكوا عليهم رجلًا يضرب على أيدي الظالم ويأخذ للضعيف بحقه، ولكنهم أشفقوا إن ولوا عليهم رجلًا من قبيلة منهم أن تأباه قبيلة أخرى، فقصدوا تُبَّعًا — ملك اليمن — ليملكوه عليهم، فملك عليهم حجرًا أمير كندة، المعروف بآكل المرار، فانتقل إلى ديار بكر في نجد، وسار فيهم سيرة حسنة، وأعاد إليهم ما انتزعه اللخميون من أرضهم.

فلما مات ولي ابنه عمرو المقصور،[٥] ثم من بعده ولي الحرث بن عمرو وكان نزل الحيرة وله خمسة بنين.

---

[٤] المرار: شجر مرٌّ إذا أكلته الإبل قلصت منه مشافرها، واحدتها مرارة. قال ابن الكلبي: «إنما سمي حجرًا آكل المرار لأن ابنة كانت له سباها ملك من ملوك مليح يقال له ابن الهبولة فقالت له ابنة حجر: كأنك بأبي قد جاء كأنه جمل آكل المرار.» يعني كاشرًا عن أنيابه؛ فسمي بذلك.

وقيل إنه كان في نفر من أصحابه في سفر فأصابهم الجوع، فأما هو فأكل من المرار حتى شبع ونجا؛ وأما أصحابه فلم يطيقوا ذلك حتى هلك أكثرهم ففضل عليهم بصبره على أكل المرار.

وفي الأغاني: أن زياد بن الهبولة سبى امرأة حجر، وهي هند ابنة ظالم، وساق قصة طويلة، وأورد لحجر أبياتًا في هند:

لمن النار أوقدت بجفير ... لم ينمُ عند مصطل مقرور
أوقدتْها إحدى الهنود وقالت: ... أنت ذا موثق وثاق الأمير
إن من غره النساء بشيء ... بعد هند لجاهل مغرور
حلوة القول واللسان ومرٌّ ... كل شيء أجن منها الضمير
كل أنثى وإن بدا لك منها ... آية الحب حبها خيتعور

(أي يتلون ولا يدوم.)

[٥] في الأغاني: سمي كذلك لأنه قد اقتصر على ملك أبيه؛ أي أقعد فيه كرهًا، والتعليل يقتضي أن يكون المقسور.

فاشتد الخلاف بين قبائل نزار، وطمى سبل الفساد فيهم، فأتوا الحرث وطلبوا إليه أن يوجه بنيه معهم، فيقيموا فيهم ليكفوا بعضهم عن بعض، فولى حجرًا على أسد وغطفان، وملَّك بقية بنيه على قبائل أخرى.

فأقام فيهم حينًا من الزمن، وكان يأخذ من بني أسد إتاوة في كل سنة، ثم منعوا جابيه وضربوه.

فحمي لذلك، وأخذ سرواتهم، وجعل يضربهم بالعصا حتى يموتوا (فسموا عبيد العصا)، وأباح أموالهم، وحبس أشرافهم في تهامة، فاضطغنوا عليه ذلك حتى أدركوا منه غفلة، فطعنه عوف بن ربيعة بن عامر — من أسد بن خزيمة — ولم يجهز عليه،[٦] وكان له خمسة أولاد، فأوصى وصية، ودفع كتابه إلى عامر من بني عجل، وقال له: «انطلق إلى ابني نافع، فإن بكى وجزع فالْهُ عنه، واستقرئ أولادي واحدًا واحدًا حتى تأتي امرأ القيس، فإن لم يجزع فادفع إليه سلاحي وخيلي ووصيتي.»

وقد كان بيَّنَ في وصيته من طعنه، فأتى الرجل نافعًا فأخبره فوضع التراب على رأسه وبكى، فتركه، واستقرأ إخوته واحدًا واحدًا، وكلهم فعل ذلك، فأتى امرأ القيس في موضع يقال له دمون من أرض اليمن، فأخبره وهو يلعب بالنرد، فلم يلتفت إليه حتى فرغ، ثم تأهب للأخذ بثأر أبيه، كما سيأتي.

نسبه من قبل أمه: أمه فاطمة بنت ربيعة بن الحارث، أخت كليب البطل المشهور، ومهلهل الشاعر المعروف، ويقال اسمها تملك. فأبوه يمني من أشراف كندة، وأمه نزارية من أشراف تغلب.

نشأته وحياته: ليس لدينا من الوثائق التاريخية ما يكشف اللثام عن حقيقة الزمن الذي ولد فيه امرؤ القيس والمكان الذي نبت فيه، ولا ما يوضح تفصيل نشأته وحياته.

بل لا يزال سرًّا غامضًا في زوايا التاريخ المغلقة، وكل ما عُلم من كلام القوم بِطَريق النقل أو الاستنباط أن امرأ القيس ولد في نجد في ديار بني أسد، ونشأ في حجر الملك، ودرج في مهد الترف والنعيم، فشب بين أقداح الراح، ومغازلة الملاح، لا ينقصه شيء من ملاذ الحياة.

[٦] في نهاية الأرب ٥ / ١٥١ أن بني أسد كانوا قتلوا حجر بن الحرث يوم ما قط.

استرسل في اللهو، وأمعن في المجون، وأطلق لنفسه العنان في ميادين الصبوة، وقعد عما تسمو إليه نفوس أمثاله من أبناء الملوك، وعلق[7] النساء، وأكثر من ذكرهن، والميل إليهن، فكره ذلك أبوه منه، وزجره فلم ينزجر، فاستشار بطانته فيما يصنع به، فقالوا: اجعله في رعاء إبلك حتى يكون في أتعب عمل! فأرسله في الإبل فخرج بها يرعاها يومه، ثم آواها مع الليل وجعل ينيخها ويقول: «يا حبذا طويلة الأقراب، غزيرة الحلاب، كريمة الصحاب! يا حبذا شداد الأوراك، عراض الأحناك، طوال الأسماك!» ثم بات ليلته يدور إلى متحدثه، حيث كان يتحدث، فقال أبوه: «ما شغلته بشيء!» قيل له: «فأرسله في الخيل.» فأرسله في خيله فمكث فيها يومه حتى آواها مع الليل. فدنا أبوه حجر يسمع فإذا هو يقول: «يا حبذا إناثها نساء، وذكورها ظباء، عدة وسناء، نعم الصحاب راجلًا وراكبًا، تدرك طالبًا، وتفوت هاربًا!» قال أبوه: «والله ما صنعت شيئًا!» فبات ليلته يدور حواليها، قيل له: «اجعله في الضأن.» فمكث يومه فيها حتى إذا أمسى أراحها، فجاءت أمامه وجاء خلفها، فلما بلغت المراح، ودنا أبوه يسمع فإذا هو يقول: «أخزاها الله وقد أخزاها! من باعها خير ممن اشتراها، لا ترفع إذا ارتفعت، ولا تروى إذا شربت، أخزاها الله! لا تهتدي طريقًا، ولا تعرف صديقًا، أخزاها الله! لا تطيع راعيًا، ولا تسمع داعيًا.» ثم سقط ليلته لا يتحرك.

فلما أصبح قال أبوه: «اخرج بها!» فمضى حتى بعد عن الحي وأشرف على الوادي، فحثا في وجهها التراب، فارتدت وجعل يقول: «حجر في حجر حجر، لا مدر هبهاب،[8] لحم وإهاب، للطير والذئاب!»

فلما رأى أبوه ذلك منه، وكان يرغب به عن النساء والشعر،[9] وأبى أن يدع ذلك، أخرجه عنه، فخرج مراغمًا لأبيه، فكان يسير في أحياء العرب يطلب الصيد والغزل.

[7] الجمهرة ص٨٤.

[8] الهبهاب: الصَّيَّاح، والسراب، ولعبة للصبيان. والهبهي: القصاب.

[9] في الأغاني (ج٨ ص٦٥): إن حجرًا طرد امرأ القيس وآلى أن لا يقيم معه أثمة من قوله الشعر، وكانت الملوك تأنف من ذلك.

والتفَّ حوله فئة من شذاذ العرب وذؤبانهم، فكانوا يتنقلون من مكان إلى آخر، فإذا صادفوا غديرًا أو روضة أو موضع صيد، أقاموا عليه يلعبون ويشربون ويصطادون، وكانت القيان تغنيهم في منازلهم، حتى إذا نضب ماؤه انتقلوا إلى غيره.

وله أيام كثيرة قضاها في الصبوة والمجانة مع النساء، وذكرها في شعره، وعدها من أيامه الصالحة، منها يوم الغدير المسمى «دارة جلجل»، وذلك[١٠] أنه كان مولعًا بابنة عم له يقال لها فاطمة،[١١] فطلبها زمانًا، فلم يصل إليها، فاحتمل الحي ذات يوم وقدموا الرجال، وخلفوا النساء والخدم والعُسَفَاء والثِّقْل، فرأى ذلك امرؤ القيس، فتخلف عن قومه في غيابة من الأرض، حتى مرت به النساء، وإذا فتيات فيهن ابنة عمه، فلما وردن الغدير قلن: «لو نزلنا فاغتسلنا وذهب عنا بعض ما نجد من الكلال!» فقالت إحداهن: «نعم!» فنزلن فنحين ثيابهن، ثم تجردن فدخلن الغدير، فأتاهن امرؤ القيس مخاتلًا، فأخذ ثيابهن ثم جمعها وقعد عليها، وقال: «والله لا أعطي واحدة منكن ثوبها حتى تخرج كما هي فتكون هي التي تأخذه.» فأبين ذلك عليه حتى ارتفع النهار، وتذامرن بينهن، وخشين أن يقصرن دون المنزل الذي يُرِدْن، فخرجت إحداهن فوضع لها ثيابها ناحية، فمشت إليها حتى لبستها، ثم تتابعن على ذلك حتى بقيت ابنة عمه، فناشدته الله أن يطرح إليها ثيابها، فقال: «لا والله! أو تخرجي!» فخرجت، فنظر إليها مقبلة ومدبرة، فوضع لها ثيابها ناحية، فلبستها، ثم أقبلن عليه فقلن: «فضحتنا، وحبستنا، وأجعتنا!» قال: «فإن نحرت لكُنَّ ناقتي، أتأكلن منها؟» قلن: «نعم!» فاخترط سيفه فعقرها ونحرها وكشطها، وجمع الخدام حطبًا، وأججوا نارًا عظيمة، فجعل يقطع من سنامها، وكبدها، وأطايبها ويرمي به في الجمر، وهن يأكلن ويأكل معهن، ويشرب من فضلة خمر[١٢] كانت معهن، ويغنيهن وينبذ إلى الخدم من ذلك الكباب حتى شبعوا، فلما رأى ذلك وأراد الرحيل، قالت إحداهن: «أنا أحمل طنفسته.» وقالت الأخرى: «أنا أحمل رحله.» فتقسمن متاع راحلته وبقيت ابنة عمه لم تحمل شيئًا، فحملته على غارب بعيرها، فكان

[١٠] الجمهرة ص٨٦.

[١١] في الزوزني أنها عنيزة ابنة عمه شراحيل، ثم ذكر أن اسمها عنيزة وفاطمة، أو اسمها فاطمة، ولقبها عنيزة، وجرى في الجمهرة على ذلك عند قوله: «خدر عنيزة.»

[١٢] في الزوزني: وكان معه ركوة خمر فسقاهن منها.

يجنح إليها فيدخل رأسه في حجرها، ويقبلها، فإذا امتنعت عليه أمال هودجها فتقول: «يا امرأ القيس! عقرت بعيري فانزل!» فما زال كذلك حتى جنه الليل، ثم راح إلى أهله، وذلك قوله:

ويوم عقرت للعذارى مطيتي فيا عجبًا من كورها المتحملِ!

قضى امرؤ القيس شطرًا كبيرًا من حياته في الصبوة واللهو، ولم يشأ له القدر أن يتم البقية الباقية منها في مسارح الصبابة بين الغيد الحسان، وأقداح الخمر.

فبينما هو ذات يوم مع رفاقه في موضع يقال له دَمُّون من أرض اليمن يشرب الخمر ويلعب بالنرد، جاءه عامر العجلي فقال له: «قُتل حجر!» فلم يلتفت إليه، وأمسك رفيقه عن اللعب، فقال له امرؤ القيس: «اضرب!» فضرب، حتى إذا فرغ قال: «ما كنت لأفسد عليك دستك!» ثم أقبل على الرسول فسأله عن أمر أبيه فأخبره، فقال: «تطاول الليل علينا دمون! إنَّا معشر يمانون! وإنَّنا لأهلها محبون!» ثم قال:

أرقت ولم يأرق لمثلي نافع وهاج لي الشوق الهموم الروادعُ[١٣]

ثم قال:

«ضيعني صغيرًا، وحمَّلني دمه كبيرًا! لا صحو اليوم، ولا سكر غدًا! اليوم خمر وغدًا أمر!»[١٤] (فذهبت مثلًا)، ثم دفع إليه الرسول الوصية والكتاب والسلاح، ثم قال:

خليليَّ لا في اليوم مصحًى لشارب ولا في غد إذ ذاك ما كان يشربُ

ثم شرب سبعًا، فلما صحا، آلى أن لا يأكل لحمًا ولا يشرب خمرًا ولا يدَّهن ولا يلهو ولا يغسل رأسه حتى يدرك ثأر أبيه، فيقتل مائة من بني أسد، ويجز نواصي مائة.

[١٣] ردعه عن الشيء: كفه. وردع به الأرض: إذا ضرب به الأرض.

[١٤] في اللسان: قال امرؤ القيس على الشراب حين قيل له «قتل أبوك»: اليوم قحاف، وغدًا نقاف! والقحاف: شدة البرد. والنقاف: المضاربة بالسيوف على الرءوس. ويقال: اليوم قحاف وغدًا نقاف؛ أي اليوم خمر وغدًا أمر. وفي التاج: أي اليوم الشرب بالقحاف. قال أبو الهيثم: المقاحفة: شدة المشاربة بالقحف؛ وذلك أن أحدهم إذا قتل ثأره شرب بقحف رأسه يتشفى به.

فلما جن عليه الليل رأى برقًا فقال:

أرقت لبرق بليل أهل يضيء سناه بأعلى الجبل
أتاني حديث فكذبته بأمر تزعزع منه القللْ[١٥]
بقتل بني أسد ربهم ألا كل شيء سواه جلل[١٦]
فأين ربيعة عن ربها وأين تميم وأين الخول[١٧]
ألا يحضرون لدى بابه كما يحضرون إذا ما أكلْ؟

ويقال إنه لما قُتل أبوه كان غلامًا قد ترعرع، وكان مقيمًا في بني حنظلة؛ لأن ظئره[١٨] كانت امرأة منهم، فلما بلغه ذلك قال:

يا لهف هند إذ خطئن كاهلا القاتلين الملِك الحلاحلا
تالله لا يذهب شيخي باطلا يا خير شيخ حسبًا ونائلا
وخيرهم قد علموا فواضلا يحملننا والأسل النواهلا
وحي صعب[١٩] والوشيج الذابلا مستشفرات[٢٠] بالحصى جوافلا

ثم أخذ[٢١] يعد العدد، ويجهز الأسلحة، ويستنفر القبائل لقتال بني أسد، فانتهى إليهم خبر ذلك فأوفدوا إليه رجالًا؛ كهولًا وشبانًا، فيهم المهاجر بن خداش ابن عم عبيد بن الأبرص، وقبيصة بن نعيم، وكان في بني أسد مقيمًا، وكان ذا بصيرة بمواقع

---

[١٥] تزعزع: تتحرك. والقلل: ج قلة؛ وهي أعلى الجبل، وقلة كل شيء أعلاه.
[١٦] ربهم: سيدهم. جلل: يسير، هين.
[١٧] الخول: الخدم والحشم.
[١٨] الظئر: العاطفة على ولد غيرها والمرضعة له.
[١٩] صعب بن علي بن بكر بن وائل.
[٢٠] استثفر: أدخل ذنبه بين فخذيه حتى يلزقه ببطنه. واستثفر الإنسان: أدخل إزاره بين فخذيه ملويًّا. وأراد بقوله «مستثفرات بالحصى»: أنها أثارت الحصى بحوافرها لشدة جريها حتى ارتفع إلى أثفارها، ج ثَفْر، وهو السير الذي في مؤخر السرج.
[٢١] الأغاني ٨ / ٧٣.

الأمور وردًا وإصدارًا، يعرف ذلك له من كان محيطًا بأكناف بلده من العرب، فلما علم بمكانهم، أمر بإنزالهم، وتقدم بإكرامهم والإفضال عليهم، واحتجب عنهم ثلاثًا.

فسألوا من حضرهم من رجال كندة، فقال: «هو في شغل بإخراج ما في خزائن حُجْر من السلاح والعدة.» فقالوا: «اللهم غفرًا! إنما قدمنا في أمر نتناسى به ذكر ما سلف، ونستدرك به ما فرط، فليبغ[٢٢] ذلك عنا!» فخرج عليهم في قباء وخف وعمامة سوداء، وكانت العرب لا تعتمُّ بالسواد إلا في الترات.[٢٣]

فلما نظروا إليه قاموا له، وبدر إليه قبيصة، فقال: «إنك في المحل والقدر والمعرفة بتفرق الدهر وما تحدثه أيامه وتتنقل به أحواله بحيث لا تحتاج إلى تبصير واعظ، ولا تذكرة مجرب، ولك من سؤدد منصبك، وشرف أعراقك، وكرم أصلك في العرب، مُحتَمَل يَحتمِل ما حمِّل عليه من إقالة العثرة، ورجوع عن هفوة، ولا تتجاوز الهمم إلى غاية إلا رجعت إليك، فوجدت عندك من فضيلة الرأي، وبصيرة الفهم، وكرم الصفح في الذي كان من الخَطْب الجليل الذي عمت رزيته نزارًا واليمن، ولم تخصص كندة بذلك دوننا للشرف البارع! كان لحجر التاج والعمة فوق الجبين الكريم، وإخاء الحمد، وطيب الشيم، ولو كان يفدى هالك بالأنفس الباقية بعده، لما بخلت كرائمنا على مثله ببذل ذلك، ولفديناه منه! ولكن مضى به سبيل لا يرجع أولاه على أخراه ولا يلحق أقصاه أدناه، فأحمد الحالات في ذلك أن تعرف الواجب عليك في إحدى خلال: إما أن اخترت من بني أسد أشرفها بيتًا، وأعلاها في بناء المكرمات صوتًا، فقُدناه إليك بنسعة[٢٤] يذهب مع شفرات حسامك، تناثي[٢٥] قعيدته[٢٦] فنقول: امتحن بهلك عزيز! فلم تستلَّ سخيمته[٢٧] إلا بتمكينه من الانتقام، أو فداء بما يروح على بني أسد من نَعمها، فهي ألوف تجاوز الحسبة، فكان ذلك فداءً رجعت به القضب[٢٨] إلى أجفانها لم يردده تسليط

[٢٢] لعلها: فليبلغ.

[٢٣] الترات: ج ترة؛ الذحل.

[٢٤] النسعة: سير مضفور يجعل زمامًا للبعير وغيره.

[٢٥] تناثي: تذكر.

[٢٦] قعيدته: زوجته.

[٢٧] سخيمته: حقده وضغينته.

[٢٨] القضب: السيوف.

الإحن على البُرَآء، وإما أن توادعنا[٢٩] حتى تضع الحوامل فنسدل الأُزُر، ونعقد الخُمُر فوق الرايات.»

قال: فبكى ساعة، ثم رفع رأسه فقال: «لقد علمت العرب أن لا كفء لحجر في دم، وإني لن أعتاض به جملًا أو ناقة، فأكتسب بذلك سبة الأبد، وفت العضد.[٣٠] وأما النظرة[٣١] فقد أوجبتها الأجنَّة[٣٢] في بطون أمهاتها، ولن أكون لعطبها سببًا، وستعرفون طلائع كندة من بعد ذلك: تحمل القلوب حَنَقًا[٣٣] وفوق الأسنة عَلَقًا:[٣٤]

إذا جالت الخيل في مأزق تُدافع فيه المنايا النفوسا

أتقيمون أم تنصرفون؟» قالوا: «بل ننصرف بأسوأ الاختيار، وأبلى الاجترار[٣٥] لمكروه وأذية وحرب وبلية.» ثم نهضوا عنه وقبيصة يقول متمثلًا:

لعلك أن تستوخم[٣٦] الموت إن غدت كتائبنا في مأزق الموت تمطر!

فقال امرؤ القيس: «لا والله، لا أستوخمه. فرويدًا ينكشف لك دجاها عن فرسان كندة وكتائب حِميَر! ولقد كان ذكر غير هذا أولى بي إذ كنت نازلًا بربعي، ولكنك قلت فأجبت!» فقال قبيصة: «ما نتوقع فوق قدر المعاتبة والإعتاب.» قال امرؤ القيس: «فهو ذاك!»

---

[٢٩] الموادعة: المتاركة والمهادنة.

[٣٠] فت فلان في عضده: إذا كسر من نيات أعوانه وفرقهم عنه. والعضد: الناصر والمعين.

[٣١] النظرة: التأخير في الأمر.

[٣٢] الأجنة: ج جنين: الولد ما دام في بطن أمه.

[٣٣] الحنق: الغيظ.

[٣٤] العلق: الدم.

[٣٥] اجتر: جذب وجر.

[٣٦] استوخم الطعام: لم يستمرئه ولا حمد مغبته، واستوخم الأرض: استوبلها؛ أي لم توافقه في مطعمه وإن كان محبًّا لها.

ثم ذهب امرؤ القيس فاستنجد بكرًا وتغلب فسألهم النصر على بني أسد، فبعث العيون على بني أسد، فنزروا بالعيون، ولجَئوا إلى بني كنانة، فقال لهم عِلْباء بن الحارث: «يا معشر بني أسد! إن عيون امرئ القيس قد أتتكم ورجعت إليه بخبركم، فارحلوا بليل ولا تعلموا بني كنانة.» ففعلوا، وأقبل امرؤ القيس بمن معه من بكر وتغلب حتى انتهى إلى بني كنانة وهو يحسبهم بني أسد، فوضع فيهم السلاح وقال: «يا لثارات الملك!» فقالت له عجوز كنانية: «أبيت اللعن! لسنا لك بثأر! نحن من كنانة، فدونك ثأرك فاطلبهم، إن القوم قد ساروا بالأمس.» فتبع بني أسد، ففاتوه ليلتهم تلك، فقال:

ألا يا لهف هندٍ إثر قوم   همُ كانوا الشقاء فلم يصابوا
وقاهم جدهم ببني أبيهم   وبالأشقين ما كان العقابُ[٣٧]
وأفلتهنَّ عِلْباءٌ جريضًا   ولو أدركْته صفر الوطاب[٣٨]

وكانت بنو أسد على الماء فنهد إليهم فقاتلهم، فأكثر فيهم القتل والجرح، فهربوا بعد أن حجز الليل بين الفريقين.

ثم تراجعت بكر وتغلب عن نصرته، وقالوا: «أصبت ثأرك!» فقال: «والله ما أصبت من بني كاهل ولا من غيرهم من بني أسد أحدًا.» قالوا: «بلى! ولكنك رجل مشئوم.» وانفضوا عنه.

فذهب إلى اليمن واستنصر الأزْد، فأبوا، فقصد قيلًا يدعى مرثد الخير بن ذي جدن الحميري، فأمده بخمسمائة رجل من حمير، ومات مرثد قبل رحيل امرئ القيس بهم، وقام بالمملكة بعده رجل من حمير يقال له: قَرْمَل بن الحميم، وكانت أمه سوداء، فردد امرأ القيس وطول عليه حتى همَّ بالانصراف وقال:

وإذ نحن ندعو مرثد الخير ربنا   وإذ نحن لا نُدعى عبيدًا لقَرْمَل

[٣٧] يعني بني كنانة؛ لأن أسدًا وكنانة أخوان.

[٣٨] علباء اسم رجل تقدم ذكره. والجريض: المغموم. وأفلت فلان جريضًا: يكاد يقضي. ومعنى «صفر الوطاب»: لو أدركوه قتلوه وساقوا إبله فصفرت وطابه من اللبن، وقيل إنه كان يقتل فيكون جسمه صفرًا من الدم كما يكون الوطاب صفرًا من اللبن. والوطاب: ج وَطْب.

فأنفذ له ذلك الجيش، وتبعه شذاذ من العرب، واستأجر رجالًا من القبائل، وأَمَّ بني أسد، فمر في طريقه على تَبالة[٣٩] وفيها صنم يقال له «ذو الخَلَصة»،[٤٠] فاستقسم عنده بقداحه الثلاثة، وهي: الآمر والناهي والمتربص، فخرج الناهي ثلاث مرات، فكسرها، وضرب بها وجه الصنم، وقال: «ويحك! لو أبوك قتل ما عقتني!» ثم نزل بني أسد فظفر بهم.

ووجه المنذر[٤١] جيوشًا من إياد وبهراء وتنوخ في طلب امرئ القيس، وأمده أنوشروان بجيش من الأساورة، فتفرقت عنه حمير ومن كان معه، ونجا امرؤ القيس في فئة من

[٣٩] تبالة: بلد باليمن خصبة؛ وهي غير تبالة التي وليها الحجاج.

[٤٠] بيت لخثعم كان يدعى كعبة اليمانية، وكان فيه صنم يدعى «الخلصة» فهدم؛ ويقال إنه ما استقسم عند ذي الخلصة بعد ذلك بقدح حتى جاء الإسلام وهدمه جرير بن عبد الله البجلي.

[٤١] سبب العداء بين المنذر وامرئ القيس أن جد امرئ القيس الحارث بن عمرو ملك بعد أبيه، كان شديد الملك بعيد الصيت، ولما ملك قباذ بن فيروز خرج في أيام ملكه رجل يقال له «مزدك»، فدعا الناس إلى الزندقة وإباحة الحرم، وأن لا يمنع أحد منهم أخاه ما يريده من ذلك، وكان المنذر بن ماء السماء يومئذ عاملًا على الحيرة ونواحيها، فدعاه قباذ إلى الدخول معه في ذلك، فأبى، ودعا الحارث بن عمرو فأجابه، فشدد له ملكه، وطرد المنذر عن مملكته وغلب على ملكه. ثم وقعت حادثة فظيعة؛ وذلك أن أم أنوشروان كانت بين يدي قباذ يومًا، فدخل عليه مزدك ورآها، فقال لقباذ: «ادفعها إليَّ!» فقال: «دُونكَها!» فجعل أنوشروان يتضرع إليه أن يهَب له أمه، وقبَّل رجله، فتركها له، واضطغن ذلك في نفسه، فلما هلك قباذ ملك أنوشروان، وبلغ المنذر هلاك قباذ فأقبل إلى أنوشروان، فلما أذن للناس، دخل عليه مزدك ثم دخل المنذر، فقال أنوشروان: «إني كنت تمنيت أمنيتين أرجو أن يكون الله قد جمعهما لي.» قال مزدك: «ما هما؟» قال: «تمنيت أن أملك فأَستعمل هذا الرجل الشريف — يعني المنذر — وأن أقتل هؤلاء الزنادقة!» قال مزدك: «أَوَتستطيع أن تقتل الناس كلها؟» قال: «إنك لههنا يابْن ...» ثم أَمر به، فقُتل وصُلب، وأَمر بقتل الزنادقة فقَتل منهم خلقًا كثيرًا.

وطلب أنوشروان الحارث بن عمر — وكان بالأنبار — فخرج هاربًا في هجائنه وماله وولده، فمر بالثوية، وتبعه المنذر بالخيل مِن تغلب وبهراء وإياد، فلحق بأرض كليب، فنجا، وانتهبوا ماله وهجائنه، وأخذ بنو تغلب ثمانيًا وأربعين نفسًا من بني آكل المرار، فقدموا بهم على المنذر فضرب رقابهم بجفر الأملاك في ديار بني مرينة، وفيهم يقول امرؤ القيس:

ملوك من بني حجر بن عمرٍو   يساقون العشية يقتلونا
فلو في يومِ معركةٍ أصيبوا   ولكن في ديار بني مَرِينا
ولم تغسل جماجمهم بغسل   ولكن في الدماء مُرَمَّلينا

بني آكل المرار، فنزل بالحرث بن شهاب من بني يربوع بن حنظلة، فبعث إليه المنذر مائة مقاتل يهدده بالحرب إن لم يسلمهم، فأسلمهم، ونجا امرؤ القيس مع ابنته «هند» ويزيد بن معاوية بن الحرث، والأدرع والسلاح، ومال كان بقي معه، فخرج على وجهه حتى وقع في أرض طيء، وقيل نزل على سعد بن الضباب الإيادي، فأجاره.

ثم تحول عنه، فنزل برجل من بني جديلة يقال له المعلَّى بن تيم، فقال فيه:

كأني إذ نزلت على المعلى نزلت على البواذخ من شمام

(إلى آخر الأبيات الآتية في المدح ...)

فلبث عنده، واتخذ إبلًا هناك، فطردها قوم من بني جديلة، فخرج ونزل على خالد بن سدوس من بني نبهان من طيء، وكان عنده رواحل، فركبها خالد مع نفر من بني نبهان وخرجوا ليطلبوا له الإبل من جديلة، فأخذت جديلة الرواحل ورجعوا إليه بلا شيء، فقال في ذلك:

عجبت[٤٢] له مشي الحُزُقَّة خالد كمشي أتان حُلِّئَت بالمناهلِ
فدعْ عنك نهبًا صيح في حَجَراته ولكن حديث ما حديث الرواحلِ

تظل الطير عاكفة عليهم وتنتزع الحواجب والعيونا

(بنو مرينا: قوم من أهل الحيرة.)
(الغِسل: ما يغسل به من خطمي وأشنان وغيرهما. ورمله بالدم: لطخه به.)
فظلت هذه الضغينة متوارثة بين المناذرة والكِنديين.

[٤٢] هذه رواية الأغاني، ورواه في اللسان في «حزق» هكذا: «وأعجبني مشي الحزقة»، ورواه في «حلأ»: «حلئت عن مناهلي.» والحزقة: الرجل القصير الذي يقارب الخطو. وحلئت: طردت أو حبست عن الماء. والنهب: المنهوب. والحجرات: ج حجرة؛ وهي الناحية.

يقول: دع النهب الذي نهب من نواحيك، وحدثني حديث الرواحل، وهي الإبل، التي ذهبت ما فعلت. ورواه في اللسان: «ولكن حديثًا ...» وهذا مثل يضرب لمن ذهب من ماله شيء ثم ذهب بعده ما هو أجل منه.

ففرقت عليه بنو نبهان فرقًا من معزى يحلبها، فأنشأ يقول:

إذا ما لم نجد إبلًا فمعزى   كأن قرون جِلَّتها العصي[٤٣]
إذا ما قام حالبها أرنَّت   كأن القوم صَبَّحهم نَعِيُّ[٤٤]
فتملأ بيتنا أقطًا وسمنًا   وحسبك من غنًى شبع وري[٤٥]

ثم خرج فنزل بعامر بن جوين، وكان أحد الخلعاء القتاك، تبرأ قومه من جرائره، فخافه امرؤ القيس على نفسه وأهله وماله، ثم تغفله وانتقل إلى رجل من بني ثعل يقال له حارثة بن مر، فاستجار به، فوقعت حرب بين عامر والثعلي من أجله، فخرج ونزل بعمرو بن جابر بن مازن من بني فزارة، وطلب منه الجوار حتى يرى ذات غيبه، فدله على السموأل، ووصف له منعته وحصنه فقال امرؤ القيس: «وكيف لي به؟» قال: «أوصلك إلى من يوصلك إليه.» فأوصله إلى الربيع بن ضبع الفزاري، وكان ممن يأتي السموأل، فقال له الفزاري: «إن السموأل يعجبه الشعر، فتعالَ نتناشد له أشعارًا!» فقال امرؤ القيس: «قل حتى أقول!» فقال الربيع قصيدة طويلة أولها:

قل للمنية أيَّ حين نلتقي   بفناء بيتك في الحضيض المزلقي

فقال امرؤ القيس:

طرقتك هندٌ بعد طول تجنُّب   وهنًا ولم تك قبل ذلك تطرق[٤٦]

[٤٣] الجلة: ج جليل؛ أي المسن.
[٤٤] أرنت: صوتت. والنعي: خبر الموت ونداء الداعي.
[٤٥] الأقط: شيء يتخذ من اللبن المخيض يطبخ ثم يترك حتى يمصل.
[٤٦] هذا من قصيدة طويلة، وهي لا تشاكل كلام امرئ القيس؛ ولهذا ذهب بعض الأدباء إلى أنها منحولة، ولم تدون في ديوانه.

ثم ذهب به الفزاري إلى السموأل، فلما كانوا ببعض الطريق رأوا بقرة وحشية مرمية، فتركوها، فمر بهم قوم قناصون من بني ثعل، فقالوا لهم: «من أنتم؟» فانتسبوا لهم، فإذا هم من جيران السموأل، فانصرفوا إليه جميعًا، وقال امرؤ القيس:

رب رام من بني ثُعَل   مخرجٌ كفَّيه من قُتَرِه[٤٧]
عارض زوراء من نَشَم   مع بانات على وتره[٤٨]
إذ أتته الوحش واردة   فتثنى النزع في يَسَره[٤٩]
فرماها في فرائصها   بإزاء الحوض أو عُقَره[٥٠]
برهيش من كنانته   كتلظي الجمر في شرره[٥١]
راشه من ريش ناهضة   ثم أمهاه على حجره[٥٢]
فهو لا تَنْمي رميَّته   ما له لا عد من نفره[٥٣]

ثم مضوا حتى قدموا على السموأل، فأنشده الشعر، وعرف لهم حقهم فأنزل المرأة في قبة أدم، وأنزل القوم في مجلس له براح،[٥٤] فلبث عنده حينًا ثم طلب إليه أن يكتب كتابًا إلى الحارث بن أبي شمر الغساني بالشام ليوصله إلى قيصر، فاستنجد له، ورحلا،

---

[٤٧] قترة الصائد: بئر يحتفرها ويكمن فيها، والجمع قُتَر. ورواه في اللسان: «مِن سِتَره»، ولعله ج سترة، وهو ما استترت به، كائنًا ما كان.

[٤٨] قوس زوراء معطوفة، والنشم شجر تتخذ منه القسي. ورواه في اللسان: «غير بانات على وتره.»

[٤٩] رواه في الصحاح واللسان: «فأتته الوحش فتمنى النزع …» والتمني في نزع القوس: مد الصلب. واليسر: ج يسرة؛ أسرار الكف إذا كانت غير ملتزقة؛ يقال: «في فلان يسر.» واليسر: ما كان حذاء وجهك، وروي: يُسَر، ج يسرَى، روي يُسُر ج يسار.

[٥٠] الفريصة: لحمة بين الجنب والكتف ترعد من الدابة إذا فزعت. وعقر الحوض: موضع الشاربة منه.

[٥١] الرهيش: النصل الدقيق، ونسل رهيش: جديد.

[٥٢] راش السهم: ركب عليه الريش. والناهض: فرخ العُقَاب الذي وَفُر جناحاه ونهض للطيران. وأمهى الحديدة: سقاها الماء وأحدَّها.

[٥٣] يقال أنميت الصيد فنمى ينمي: وذلك أن ترميه فتصيبه ويذهب عنك فيموت بعدما يغيب. والنفر: الرهط، دعا عليه وهو يريد مدحه، كقولك لرجل يعجبك فعله: ما له قاتله الله! وأنت تريد غير معنى الدعاء عليه.

[٥٤] أرض براح: واسعة ظاهرة لا نبات فيها ولا عمران.

واستودع عنده المرأة والأدراع والمال، وكان عنده خمس أدرع: الفضفاضة، والضافية، والمحصَّنة، والخرِّيق، وأم الذيول، وهي لبني آكل المرار يتوارثونها ملكًا فملكًا.

وضع ذلك عند السموأل وأقام معها ابن عمه يزيد بن الحرث بن معاوية، فمضى إلى القسطنطينية، وأخرج معه إليها عمرو بن قميئة الضُبَعِي، وكان شاعرًا فحلًا، لقيه في آخر عمره، فقال: «ألا تركب للصيد؟» فقال:

شكوت إليه أنني ذو جلالة وأني كبير ذو عيال مجنبِ
فقال لنا أهلًا وسهلًا ومرحبًا! إذا سركم لحم من الوحش فاركبوا

فلما جاوز الدرب، علم أنه سائر إلى قيصر، فبكى، وقد أشار امرؤ القيس إلى هذه الرحلة بقوله من قصيدة:

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه وأيقن أنا لاحقان بقيصرا

ثم مات عمرو في الطريق، فسمي «الضائع»، لموته في غربة من غير إربة.[٥٥]

ولما انتهى امرؤ القيس إلى قيصر قبله وأكرمه، وكانت له عنده منزلة، فاندس رجل من بني أسد يقال له «الطماح» — وكان امرؤ القيس قد قتل أخًا له — فأتى بلاد الروم وأقام مستخفيًا.

ثم إن قيصر ضم إلى امرئ القيس جيشًا كثيفًا فيه جماعة من أبناء الملوك، وطمع أن يكون له قوة في العرب يقاوم بها نفوذ الأكاسرة. فلما فصل الجيش قال لقيصرَ قومٌ من أصحابه: «لا تأمن أن يظفر بما يريد ثم يغزوك بمن بعثت معه!» فصرف الجيش وأعاده.

ويقال إن الطماح الأسدي قال لقيصر: إن امرأ القيس غويٌّ عاهر، وإنه لما انصرف عنك بالجيش ذكر أنه كان يراسل ابنتك ويواصلها، وهو قائل في ذلك أشعارًا يشهرها بها، فيفضحها في العرب ويفضحك. فبعث إليه حينئذ بحلة وشي مسمومة منسوجة بالذهب، وقال له: «إني أرسلت إليك بحلتي التي كنت ألبسها تكرمة لك، فإذا وصلت

[٥٥] الإربة: الحاجة.

إليك فالبسها باليمن والبركة، واكتب إلي بخبرك من منزل منزل.» فلما لبسها أسرع فيه السم وسقط جلده، فلذلك سمي «ذا القروح»، وقال في ذلك:

لقد طمح الطماح من بعد أرضه ليلبسني من دائه ما تلبسا
فلو أنها نفس تموت سوية[٥٦] ولكنها نفس تساقط أنفسا

ثم صار إلى أنقرة، فاحتضر بها، فقال:

ربَّ جَفْنَة مُسْحَنْفِرَهْ[٥٧] وطعنة مُثْعَنْجِرَهْ
وخطبة محبَّرهْ تبقى غدًا بأنقرهْ

ورأى قبر امرأة من أبناء الملوك ماتت هناك، فدفنت في سفح جبل يقال له «عسيب»، فسأل عنها فأُخبر بقصتها، فقال:

أجارتنا إن الخطوب تنوب[٥٨] وإني مقيم ما أقام عسيب
أجارتنا إنا غريبان ههنا وكل غريب للغريب نسيب

ثم مات فدفن إلى جنب المرأة، فقبره هناك.

هذا ما ذهب إليه صاحب الأغاني، وفي نهاية الأرب:[٥٩] الطماح رجل من أسد، أرسله قيصر إلى امرئ القيس بحلة مسمومة، فلما لبسها تقطع ومات بأنقرة.

أما موته بالحلة المسمومة فيجوز أن يكون أصابه قروح من احتكاك الثياب بجسمه فخالطها السم، كما يجوز أن تكون تلك القروح التهبت فأودت بحياته.

---

[٥٦] أي: لَهَانَ علي الأمر؛ وفيه إيجاز.

[٥٧] روي: «رب خطبة مسحنفرة …» وروي باختلافات كثيرة، ومعنى «مسحنفرة»: كثيرة الصب والسيلان. ومثعنجرة: ممتلئة ثريدًا يفيض ودكها. ومحبرة: محسنة. والبيت الأول فيه خزم بزيادة حرفين.

[٥٨] في الأغاني: «إن المزار قريب …»

[٥٩] ج٥ ص١٩١.

خلاصة حياته وما نستنتج منها

إذا أمعنا النظر في كل ما أسلفنا يتضح لنا أمور:

(١) أن امرأ القيس من بيت عريق في الشرف والملك، وأنه كريم الطرفين: معم مخول.

(٢) أنه يمني الأصل والمحتد، ولكنه نزاري النشأة واللحن؛ فقد ولد في ديار بني أسد، وتكلم بلغتهم منذ نعومة أظفاره، فجاء شعره نزاري اللهجة واللغة.

(٣) أنه استهل حياته بالصبوة واللهو والنعيم والترف، ثم تدرج إلى سلسلة من المصائب ابتدأت بطرد أبيه إياه، وعيشته عيشة أصحابه من شذاذ العرب وذؤبانهم في الفلوات، ثم تفاقم الخطب بقتل أبيه وما تبعه من استنصار القبائل وقعودهم عن مظاهرته، ثم مطاردة المنذر إياه وتراميه على القبائل والمجيرين ليحموه ويحموا ابنته وما معه من المال والسلاح، وإغارة فريق على ابنته، ثم شخوصه إلى قيصر وإخفاقه في رحلته التي انتهت بموته في دار غربة بين أنياب الفاقة والقروح بعيدًا عن أهله وقومه، وقد كان في خلال ذلك يكابد من الآلام الموجعة، والصغار الممض، ما كان له أسوأ وقع في نفسه.

فهو في غزله يمثل لنا ناحية من حياته التي قضاها في مغازلة الحِسان ومعاقرة الخمر، وفي وصفه يمثل لنا ناحية أخرى قضاها في ركوب الخيل والصيد، واجتياب الأودية والفيافي وما شاكل ذلك.

وفي فخره وشكواه يبين لنا عن نفسٍ ألحَّت عليها المصائب حتى بدلت أنفتها خنوعًا، وعزَّتها ذلًّا، وقوتها ضعفًا، وجعلتها تقنع بالمعزى بعد الصافنات الجياد والإبل الهِجان، وتعُدُّ الشبع والري غاية الغنى، بعد أن كانت تعقر للعذارى مطية فيرتمين بلحمها وشحمها.

(٤) قد يسبق إلى الظن أن في شيء مما أسلفنا ذكره ما يدعو إلى الشك والريبة مثل موته مسمومًا بالحُلة، وقوله الأشعار والرجز في الغربة في ديار قوم لا يعرفون العربية، ولا يحسنون رواية الأشعار وحفظها.

وقد ذكرنا للأول وجهًا لا يبعده من الحقيقة.

أما الثاني فقد تضافرت الروايات على نسبة الرجز الذي قاله في أنقرة، وإن ورد فيها اختلاف في تأليفه وصورته، وعلى نسبة الأبيات التي قالها حين رأى امرأة مدفونة عند عسيب.

ولا مجال للشك بعد هذا، على أنهم ذكروا[١] أن امرأ القيس صحب في رحلته هذه جابر بن حُنَي التغلبي إلى بلاد الروم، فلما اشتدت علته، صنع له جابر من الخشب شيئًا كالفرِّ فكان يحمله فيه.

وقد أشار امرؤ القيس إلى ذلك بقوله من قصيدة:

فإما تَرَيْني في رِحالة جابر على حَرَج كالقرِّ تخفق أكفاني[٢]
فيا رُب مكروب كَرَرْت وراءه وعانٍ فككت الغُل منه ففدَّاني
إذا المرء لم يخزُن عليه لسانه فليس على شيء سواه بخزَّانِ

وهذا يدل على أن هذه القصيدة قالها في بلاد الروم قبيل وفاته.

وذكر في الخزانة أن امرأ القيس قال قصيدته:

ألا عم صباحًا أيها الطلل البالي وهل يَعِمَنْ من كان في العصر الخالي

[١] ممن ذكر ذلك صاحبا اللسان والخزانة.

[٢] الرحالة: السرج من جلود لا خشب فيه يتخذ للركض الشديد، وأراد بها الخشب الذي يحمل عليه في مرضه. والحرج: سرير يحمل عليه المريض أو الميت، أو خشب يشد بعضه إلى بعض. وأراد بالأكفان: ثيابه التي عليه؛ لأنه قدر أنها ثيابه التي يدفن فيها، وخفقها ضرب الريح لها. والقر: مركب من مراكب الرجال بين الرحل والسرج، وقد قال البغدادي: «الحرج: الضيق»، وهو لا يناسب هنا، وإن كان من جملة معانيه، فالصواب ما ذكرناه.

في طريق الشام عند مسيره إلى قيصر بعد قتل أبيه. وذكر ابن الكلبي أن قول امرئ القيس: وطعنة مسحنفره ... إلخ آخر شيء تكلم به ثم مات.

ولم يذكر الذين كتبوا في امرئ القيس أنه صحب في رحلته إلى قيصر أحدًا إلا عمرو بن قميئة (وقد مات في الطريق) وجابر بن حني (وقد بقي معه إلى أن مات)، فلعل جابرًا روى هذه الأبيات والرجز، كما روى غيرهما من شعره الذي قاله في رحلته هذه، كقصيدته التي يقول فيها:

تقطع أسباب اللبانات والهوى عشية جاوزنا حماة وشيزرا

* * *

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه وأيقن أنا لاحقانِ بقيصرا

فإنها تشهد لنفسها أنها مما قيل في هذه الرحلة.

ويجوز أن يكون صَحِبَ آخرين ممن لم نقف على أسمائهم، وهم رووا أقواله من رجز وقصيد.

وهذا يبطل ما زعمه بعض الأدباء من أن غزل امرئ القيس كان كله في صبوته، وسيتضح هذا بعد.

نباهة امرئ القيس وفطنته

كان امرؤ القيس فطنًا حاذقًا، يدرك المرامي البعيدة، والأغراض المتوخاة بحذقه ولباقته.

قال[1] مجالد بن سعيد بن عبد الملك: «قدم علينا عمر بن هبيرة الكوفة، فأرسل إلى عشرة، أنا أحدهم، من وجوه الكوفة، فسمرنا عنده، ثم قال: ليحدثني كل رجل منكم أحدوثة، وابدأ أنت يا أبا عمر. فقلت: أصلحَ الله الأمير! أحديث الحق أم حديث الباطل؟ قال: بل حديث الحق. قلت: إن امرأ القيس آلى ألية أن لا يتزوج امرأة حتى يسألها عن ثمانية وأربعة واثنين، فجعل يخطب النساء، فإذا سألهن عن هذا، قلن أربعة عشر، فبينا هو يسير في جوف الليل، إذا هو برجل يحمل ابنة له صغيرة، كأنها البدر لتمه، فأعجبته، فسألها: يا جارية! ما ثمانية، وأربعة، واثنان؟ فقالت: أما ثمانية فأطْباء الكلبة، وأما أربعة فأخلاف الناقة، وأما اثنان فثديا المرأة، فخطبها إلى أبيها، فزوجه إياها، وشرطت عليه أن تسأله ليلة بنائها عن ثلاث خصال، فجعل لها ذلك، وعلى أن يسوق إليها مائة من الإبل، وعشرة أعبد، وعشر وصائف، وثلاثة أفراس، ففعل ذلك، ثم إنه بعث عبدًا له إلى المرأة وأهدى لها نِحيًا[2] من سمن، ونِحيًا من عسل، وحلة من قصب، فنزل العبد على بعض المياه، فنشر الحلة فلبسها، فتعلقت بسَمُرَة، فانشقت وفتح النحيين فأطعم أهل الماء منهما، فنقصا، ثم قدم على حي المرأة، وهم خلوف،[3] فسألها عن أبيها وأمها وأخيها ودفع إليها هديتها، فقالت له: أعلِم مولاك أن أبي ذهب يقرب بعيدًا ويبعد

---

[1] نهاية الأرب ٢ / ١٥٥ والأغاني.

[2] النحي: الزق الذي يجعل فيه السمن خاصة، واستعماله في العمل للمشاكلة.

[3] خلوف: غيب وحضر، ضد.

قريبًا، وأن أمي ذهبت تشق النفس نفسين، وأن أخي ذهب يراعي الشمس، وأن سماءكم انشقت، وأن وعاءيكم نضبا، فقدم الغلام على مولاه فأخبره، فقال: أما قولها: إن أبي ذهب يقرب بعيدًا ويبعد قريبًا، فإن أباها ذهب يحالف قومًا على قومه، وأما قولها: ذهبت أمي تشق النفس نفسين، فإن أمها ذهبت تقبل[٤] امرأة نفساء، وأما قولها: ذهب أخي يراعي الشمس، فإن أخاها في سرح له يرعاه! فهو ينتظر وجوب[٥] الشمس ليروح به، وقولها: إن سماءكم انشقت، فإن البرد الذي بعثت به انشق، وأما قولها: إن وعاءيكم نضبا، فإن النحيين نقصا، فاصدقني؟ فقال: يا مولاي! إني نزلت بماء من مياه العرب، فسألوني عن نسبي، فأخبرتهم أني ابن عمك، ونشرت الحلة فلبستها، وتجملت بها، فتعلقت بسمرة فانشقت، وفَتحت النحيين، فأطعمت منهما أهل الماء، فقال: أولى لك[٦] ثم ساق مائة من الإبل، وخرج ومعه الغلام ليسقي الإبل، فعجز، فأعانه امرؤ القيس فرمى به الغلام في البئر، وخرج حتى أتى المرأة بالإبل، فأخبرهم أنه زوجها، فقيل لها: قد جاء زوجك. فقالت: والله ما أدري أزوجي هو أم لا، ولكن انحروا له جزورًا وأطعموه من كرشها وذنبها. ففعلوا فأكل ما أطعموه.

قالت: اسقوه لبنًا حازرًا (حامضًا). فسقوه فشرب. فقالت: افرشوا له عند الفرث[٧] والدم. ففرشوا له فنام، فلما أصبحت أرسلت إليه: أريد أن أسألك عن ثلاث. قال: سلي عما بدا لك. فقالت: لم تختلج شفتاك؟ قال: من تقبيلي إياك. قالت: لم تختلج فخذاك؟ قال: لتوركي إياك. قالت: فلم يختلج كشحاك؟ قال: لالتزامي إياك. قالت: عليكم العبد، فشدوا أيديكم به! ففعلوا.

ومر قوم بامرئ القيس فاستخرجوه من البئر، فرجع إلى حيه فاستاق مائة من الإبل، وأقبل إلى امرأته، فقيل لها: قد جاء زوجك. فقالت: والله ما أدري! أزوجي هو أم لا! ولكن انحروا له جزورًا، وأطعموه من كرشها وذنبها. ففعلوا، فلما أتوه بذلك قال: وأين الكبد، والسنام والمَلْحاء[٨] فأبى أن يأكل، فقالت: اسقوه لبنًا حازرًا. فأتي به،

[٤] قبِلت القابلة المرأة تقبَلها: إذا قبلت الولد؛ أي تلقَّته عند الولادة، وقبلت الولد: أخذته من الوالدة.

[٥] سقوط وغياب.

[٦] تهدد ووعيد؛ أي قاربك ما تكره، أو كلمة يقولها الرجل يحسر آخر على ما قاته ويقول له: يا محروم؛ أي شيء فاتك؟!

[٧] السرجين ما دام في الكرش.

[٨] الفقر التي عليها السنام، أو ما بين السنام والعجز.

فأبى أن يشربه، وقال: أين الصريف والرثيئة؟[٩] فقالت: افرشوا له عند الفرث والدم. ففرشوا له، فأبى أن ينام، وقال: افرشوا لي فوق التلعة الحمراء واضربوا عليها خباءً. ثم أرسلت إليه: هلمَّ شريطتي[١٠] عليك في المسائل الثلاث. فأرسل إليها: سليني عما شئت! فقالت: لم تختلج شفتاك؟ قال: لشرب المشعشعات.[١١] قالت: فلم يختلج كشحاك؟ قال: للبس الحِبَرات.[١٢] قالت: فلم يختلج فخذاك؟ قال: لركض المطهمات.[١٣] قالت: هذا زوجي لعمري! فعليكم به واقتلوا العبد. فقتلوه، ودخل امرؤ القيس بالجارية.»

قال ابن هبيرة: حسبكم! فلا خير في الحديث في سائر الليلة بعد حديثك يا أبا عمرو، ولن يأتينا أحد بأعجب منه، فقمنا وانصرفنا، وأمر لي بجائزة.

[٩] الصريف اللبن ينصرف عن الضرع حارًّا إذا حلب فإذا سكنت رغوته فهو صريح. والرثيئة: لبن حامض يحلب عليه فيختثر.

[١٠] الشريطة: الشرط.

[١١] الخمر الممزوجة بالماء أو التي أرق مزاجها.

[١٢] ضرب من برود اليمن مثمر.

[١٣] المطهم من الناس والخيل: الحسن التام، كل شيء منه على حدة، وقليل لحم الوجه أو السمين الفاحش السمن.

منزلته في الشعر عند العلماء والشعراء

أجمعت كلمة العلماء بالأدب على أن امرأ القيس من الشعراء الفحول، وأنه من شعراء الطبقة الأولى، وأكثرهم على أنه رأس الطبقة الأولى، وقد شهد له بالفضل والتقدم أهل الفصاحة، وأعلام البيان والأدب والشعر.

خرج وفد من جهينة، فلما قدموا على النبي ﷺ سألهم عن مسيرهم، فقالوا: «يا رسول الله! لولا بيتان قالهما امرؤ القيس لهلكنا!» قال: «وما ذاك؟» قالوا: «خرجنا نريدك! حتى إذا كنا ببعض الطريق، إذا برجل على ناقة له مقبل إلينا، فنظر إليه بعض القوم، فأعجبه سير الناقة، فتمثل ببيتين لامرئ القيس، وهما:

ولما رأت[١] أن الشريعة[٢] وردها[٣]   وأن البياض من فرائصها دامِي
تيممت العين التي عند ضارج[٤]   يفيء عليها الظل عرمضها[٥] طام[٦]

---

[١] الضمير للحمر.

[٢] الشريعة: مورد الماء الذي تشرب فيه الإبل.

[٣] في اللسان، والخزانة، والشعر والشعراء: «إن الشريعة همها»؛ أي طلبها.

[٤] موضع في بلاد عبس.

[٥] طحلبها.

[٦] طامٍ: مرتفع؛ يريد أن هذه الحمر لما أرادت شريعة الماء وخافت على أنفسها الرماةَ وأن تدمى فرائصها من سهامهم، عدلت إلى العين التي عند ضارج لعدم الرماة عليها.

وقد كان ماؤها نفد، فاستدللنا على العين بهذين البيتين، فوردناها.» قال النبي ﷺ: «أما إني لو أدركته لنفعته، وكأني أنظر إلى صفرته وبياض إبطيه، وحموشة[٧] ساقيه، في يده لواء الشعراء يتدهدى[٨] بهم في النار!»[٩]

ومر لبيد بن ربيعة بمجلس بني نهد في الكوفة وبيده عصًا يتوكأ عليها، فبعثوا غلامًا يسأله: من أشعر الناس؟ فقال: ذو القروح بن حجر الذي يقول:

وبُدِّلْت قرحًا داميًا بعد صحة　　　فيا لك من نعمى تبدلن أبؤسا

(يعني امرأ القيس)، فرجع إليهم الغلام وأخبرهم، قالوا: «ارجع فاسأله: ثم من؟» فسأله: «ثم من؟» قال: «ابن العنيزتين.»[١٠] (يعني طرفة) قال: «ثم من؟» قال: «صاحب المحجن.» (يعني نفسه).[١١]

ويروى[١٢] أن عمر بن الخطاب قال يومًا: «من أجود العرب؟» فقيل له: «حاتم.» قال: «فمن شاعرها؟» قيل: «امرؤ القيس بن حجر.» قال: «فمن فارسها؟» قيل: «عمرو بن معديكرب.» قال: «فأي سيوفها أمضى؟» قيل: «الصمصامة.» فقال: «كفى ذلك فخرًا لليمن!»

---

[٧] دقة.

[٨] يتدحرج.

[٩] وفي اللسان: ذاك رجل مذكور في الدنيا؛ شريف فيها، منسي في الأخرة، يجيء يوم القيامة معه لواء الشعر إلى النار. ونقل السيوطي في شرح شواهد المغني، عن ابن عساكر أن لبيدًا قدم المدينة وقال: يا رسول الله ﷺ: «من أشعر الناس؟» فقال: «يا حسان! أعلِمْه.» فقال حسان: الذي يقول:

كأن قلوب الطير رطبًا ويابسًا　　　لدى وكرها العناب والحشف البالي

فقال: «هذا امرؤ القيس!» فقال رسول الله ﷺ: «لو أدركته لنفعته.»

[١٠] في نسخة: ابن العشرين وهي أقرب وأولى.

[١١] وفي رواية أنه قال: الملك الضليل. قيل: ثم من؟ قال: الشاب القتيل، قيل: ثم من؟ قال: الشيخ أبو عقيل (يعني نفسه).

[١٢] شرح الكامل ١ / ٢١٤.

وسأل[١٣] العباس بن عبد المطلب عمر بن الخطاب عن أشعر الناس، فقال: امرؤ القيس سابقهم، خسف لهم عين الشعر، فافتقر عن معان عور أصح بصر.[١٤]

وقال فيه علي بن أبي طالب: «رأيته أحسنهم نادرة، وأسبقهم بادرة، وإنه لم يقل لرغبة أو رهبة.»

وقال الفرزدق:[١٥] «امرؤ القيس أشعر الناس.»

وقال أيضًا: «إن الشعر كان جملًا بازلًا عظيمًا فنحر، فجاء امرؤ القيس فأخذ رأسه، وعمرو بن كلثوم سنامه، وزهير كاهله، والأعشى والنابغة فخذيه، وطرفة ولبيد كركرنه، ولم يبق إلا الذراع والبطن فتوزعناهما بيننا ... إلخ.»

وروى الجمحي أن سائلًا سأل الفرزدق: من أشعر الناس؟ قال: ذو القروح. قال: حين يقول ماذا؟ قال: حين يقول:

وقاهم جدهم ببني أبيهم وبالأشقين ما كان[١٦] العقاب

وقال أبو عبيدة: «فُتح الشعر بامرئ القيس، وخُتم بذي الرُّمة.» وفي العمدة: كان أبو عبيدة يقول: افتتح الشعر بامرئ القيس، وختم بان هرمة.[١٧]

---

[١٣] العمدة ١ / ٥٩ واللسان.

[١٤] قوله «خسف لهم» من قولهم خسف البئر؛ إذ حفرها في حجارة فنبعت بماء كثير. وافتقر: فتح، من فقر البئر: حفرها. والفقير: البئر. و«العور»: ج أعور وعوراء؛ أراد به المعاني الغامضة الدقيقة من عورت الركية وأعرتها، إذا سددت أعينها التي ينبع منها الماء: يريد أن امرأ القيس أنبطَ عين الشعر لهم وأغزرَها؛ أي ذلل لهم الطريق إلى الشعر وبصَّرهم بمعانيه وفنن أنواعه، وقصده فاحتذى الشعراء على مثاله فاستعار العين لذلك. وفسره في العمدة، فقال: يعني أن القيس من اليمن، وأن اليمن ليست لهم فصاحة نزار، فجعل لهم معاني عورًا فتح منها امرؤ القيس أصح بصر، والأول أولى وأليق بمقام المدح؛ لأننا إذا قصرنا مدحه على فتحه المعاني الغامضة لقومه لا يصح أن يكون هذا جوابًا عن السؤال عن أشعر الناس، لا أشعر اليمن.

[١٥] الجمهرة ص٧٥.

[١٦] في رواية: ماحل.

[١٧] العمدة ص٥٠

وقال أبو عبيدة: «أشعر الناس أهل الوبر خاصة، وهم امرؤ القيس وزهير والنابغة.»

وقال أبو زيد الخطابي: «القول عندنا ما قال أبو عبيدة: أشعر الناس امرؤ القيس ثم زهير والنابغة، والأعشى، ولبيد، وعمرو، وطرفة!»

وقيل[18] لكثير أو لنصيب: «من أشعر العرب؟» فقال: «امرؤ القيس إذا ركب، وزهير إذا رغب، والنابغة إذا رهب، والأعشى إذا شرب.»

وقال نصيب: «… وليس لأحد من الشعراء بعد امرئ القيس ما للنابغة وزهير.» فقد قدمه عليهم جميعًا.

واجتمع عند عبد الملك أشراف من الناس والشعراء، فسألهم عن أرق بيت قالته العرب، فاجتمعوا على بيت امرئ القيس:

وما ذرفت عيناك إلا لتضربي بسهميك في أعشار قلب مقتلِ

وقال:

الله أنجح ما طلبت به والبر خير حقيبة الرحْلِ

وقال:

من آل ليلى وأين ليلى؟ وخير ما رمت ما ينالُ!

وكتب الحجاج بن يوسف إلى قتيبة بن مسلم يسأله عن أشعر الشعراء في الجاهلية، وأشعر شعراء وقته، فقال: «أشعر شعراء الجاهلية امرؤ القيس، وأضربهم مثلًا طرفة.»

[18] العمدة ١ / ٦٠.

وكان دعبل يقدم امرأ القيس بقوله في وصف عقاب:

وَيْلُمِّها من هواء الجو طالبة ... ولا كهذا الذي في الأرض مطلوبُ

وسمع قول النبي ﷺ المتقدم: «… وقائدهم إلى النار!» فقال: «لا يقود قومًا إلا أميرهم.»

وسئل الأصمعي:[١٩] من أشعر الناس؟ فقال: «الذي يأتي إلى المعنى الخسيس فيجعله بلفظه كثيرًا، وينقضي كلامه قبل القافية، فإن احتاج إليها أفاد معنى زائدًا!» فقيل له: «نحو من؟» فقال: «نحو الفاتح لأبواب المعاني، وهو امرؤ القيس، حيث قال:

كأن عيون الوحش حول خبائنا ... وأرحلنا الجزع الذي لم يثقبِ

فإن كلامه انتهى إلى قوله الجزع، وزيادة المعنى في قوله: الذي لم يثقب، وفي هذه الزيادة من الحسن والإجادة ما لا يخفى.»

وقال ابن قتيبة في أدب الكاتب وكان العتبي أنشد مروان بن أبي حفصة لزهير، فقال: هذا أشعر الناس. ثم أنشده للأعشى، فقال: بل هذا أشعر الناس، ثم أنشده لامرئ القيس، فكأنما سمع به غناء على الشراب، فقال: امرؤ القيس — والله! — أشعر الناس.

وقال أيضًا: «امرؤ القيس، من أهل نجد، من الطبقة الأولى»، وذكر قوله:

كأن المدام وصوب الغمام ... وريح الخزامى ونشر القطر
يعل به برد أنيابها ... إذا غرد الطائر المستحر

ثم قال: «وكل ما قيل في هذا المعنى فمنه أخذ.»

[١٩] الخزانة لان حجة ص٢٨٩.

وقالت طائفة من المتعقبين: «الشعراء ثلاثة: جاهلي وإسلامي ومولد، فالجاهلي امرؤ القيس، والإسلامي ذو الرمة، والمولد ابن المعتز، وهذا قول من يفضل البديع على جميع فنون الشعر.»

وقد قال العلماء بالشعر إن امرأ القيس لم يتقدم الشعراء لأنه قال ما لم يقولوا، ولكنه سبق إلى أشياء فاستحسنها الشعراء واتبعوه فيها؛ لأنه قيل أول من لطف المعاني، واستوقف على الطلول، وشبه النساء بالظباء والمها والبيض، وشبه الخيل بالعقبان والعصي، وفرق بين النسيب وما سواه من القصيد، وقرب مآخذ الكلام، فقيد الأوابد، وأجاد الاستعارة والتشبيه.

وفي العمدة: ولم يتقدم امرؤ القيس والنابغة والأعشى، إلا بحلاوة الكلام وطلاوته مع البعد من السخف والركاكة، على أنهم لو أغربوا لكان ذلك محمولًا عنهم؛ إذ هو طبع من طباعهم.

وكان امرؤ القيس مقلًّا، كثير المعاني والتصرف، لا يصح له إلا عشرون شعرًا ونيف[٢٠] بين طويل وقطعة، ولا نرى شاعرًا يكاد يفلت من حبائله، وهذه زيادة في فضله وتقدمه.

وقال التبريزي في شرح أبيات إصلاح المنطق: «النسبة إلى امرئ القيس مَرْقَسِي، وأشعر المراقسة ابن حجر هذا.»

وقال العسكري: «أئمة الشعر أربعة: امرؤ القيس والنابغة وزهير والأعشى.»

وقال أبو عمرو: «اتفقوا على أن أشعر الشعراء امرؤ القيس والنابغة وزهير والأعشى، فامرؤ القيس من اليمن، والنابغة وزهير من مضر، والأعشى من ربيعة، وأشعر الأربعة امرؤ القيس، ثم النابغة، ثم زهير، ثم الأعشى.»

[٢٠] في الأصل: «إلا نيف وعشرون شعرًا ...»

وقال يونس: «كان علماء البصرة يقدمون امرأ القيس.»

وقال الأصمعي: سألت بشارًا: من أشعر الناس؟ فقال: «أجمع أهل البصرة على امرئ القيس وطرفة.»

وذكر محمد بن سلام الجمحي امرأ القيس في الطبقة الأولى من الشعراء الجاهليين.

وقال الفراء: «كان زهير واضح الكلام، جيد المقاطع ... وكان النابغة جزل الكلام حسن الابتداء والمقطع ... وكان امرؤ القيس شاعرهم الذي علم الناس الشعر والمديح والهجاء بسبقه إياهم ...»

وفي السيوطي عن ابن عساكر: أتى قوم رسول الله ﷺ فسألوه عن أشعر الناس فقال: ائتوا حسان. فأتوه، فقال: ذو القروح (يعني امرأ القيس)؛ لأنه لم يعقب ولدًا ذكرًا، بل إناثًا. فرجعوا فأخبروا رسول الله ﷺ فقال: صدق! رفيع في الدنيا خامل في الآخرة.

وقال أبو عمرو بن العلاء: سألت ذا الرمة عن أي قول الشعراء الذين وصفوا الغيث أشعر، فقال قول امرئ القيس:

ديمةٌ هطلاء فيها وَطَفٌ   طبق الأرض تحرَّى وتَدُر

وذِكر الأبيات الآتية في الوصف.

(١) الخلاصة

إذا استقرأنا أقوال الأئمة السابقة، ونخلنا ما تحصل من آرائهم، يتبين لنا أن جمهرة العلماء بالشعر، يفضلون امرأ القيس على الشعراء عامة؛ لأولياته التي مر ذكرها

مجملًا وسيأتي مفصلًا، ولإجادته في أشياء استحسنها الشعراء فاحتذوا على مثاله فيها، ولاختياره ضروبًا من الكلام الساحر بحلاوته، الباهر بطلاوته، مع ابتعاده عن السخف والركاكة.

ونزيد على هذا أن امرأ القيس وفق إلى معان أفرغها في قوالب من الألفاظ المطربة بنغماتها، الرائقة بأسلوبها، فجاءت مثلًا أعلى في الجودة.

وقد حاول كثير من الشعراء، في عصره وبعد عصره، أن يجاروه فيها، فقصرت بهم الأداة عن اللحاق به، فضلًا عن سبقه وتقدمه؛ ولذلك غلبت شهرته على من تقدمه، ومن كان في عصره من الشعراء، فكان كما قال النابغة في النعمان:

فإنك شمس والملوك كواكبٌ　　إذا طلعت لم يبد منهن كوكبُ

وسيأتي زيادة في الإيضاح لهذا البحث.

وكان امرؤ القيس يعلم ذلك من نفسه؛ ولهذا كان كثير الإدلال في شعره، شديد الاعتداد بنفسه، واثقًا بقدرته، وكان يعتقد أن لا يطاوله أحد في الشعر.

لقي[٢١] التوأم اليشكري — واسمه الحارث بن قتادة، ويكنى أبا شريح، وبعضهم يقول: إنه الحارث بن التوأم — فقال له: «إن كنت شاعرًا كما تقول، فملِّط[٢٢] لي أنصاف ما أقول فأجزها»، قال: «نعم!»

فقال امرؤ القيس:

أحار ترى بريقًا هب وهنا[٢٣]

فقال التوأم:

كنار مجوس تستعر[٢٤] استعارا

[٢١] العمدة: ١ / ١٣٥، والديوان وبدائع البدائع ٩٣.

[٢٢] يقال مالط فلان فلانًا: إذا قال هذا نصف بيت وأتمه الآخر بيتًا، وملط له تمليطًا.

[٢٣] نحو نصف الليل.

[٢٤] تتقد.

فقال امرؤ القيس:

أرقت له ونام أبو شريح

فقال التوأم:

إذا ما قلت قد هدأ[٢٥] استطارا[٢٦]

فقال امرؤ القيس:

كأن هزيمه[٢٧] بوراء غيب

فقال التوأم:

عشار[٢٨] وُلَّهٌ[٢٩] لاقت عشارا

فقال امرؤ القيس:

فلما أن علا كتفي[٣٠] أضاخ[٣١]

---

[٢٥] سكن.

[٢٦] انتشر.

[٢٧] في البدائع: كأن حنينه والرعد فيه، وفي نسخة هزيزه؛ أي صوته حيث لا أراه.

[٢٨] النوق القريبة العهد بالنتاج.

[٢٩] فقدت أولادها.

[٣٠] في نسخة: دنا لقفا.

[٣١] اسم جبل.

فقال التوأم:

وَهَت[٣٢] أعجازُ رَيِّقِه[٣٣] فحارا[٣٤]

فقال امرؤ القيس:

فلم يترك بذات السر[٣٥] ظبيًا

فقال التوأم:

ولم يترك بجَلْهتها[٣٦] حمارا

فلما رآه امرؤ القيس قد ماتنه، ولم يكن في ذلك العصر من يمائنه آلى أن لا ينازع الشعر أحدًا آخر الدهر. وفي البدائع: فقال امرؤ القيس: لا أتعنت على أحد بعد ذلك بالشعر (روى ذلك أبو عبيدة عن أبي عمرو بن العلاء).

وقال أبو عمرو: ولو نظر بين الكلامين لوجد التوأم أشعر في شعرهما هذا؛ لأن امرأ القيس مبتدئ ما شاء، وهو في فسحة مما أراد، والتوأم محكوم عليه بأول بيت، مضطر في القافية التي مدارهما جميعًا عليها، ومن هنا عرف له امرؤ القيس من حق المماتنة ما عرف.

ونزل به علقمة بن عبدة فتنازعا الشعر، وادعاه كل واحد منهما على صاحبه، فقال علقمة: «فقل شعرًا تمدح به فرسك والصيد، وأقول في مثل ذلك.» فقال كل منهما قصيدة في ذلك، وحكما أم جندب زوجة امرئ القيس، فقالت لزوجها: «علقمة أشعر منك.» وبينت سبب ذلك، وسيأتي.

---

[٣٢] استرخت.

[٣٣] أوله.

[٣٤] ثبت وتوقف وسال واستدار كالمتحير.

[٣٥] موضع. في البدائع: ببطن الأرض ظبيًا.

[٣٦] ناحية الوادي؛ يريد: لم يدع ظبيًا ولا حمارًا إلا أغرقه أو نفاه عن موضعه.

ولقي[٣٧] عبيد بن الأبرص امرأ القيس، فقال له عبيد: «كيف معرفتك بالأوابد؟»[٣٨] فقال: «ألق ما أحببت!» فقال عبيد:

ما حيَّة ميتة أحيت بميتتها — درداء[٣٩] ما أنبتت سنًّا وأضراسا

فقال امرؤ القيس:

تلك الشعيرة تسقى في سنابلها — فأخرجت بعد طول المكث أكداسا

فقال عبيد:

ما السود والبيض والأسماء واحدة — لا يستطيع لهن الناس تمساسا

فقال امرؤ القيس:

تلك السحاب إذا الرحمن أرسلها — روَّى بها من محول الأرض أيباسا[٤٠]

فقال عبيد:

ما مرتجاة على هول مراكبها — يَقْطعن طول المدى سيرًا وأمراسا[٤١]

فقال امرؤ القيس:

تلك النجوم إذا حالت مطالعها — شبهتها في سواد الليل أقباسا[٤٢]

---

[٣٧] بدائع البدائع.

[٣٨] الأوابد: ج آبدة؛ وهي الكلمة أو الفعلة الغريبة والكلمة الوحشية، والشوارد من القوافي.

[٣٩] ذاهبة الأسنان.

[٤٠] لعله ج يبس، بمعنى اليابس.

[٤١] المرس: السير الدائم.

[٤٢] ج. قبس: شعلة من نار تقتبسها من معظم.

فقال عبيد:

ما القاطعات لأرضٍ لا أنيس بها تأتي سراعًا وما يرجعن أنكاسا[٤٣]

فقال امرؤ القيس:

تلك الرياح إذا هبت عواصفها كفى بأذيالها للترب كناسا

فقال عبيد:

ما الفاجعات جهارًا في علانية أشد من فيلق[٤٤] ملمومة باسا

فقال امرؤ القيس:

تلك المنايا فما يبقين من أحد يكفِتْن[٤٥] حمقى وما يبقين أكياسا[٤٦]

فقال عبيد:

ما السابقات سراع الطير في مهل لا تشتكين ولو ألجمتها فاسا[٤٧]

فقال امرؤ القيس:

تلك الجياد عليها القوم قد سبحوا كانوا لهن غداة الروع أحلاسا[٤٨]

---

[٤٣] النكس: الضعيف من السهام والرجال، والمقصر عن غاية الكرم.
[٤٤] الفيلق: الجيش والكتيبة المعظمة، وملمومة: مجتمعة.
[٤٥] كفته: ضمه وقبضه.
[٤٦] ج كيس: العاقل وخلاف الأحمق.
[٤٧] الفاس: آلة يقطع بها ويحفر بها، وفاس اللجام: الحديدة القائمة في الحنك.
[٤٨] الحلس: ما ولي ظهر الدابة تحت الرحل والسرج، وهم أحلاس الخيل: يلزمون ظهورها كالأحلاس.

فقال عبيد:

ما القاطعات لأرض الجو في طلق[٤٩] قبل الصباح وما يسرين قرطاسا[٥٠]

فقال امرؤ القيس:

تلك الأماني تتركن الفتى ملكًا دون السماء ولم ترفع به راسا

فقال عبيد:

ما الحاكمون بلا سمع ولا بصر ولا لسان فصيح يعجب الناسا

فقال امرؤ القيس:

تلك الموازين والرحمن أنزلها رب البرية بين الناس مقياسا

وإذا أمعن الباحث في هذه الأبيات، ورأى ما فيها من وهن في التأليف وضعف في الأسلوب، وما فيها من الحشو في مثل قوله: جهارًا في علانية ... وألفاظ المؤمنين، مثل: إذا الرحمن أرسلها، والرحمن أنزلها رب البرية، وجعلها مقياسًا بين الناس ... لا يستبعد أن تكون نسبتها إلى امرئ القيس وعبيد غير صحيحة، وأن تكون وليدة العصر العباسي كلها أو بعضها، ولم يكد يعرف للمتقدمين مثل هذه المماتنة أو الممالطة، ولو صحت لكان امرؤ القيس أشعر من عبيد لتقيده بالقافية والوزن والموضوع والزمن، ولو صح ما قاله أبو عمرو في شعر التوأم اليشكري، لا يوجب تفضيله على امرئ القيس في بقية شعره.

[٤٩] الطلق: هو سير الليل لورود الغب، والشوط الواحد في جري الخيل.

[٥٠] القرطاس: أديم ينصب للنضال، والغرض.

شعره وأولياته

اتضح مما أسلفنا أن امرأ القيس يمني المحتد، لكنه نجدي المنشأ واللغة واللحن؛ فقد ترعرع في ديار بني أسد في نجد، بين العرب الخلص منهم، وسمع أشعار النجديين وغيرهم من النزاريين وأكثرَ مِن ذِكر الديار والمنازل والجبال والمياه والأودية والمواضع التي في ديار نجد، وكان راوية لأبي دؤاد الإيادي، فانفتق لسانه بالشعر على حداثة سنه، وطمحت نفسه إلى مساجلة الشعراء، وكان محبًّا للجمال ومغازلة الحسان، كثير الأسفار، وتجشم الأخطار، والانتقال من دار إلى دار، ففتق ذلك قريحته، واختط لنفسه سبيلًا في الشعر فَضَلَ به مَن تقدمه، حتى نسب إليه كل حسن في عصره، وعفى على آثار من سبقه، وقيل إنه أول من وقف على الأطلال واستوقف، وبكى واستبكى، بكلمتين:

«قفا نبكِ!» من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

ويعدون[1] ابتداءه هذه أفضل ابتداء صنعه شاعر؛ لأنه وقف واستوقف، وبكى واستبكى، وذكر الحبيب والمنزل، في مصراع واحد، ولا يقل عنه في الجودة قوله أيضًا:

قفا نبك! من ذكرى حبيب وعرفان وربعٍ خَلَت آياته منذ أزمانِ!

---

[1] العمدة.

وأول من شبه النساء بالمها، كقوله:

تصدُّ وتُبدي عن أسيل وتتقي   بناظرة من وحش وَجْرَةَ مُطْفِل[٢]

وبالظباء، كقوله:

وجيد كجيد الرِّيم ليس بفاحش   إذا هـي نـصَّـتـه ولا بـمـعـطَّـلِ

والبيض، في قوله:

وبيضة خدر لا يرام خباؤها   تمتعت من لهو بها غير معجلِ

وشبهها بالدر، على قول، في قوله:

كبِكْر المقاناة البياض بصفرة   غذاها نمير الماء غير المحللِ

وأول من جود[٣] التقسيم في قوله في وصف الفرس:

إذا أقـبـلـتْ قـلـتَ دُبَّـاءة   من الخضر مغموسة في الغُدُر
وإن أدبـرتْ قـلْـت أثـفـيـة   مـلـمـلـمـة لـيـس فـيـهـا أثـر
وإن أعرضت قلت سرعوفة   لـهـا ذنـب خـلـفـهـا مـسـبـطـر

وهو الذي فتح باب الاحتراس[٤] بقوله:

إذا ركبوا الخيل واستلأموا   تحرقت الأرض واليوم قر

فاحترس بقوله: «قر» فتمم.

---

[٢] أي بقرة ذات طفل.

[٣] العمدة ٢/ ٢.

[٤] الوزير ٦.

وهو أول الناس اختراعًا[٥] في الشعر، وأكثرهم توليدًا، وله اختراعات كثيرة، منها قوله:

سموت إليها بعد ما نام أهلها   سموَّ حباب الماء حالًا على حالِ

فإنه أول من طرق هذا المعنى وابتكره، وسلم الشعراء إليه فلم ينازعه أحد إياه، وقوله:

كأن قلوب الطير رطبًا ويابسًا   لدى وكرها العناب والحشف البالي

وهو أول من ابتكر تمثيل شيء بشيء فيه إشارة، بقوله:

وما ذرفت عيناك إلا لتقدحي   بسهميك في أعشار قلب مقتَّلِ

فمثَّلَ عينيها بسهمي الميسر؛ يعني المعلى وله سبعة أنصباء، والرقيب وله ثلاثة أنصباء؛ فصار جميع أعشار قلبه للسهمين اللذين مثَّل بهما عينيها، ومثل قلبه بأعشار الجزور، فتمت له جهات الاستعارة والتمثيل.

وجمع مثلين في بيت واحد كل منهما قائم بنفسه، غير محتاج إليه، كقوله:

الله أنجح ما طلبت به   والبر خير حقيبة الرحْلِ

وأول من عرف في شعره الترديد (وهو أن يعلق لفظة بمعنى، ثم يردها بعينها متعلقة بمعنى آخر) كقوله:

فثوبًا لبست وثوبًا أجر

فقد علق ثوبًا ب «لبست»، ثم ردها متعلقة ب «أجر».

---

[٥] العمدة ١ / ١٧٥.

وأجاد في وصف الخيل، وهو أول من جعلها قيد الأوابد ووصفها بذلك في قوله:

وقد أغتدي والطير في وكناتها　　　بمنجرد قيد الأوابد هيكلِ

قال أبو عبيدة: «أول من قيد الأوابد امرؤ القيس.»
وأول من شبهها بالعصا كقوله:

بعجلزة قد أترز الجري لحمها　　　كميت كأنها هراوة[٦] منوالِ

وأول من شبهها بالعقاب، كقوله:

كأني بفتخاء الجناحين لَقْوةٍ　　　صيود من العقبان طأطأت شملالِ

وأول من أجاد وصف الليل، وأول من جود الاستعارة، وجعل الجماد كائنًا حيًّا، وخلع عليه من نعوت الأحياء ما تقتضيه إجادة التشبيه، كقوله:

وليل كموج البحر أرخى سدوله　　　علي بأنواع الهموم ليبتلي
فقلت له لما تمطى بصلبه　　　وأردف أعجازًا وناء بكلكل
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي　　　بصبح وما الإصباح منك بأمثل

فقد استعار لليل سدولًا أرخاها، وصلبًا يتمطى به، وأعجازًا يردفها، وكلكلًا ينوء به، وخاطبه مخاطبة الحي.

وقد زعم ابن وكيع أن أول استعارة وقعت، قولُ امرئ القيس، وذكر البيتين الأولين.

وهو أول من شبه شيئين بشيئين في بيت واحد، كقوله يصف عقابًا (وفيه من البديع الطباق، واللف، والنشر المرتب):

كأن قلوب الطير رطبًا ويابسًا　　　لدى وكرها العناب والحشف البالي

---

[٦] الهراوة: العصا.

قال المبرد:[٧] هذا البيت أحسن ما جاء في تشبيه شيئين مختلفين، في حالين مختلفين، بشيئين مختلفين.

وقال في العمدة: وأصل التشبيه مع دخول الكاف وأمثالها، أو «كأن» وما شاكلها شيء بشيء في بيت واحد، إلى أن صنع امرؤ القيس في صفة عقاب «كأن قلوب الطير ...» فشبه شيئين بشيئين في بيت واحد، واتبعه الشعراء في ذلك، ولم يقع بعد هذا البيت بيت يشبهه في ترتيبه.

وهو أول من شبه أربعة بأربعة، كقوله:

له أيطلا ظبي وساقا نعامة وإرخاء سرحان وتقريب تتفلِ

وزعم الفرزدق أن أكمل أو أجمع بيت قالته العرب، قوله: «له أيطلا ظبي ...»

وذكر قدامة أن أفضل التشبيه ما وقع بين شيئين اشتراكهما في الصفات أكثر من انفرادهما حتى يدني بها إلى حال الاتحاد، وأنشد في ذلك هذا البيت، وهو عنده أفضل التشبيه كافة: فإنه شبه أعضاء بأعضاء، هي هي بعينها، وأفعالًا بأفعال هي هي بعينها، إلا أنها من حيوان مختلف.

وقال في العمدة: ثم أتوا بتشبيه أربعة بأربعة: بالكاف وبغير كاف، فقال امرؤ القيس، وهو أول من فتح هذا الباب: «له أيطلا ظبي ...» فجاء بتشبيه إضافة كما ترى، حتى جعله تحقيقًا لولا مفهوم الخطاب.

وهو أول من استعمل الكناية اللطيفة، فكنى عن المرأة بالبيضة في قوله: «وبيضة خدر ...» وعن نعومة جسمها ورقة بشرتها بقوله:

من القاصرات الطرف لو دَبَّ مُحْوِلٌ من الذر فوق الإتب منها لأثرا

وكنى عن ترفها ونعيمها، وأنها تُخدَم ولا تَخدِم، بقوله:

وتضحي فتيت المسك فوق فراشها نئوم الضحى لم تنتطق عن تفضلِ

---

[٧] السيوطي ١١٩.

وأول من أشار إلى التتبيع — وهو أن يريد شيئًا فيتجاوزه ويذكر ما يتبعه في الصفة، وينوب في الدلالة عليه — كقوله: «وتضحي فتيت المسك …» أراد أن يصفها بالنعمة والترفة، وأنها شريفة مكفية المئونة، فجاء بما يتبع هذه الصفة ويدل عليها، فقوله: «يضحي فتيت» تتبيع أول، و«نئوم الضحى …» تتبيع ثانٍ، و«لم تنتطق» تتبيع ثالث.

وكذلك قوله: «سمان الكلاب، عجاف الفصال …» فإن «سمن الكلاب» يدل على كثرة ما ينحرون، و«عجف الفصال» يدل على بذل اللبن للأضياف.

ومن أعجب التتبيع قوله:

أَمَرْخٌ خيامهم أم عُشَرْ　　　أم القلب في إثرهم منحدر

يقول: أنزلوا نجدًا الذي ينبت المرخ أم الغور الذي ينبت العشر؟ لأن الأعراب تتخذ الخيام من نبات الأرض التي ينزلونها، فإذا رحلوا تركوه واستأنفوا غيره من شجر البلد الذي ينزلون به.

إلى غير ذلك مما ذكره العلماء من الأمور التي تقتضي ترجيحه وتقديمه على غيره.

والذي يدلنا على أن امرأ القيس أوتي من براعة التأليف، وجودة السبك والرصف، ورقة الأسلوب ما يتفق مع كل عصر، ويتفق عند كل فريق؛ أننا نجد من أبياته الرائعة بمبناها ومعناها فنونًا من البديع بريئة من التكلف والتصنع بالغة الدرجة القصوى في بابها، وكثير منها لم يلحقه فيه المتأخرون على شدة تعمدهم وتعملهم.

فمن ذلك قوله (وفيه الطباق وجناس المضارع):

مكر مفر مقبل مدبر معًا　　　كجلمود صخر حطه السيل من علِ

وقوله:

ورحنا وراح الطرف يقصر دونه　　　متى ما ترقُّ العين فيه تسفَّلِ

وقوله (وفيه التبليغ؛ المبالغة؛ وهو ما يمكن عقلًا وعادة):

فعادى عداءً بين ثور ونعجة دراكًا ولم ينضح بماء فيغسلِ

وقوله (وفيه الإغراق؛ أي المبالغة؛ وهو ما يمكن عقلًا لا عادة):

تنورتها من أذرعات وأهلها بيثرب أدنى دارها نظر عالِ

وقوله في الغلو (هو ما لا يمكن عقلًا وعادة، ولكنه أدخل عليه ما يقربه إلى الصحة):

كأن غلامي إذ علا حال متنه على ظهر باز في السماء محلق

وقوله (وفيه الهزل الذي يراد به الجد):

وقد علمت سلمى وإن كان بعلها بأن الفتى يهذي وليس بفعَّالِ

وقوله (وفيه التصدير؛ أي رد العجز على الصدر، مع الجناس):

إذا المرء لم يخزن عليه لسانه فليس على شيء سواه بخزانِ

وقوله (وفيه المماثلة؛ وهي أن تتماثل ألفاظ الكلام أو بعضها في الزنة دون التقفية، وقد يأتي بعضها مقفًّى من غير قصد):

كأن المدام وصوب الغمام وريح الخزامى ونشر القُطُرْ

وقوله (وفيه المراجعة؛ وهي حكاية ما جرى من المحاورة بين متخاطبين بقال وقلت):

تقول وقد مال الغبيط بنا معًا عقرت بعيري يا امرأ القيس فانزلِ
فقلت لها سيري وأرخي زمامه ولا تبعديني من جناك المعللِ

وقوله:

فقالت سباك الله! إنك فاضحي ألستَ ترى السمَّار والناسَ أحوالي؟
فقلت يمينَ الله أبرح قاعدًا ولو قطَّعوا رأسي لديك وأوصالي

وقوله (وفيه لزوم ما لا يلزم):

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع فألهيتها عن ذي تمائم مُحْولِ
إذا ما بكى من خلفها انصرفتْ له بشقٍّ وتحتي شقها لم يحوَّلِ

وقوله (وفيه الموازنة، وهي تساوي الفاصلتين في الوزن دون التقفية):

أفاد فساد وقاد فزاد وساد فجاد وعاد فأفضلْ

وقوله (وفيه الإيغال؛ وهو أن المتكلم أو الشاعر إذا انتهى إلى آخر القرينة أو البيت استخرج سجعة أو قافية يريد معنًى زائدًا، فكأنه تجاوز حد المعنى الذي أخذ فيه، وبلغ مراده فيه إلى زيادة عن الحد):

كأن عيون الوحش حول خبائنا وأرحلنا الجزع الذي لم يثقَّب

فإن كلامه انتهى إلى قوله: «الجزع»، وزيادة المعنى في قوله: «الذي لم يثقب.»
وقوله (وفيه الإشارة؛ وهي أن يكون اللفظ القليل مشتملًا على المعنى الكثير بإيماء يدل عليه):

على هيكلٍ يعطيك قبل سؤاله أفانينَ جَرْيٍ غيرَ كَزٍّ ولا وانِ

فإنه أشار بقوله: «أفانين» إلى جميع صنوف عدْو الخيل المحمودة، والذي يدل على هذا قوله: «قبل سؤاله.»

وقد تقدم قوله في التقسيم الجيد والاحتراس.

وفي شعره كثير من الأنواع التي سبق إليها من غير أن يتعمدها، كالتصريع وحسن الابتداء. ولو استقرأ متتبع لوجد أكثر الأنواع في شعره.

(١) والخلاصة

لا يكاد الباحث يجد نوعًا من أنواع الحسن في باب الشعر والبلاغة، إلا ولامرئ القيس فيه المثل الأعلى، والقدح المعلى.

هذا على قلة ما انتهى إلينا من شعره، حتى عُدَّ من المقلين كما تقدم.

وقالوا: إنه أول من رقق النسيب، كقوله:

أفاطم! مهلًا بعض هذا التدلل ... وإن كنت قد أزمعت صرمي فأجملي!
وإن كنت قد ساءتك مني خليقة ... فسلي ثيابي من ثيابك تنسلِ
أغرك مني أن حبك قاتلي ... وأنك مهما تأمري القلب يفعلِ؟!
وما ذرفت عيناك إلا لتضربي ... بسهميك في أعشار قلب مقتلِ

وإلى جانب ما سبق من المحاسن، تجد في شعره أشياء خالف بها سنن الشعراء والفصاحة، وخرج عن محجتها، وسلك فيها سبيلًا غيرها أَوْلَى منها، من ذلك الإقواء (وهو اختلاف حركة الروي بكسر وضم):

كأن ثبيرًا في عرانين وَبْلَه ... كبير أناس في بجاد مزمَّلِ

وحقه أن يقول: «مزملٌ» وقد يقال إنه أراد في «بجاد»؛ مزمل فيه. والإصراف (وهو اختلاف حركة الروي بفتح وغيره) كقوله:

فظل طهاة اللحم ما بين منضج ... صفيف شواء أو قدير معجلِ

وحقه أن يقول: «أو قديرًا معجلًا»، وخرج على المجاورة ونحوها من الوجوه البعيدة.

والإيطاء (وهو إعادة الكلمة المشتملة على حرف الروي بلفظها ومعناها من غير أن يفصل بين اللفظين سبعة أبيات فأكثر) كقوله:

وهبت له ريح بمختلف الصوى   صبًا وشمال في منازل قُفَّالِ

ثم قال بعد أربعة أبيات:

نظرت إليها والنجوم كأنها   مصابيح رهبان تشب لقفالِ

وقوله:

على الأين جياش كأن سراته   على الضمر والتعداء سرحة مرقبِ

ثم قال بعد بيت:

له أيطلا ظبي وساقا نعامة   وصهوة عير قائم فوق مرقب

ومنها تكرير الجملة أو الشطر أو البيت، ما خلا كلمة القافية، وهذا كثير في شعره، كقوله:

ذعرت بها سربًا نقيًّا جلوده   وأكرعه الوشي البرود من الخال
ذعرت بها سربًا نقيًّا جلوده   كما ذعر السرحان جنب الربيض[٨]

* * *

قعدت له وصحبتي بين ضارج   وبين تلاع يثلث فلغريض[٩]
قعدت له وصحبتي بين ضارج   وبين العذيب بعدما متأملي

[٨] الغنم في مرابضها.

[٩] اسم موضع.

* * *

وقد أغتدي والطير في وكناتها   وماء الندى يجري على كل مذنب
وقد أغتدي والطير في وكناتها[١٠]   بمنجرد قيد الأوابد هيكل
وقد أغتدي والطير في وكناتها   لغيث من الوسمي رائده خال
وقد أغتدي والطير في وكناتها   بمنجرد عبل اليدين قبيض

له أيطلا ظبي وساقا نعامة   وإرخاء سرحان وتقريب تتفل
له أيطلا ظبي وساقا نعامة   وصهوة عير قائم فوق مرقب

* * *

كأن دماء الهاديات بنحره   عصارة حناء لشيب مرجَّلِ
كأن دماء الهاديات بنحره   عصارة حناء بشيب مخضب

* * *

فعادى عداء بين ثور ونعجة   وبين شبوب كالقضيمة قرهب
فعادى عداء بين ثور ونعجة   دراكًا ولم ينضح بماء فيغسل
فعادى عداء بين ثور ونعجة   وكان عداء الوحش مني على بالِ

* * *

وقد أغتدي والطير في وكناتها   بمنجرد قيد الأوابد هيكل
بمنجرد قيد الأوابد لاحه   طراد الهوادي كل شأو مغرب

* * *

على الأين جياش كأن اهتزامه   إذا جاش فيه حمية غلي مرجل
على الأين جياش كأن سراته   على الضمر والتعدا سرحة مرقب

[١٠] في رواية: وكراتها.

ومنه الإسفاف في الغرض، قال رؤبة:[11] ما رأيت أفخر من قول امرئ القيس:

فلو أنما أسعى لأدنى معيشة   كفاني — ولم أطلب! — قليلٌ من المال
ولكنما أسعى لمجد مؤثل   وقد يدرك المجد المؤثل أمثالي

ولا أنذل من قوله:

لنا غنم نسوِّقها غزار   كأن قرون جلتها العصي
فتملأ بيتنا أقطًا وسمنًا   وحسبك من غنًى شبعٌ وري

وقال أحمد بن عبيد بن عمار: «قد وقفنا على ما أتاه الشعراء القدماء من الزلل والخطأ في قصيد أشعارهم وأراجيزهم، قديمها وحديثها، وإحالتهم في نسج بعضها، وما أتوا به من الكلام المذموم، فأولهم امرؤ القيس، مع جلالة شأنه، وعظيم خطره، وبُعد همته، يقول مفتخرًا بملكه واصفًا لما يحاوله: «فلو أنما أسعى لأدنى معيشة …» ثم قال بعد هذا القول المرضي، في المعنى البهي، قول أعرابي متلفع بشملته لا تجاوز همته ما حوته خيمته: «إذا ما لم تكن إبل فمعزى …»

ولما تنازع هو وعلقمة في الشعر، وحكَّما أم جندب (زوج امرئ القيس) فضلت علقمة، فقال لها زوجها: «وكيف؟» قالت: «لأنك قلت:

فللسوط ألهوب وللساق درة   وللزجر منه وقع أخرج مهذب[12]

فقد جهدت فرسك بسوطك، وزجرت، وحركت ساقيك، فأتعبته.
وقال علقمة:

فأدركهن ثانيًا من عنانه   يمر كمر الرائح المتحلبِ

[11] موشح ٢٧.

[12] يعني ألهب جريه حين زجره، وإذا غمزه بساقه درَّ جريه. والأخرج: الظليم. والخرج: سواد وبياض. ومهذب: مسرع.

فأدرك فرسه ثانيًا من عنانه، لم يضربه بسوط، ولم يتعبه!»

وقد عيب عليه قوله:

أغرك مني أن حبك قاتلي وأنك مهما تأمري القلب يفعل؟!

قالوا: إذا لم يغرَّها هذا فأي شيء يغرها؟ وهذا كأسير قال لمن أسره: «أغرك مني أني في يديك أسير؟!»

وفي هذا البيت من البراعة والرقة ما لا يطول إلى مثله أحد إلا امرؤ القيس، فإنه يعلم أن ذلك يغرها، ولكنه سأل سؤال الجاهل، والقلب يحتمل أن يكون قلبها، فالمعنى حينئذ: أنك مالكة قلبك، مهما تأمريه يفعل، وأنا لا أملك قلبي لأنك أنت ملكته، ويحتمل أن يكون قلبه، فالمعنى: مهما تأمري قلبي يفعل؛ لأنه مطيع لك! وكلا المعنيين جميل، والاستفهام على هذا الوجه جيد.

وعابوا عليه قوله:

لها ذنب مثل ذيل العروس تسد به فرجها من دبر!

قالوا: ذيل العروس مجرور، ولا يجب أن يكون ذنب الفرس مجرورًا ولا قصيرًا، قالوا: والصواب في ذلك قوله:

ضليع إذا استدبرته سد فرجه بضافٍ فُويق الأرض ليس بأعزلِ

وعابوا قوله: «من دبر»، وقالوا: لمَ قال ذلك؟ فمن أين تسد بذنبها فرجها؟ فهذا ليس من قول الحذاق. ويمكن أن يقال عن الأول: إن الشاعر وغيره قد يشبِّه الشيء بشيء آخر من ناحية من نواحيه، أو ناحيتين أو أكثر، ولا يريد التشبيه به من كل ناحية، ألا ترى أنهم شبهوا العيون بالنرجس، واتفقت كلمتهم على استجادة ذلك، وهم لا يريدون تشبيهها به في البياض؛ لأن ذلك لون عيون الهررة! وكذلك تشبيههم المرأة بالغزال والمها والشمس والبدر والغصن، وهنا يريد تشبيه ذنبها بذيل العروس في حسنه، ولا يتحتم عليه أن يريد التشبيه به في جره على الأرض.

وبيته الثاني «ضليع ...» يبين لنا هذا المعنى، ويعين هذا القصد.

ويقال عن الثاني: إن في كلام البلغاء كثيرًا من مثل هذه القيود ما يقع لزيادة الإيضاح، أو على سبيل الاتفاق، ولا يجب أن يكون كل زائد للاحتراس من شيء آخر، ألا ترى أنهم يقولون: سمعته بأذني، ورأيته بعيني، وكتب بيده، و...

وعابوا عليه قوله:

وأركَبُ في الروْع خَيْفَانة[١٣]   كسا وجهَها سَعَفٌ منتشر

قالوا: لأن الناصية إذا غطت الوجه، لم يكن الفرس كريمًا، والجيد الاعتدال، على أنه يجوز أن يراد بالوجه بعضه على سبيل المجاز من ذكر الكل، وإرادة الجزء.

وعيب عليه قوله:

وللسوط منها مجال كما   تَنَزَّل ذو بَرَد منـهمر

قالوا: ما لها وللسوط؟

وعيب عليه قوله: «فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها ...» ثم قوله بعدها: «وهل عند رسم دارس من معول؟» لأن كلامه الثاني ناقض الأول.

وقد قيل إن مراده لم يعف رسمها لما نسجته الريح وحده، وإنما عفا للريح والمطر وغيرهما. وقيل إنه دارس بعضه دون بعض. وقيل درس من الريح وغيرها، ولكنه لم يدرس من قلبي. وقيل إنه رجع فأكذب نفسه حين قال: «لم يعف» ثم قال: «دارس»، ومثله قول زهير:

قف بالديار التي لم يعْفُها القدم   بـلـى وغـيَّـرهـا الأرواح والـديـم

وعيب عليه قوله: «فقلت له لما تمطى بصلبه ...» ثم قوله: «ألا أيها الليل الطويل ...» لأنه أتم البيت الأول في وصف الليل، ولم يذكر ما قاله، وجعله متعلقًا بما بعده.

ومثل هذا شائع منتشر في كلام الفصحاء، ولم يعد أهل العروض من التضمين المعيب ذكر المفعول في البيت الثاني لقال أو لغيرها.

---

[١٣] خيفانة: فرس طويلة القوائم ضامرة، ويريد بالسعف: شعر الناصية.

وعيب عليه فجوره وعهره في شعره، كقوله:

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع   فألهيتها عن ذي تمائم محول
إذا ما بكى من خلفها انصرفت له   بشق وتحتي شقها لم يحول

وقالوا: هذا معنًى فاحش. وعيب أيضًا لقصده للحبلى والمرضع دون البكر، وهو ملك وابن ملوك، فما فعل هذا إلا لنقص همته.

وقد حمل قوله هذا على وجه أفضل، وهو: أن الحبلى والمرضع لا تكادان ترغبان في الرجال، وهما ترغبان فيه لجماله، فقوله هذا يريد به التمدح. وكذلك عد من فجوره قوله:

دخلت وقد ألقت لنوم ثيابها   لدى الستر إلا لبسة المتفضلِ

وقوله:

سموت إليها بعدما نام أهلها   سمو حباب الماء حالًا على حال

إذا ما الثريا في السماء تعرضت   تعرض أثناء الوشاح المفصل

فقيل ليست الثريا تتعرض في السماء، وقال بعض من يعذره: أراد الجوزاء؛ لأنها تتلوها!

وعيب عليه قوله:

أبعد الحارث الملِك بن عمرو   وبعد الملْك حُجْر ذي القباب
أُرجِّي من صروف العيش لينًا   ولم تَغفُل عن الصُّم الهضابِ

قالوا: إنه مضمن، وليس هذا بتضمين على الصحيح؛ لأن التضمين تعلق كلمة القافية بالبيت التالي تعلقًا لا يتم المعنى بدونه، وما هنا ليس كذلك، وفي كلام الشعراء كثير من هذا النوع.

واستهجنوا قوله:

وَهِرٌّ تصيد قلوب الرجال وأفلت منها ابن عمرو حجر

فلفظة «هر» و«الصيد» مضحك مستهجن، ولو أن أباه حجرًا من فأر بيته ما أسف على إفلاته منها هذا الأسف.

والحق أن العرب لا تلتفت إلى مثل هذه الأشياء، وإنما تنظر إلى الحقائق والجد.

وعيب عليه قوله: «يزل الغلام الخف عن صهواته»، وليس للجواد إلا صهوة واحدة، والحق أن هذا غير عيب؛ لأن العرب تنزل الأجزاء منزلة الأفراد، كما قالوا في قول ذؤيب:

فالعين بعدهم كأن حداقها

وليس لها إلا حدقة واحدة.

وعيب عليه قوله:

وعين لها حَدْرةٌ[١٤] بَدْرةٌ[١٥] فشقت مآقيهما من أُخر

لأنه ذكر العين مفردة، وأعاد ضمير المثنى.

وعيب عليه قوله:

لها مَتْنَتَانِ خَظَاتَا كما أكبَّ على ساعديه النمر

والصواب خظتا.[١٦]

[١٤] واسعة مكتنزة صلبة.

[١٥] تبدر بالنظر، أو الحديدة النظر، أو تامة كالبدر.

[١٦] خظا اللحم: اكتنز؛ والخظاة المكتنزة من كل شيء. قيل أصله خظتا فاضطر فوصل الفتحة بألف ساكنة، كما قالوا: كلكال في كلكل. وذهب الفراء إلى أنه أراد: خظاتان، فحذف النون استخفافًا.

وحضر أحمد بن أبي طاهر مجلس علي بن يحيى المنجم يومًا بعد أن أخل به أيامًا، فعاتبه على ذلك، فقال: «كنت متشاغلًا باختيار شعر امرئ القيس.» فأنكر عليٌّ عليه ذلك، وقال: «أما تستحي من هذا القول؟ وأي مرذول في شعر امرئ القيس، حتى تحتاج إلى اختياره؟» واتسع القول بينهما في ذلك، فقال هارون بن علي لأبيه: «قد صدقت، يا سيدي، في وصف شعر امرئ القيس، ولكن فيه ما يفضل بعضه بعضًا، وإلا فقوله:

يا هند لا تنكحي بوهة[١٧] عليه عقيقته[١٨] أحسبا[١٩]
مرسعة[٢٠] بين أرساغه[٢١] به عسم[٢٢] يبتغي أرنبا
ليجعل في ساقه كعبها[٢٣] حذار المنية أن يعطبا
ولست بخِزْرافة[٢٤] في القعود ولست بطياخة[٢٥] أخدبا[٢٦]

[١٧] طائر يشبه البومة، وقيل البومة، والرجل الضعيف، والأحمق.

[١٨] شعره الذي يولد به؛ أي إنه لا يطلى ولا ينظف.

[١٩] يضرب إلى السواد، والذي ابيضت جلدته وفسدت شعرته.

[٢٠] رسع فهو مرسع: فسد موق عينه. وأنثه كقولك: هلباجة أو لأن الترسيع يكون في العين وهي مؤنثة. وروي: «مسرغة»، وهي كالمعاذة أن يأخذ سير فيخرق فيدخل فيه سير فيجعل في إرساغه دفعًا للعين، فمرسعة مبتدأ، خبره بين أرساغه.

[٢١] ج. رسغ؛ مفصل ما بين الكف والساعد، والقدم إلى الساق. ويروى أرفاغه: ج رفغ؛ هو أصل الفخذ، وسائر المغابن، وكل موضع اجتمع فيه الوسخ.

[٢٢] يبس في المرفق والرسغ تعوج منه اليد والقدم.

[٢٣] الكعب: العظم لكل ذي أربع، وكل مفصل للعظام. كان حمقى الأعراب في الجاهلية يعلقون كعب الأرنب في الرجل كالمعاذة، ويزعمون أن من علقه لم تضره عين ولا سحر ولا آفة؛ لأن الجن تجتنب الأرانب لمكان الحيض، يقول: هو من أولئك الحمقى.

[٢٤] الخزرافة: الضعيف، والمضطرب في جلوسه، أو الذي لا يحسن القعود في المجلس، أو الكثير الكلام.

[٢٥] الطياخة: الأحمق لا خير فيه، أو الأحمق القذر أو الذي لا يزال يقع في بلية وسوء.

[٢٦] الأخدب: الذي لا يتمالك حمقًا وجهلًا، أو الأهوج.

ولست بذي رثية[٢٧] إمَّر[٢٨] إذا قيد مستكرهًا أصحبا[٢٩]

أهو مما يختار ويوصف بهذه الأوصاف مع ما في هذه الأبيات من حوشي الكلام وجساء الألفاظ وخلوها من كثير من الفائدة.» فأمسك علي.

(٢) أسلوبه

أما أسلوبه فقد كان جزل الألفاظ، متين التأليف، جيد السبك، كثير الغريب، إلا في الغزل فإنه كان يغلب عليه في غزله الرقة والرشاقة.

وأما معانيه فقد كانت بديعة، كما كان خياله بديعًا، وربما سلك سبيل المبالغة والغلو، كقوله في الغزل:

مِنَ القَاصِرَاتِ الطَّرْفِ لَوْ دَبَّ مُحْوِلٌ مِنَ الذَّرِّ فَوْقَ الإِتْبِ مِنْهَا لَأَثَّرَا[٣٠]

---

[٢٧] الرثية: وجع يأخذ في المفاصل واليدين والرجلين، أو كل ما منع من الانبعاث من وجع أو كبر.

[٢٨] الإمَّر: الأحمق الضعيف لا رأي له أو لا عقل له إلا ما أمرته به لحمقه، يأتمر لكل أمر شبهه بالجدي إذا قيد انقاد.

[٢٩] اصحب: انقاد. وتتمة هذه الأبيات:

وقالت بنفسي شباب له ولمته قبل أن يشجبا
وإذ هي سوداء مثل الجناح تغشي المطانب والمنكبا

(اللمة: ما ألم من الشعر بالمنكبين. ويشجب؛ يقال شَجِبَ يشجَب شجَبًا، وشجَبَ يشجُب شجوبًا: إذا عطب وهلك. تقول أفدي شبابه: شفقة عليه ومحبة فيه. والمطانب: جمع مَطْنَب، ومطنب المنكب والعاتق وحبل العاتق.)

[٣٠] الإتب: بُرد أو ثوب يشق في وسطه، تلقيه المرأة في عنقها من غير جيب ولا كمَّين، وهي المعلقة والصدار والشَّوذَر، وقيل قميص بلا كمين، وقيل السراويل بغير رجلين.

وقوله:[٣١]

تَنَوَّرْتُها من أذْرِعات وأهلها   بيثرب أدنى دارها نظر عالِ

وله أبيات تدل على أنه كان ينظم الشعر، ثم يتخير منه، فيأخذ المستجاد ويطرح ما سواه، وهي:

أذود القوافي عندي ذيادا   ذياد غلام جريء جرادا
فلما كثرن وعنَّيْنَه   تخير منهن شتى جيادا
فأعزل مرجانها جانبًا   وآخذ من درها المستجادا

وزعم ابن الكلبي أنه امرؤ القيس بن بكر بن امرئ القيس بن الحارث بن معاوية الكندي.

وزعم غيره أن الأبيات لامرئ القيس بن عانس الكندي.

وقد تقدم أنه لقب بـ «الذائد» لقوله: «أذود القوافي ...»

(٣) بداهته

والظاهر أنه كان سريع الخاطر، قوي البديهة، لم يتكلف تنقيح شعره وتهذيبه، بل كان يلقيه عفوًا بلا تعمل ولا كد قريحة؛ ولذلك تجد على أكثر شعره مسحة البداوة وجفاءها.[٣٢]

والغالب على شعره أيام صبوته التشبيب بالنساء، ووصف الخيل، والصيد، وما شاكل ذلك مما تقتضيه الصبوة والمجانة، وفي أيام كبره يغلب على شعره الشكوى من

[٣١] العمدة ١ / ١٣٤.

[٣٢] وقد تقدمت ممالطته للتوأم اليشكري وعبيد بن الأبرص، وإنشاده بائيته في علقمة.

الزمن، وتجهم الإخوان، ونحو ذلك مما تقتضيه المحنة التي مُنِّي بها، وقد يمثل شعره صورة تامة عن حياته وخلقه، فانظر إلى قوله:

بكى صاحبي لمَّا رأى الدَّرب دونه وأيقن أنَّا لاحقانِ بقيصرا
فقلت له لا تبك عينك إنما نحاول ملكًا أو نموت فنعذرا

وقوله:

ولكنني أسعى لمجد مؤثل وقد يدرك المجد المؤثل أمثالي

وقوله في وصف راحلته:

عليها فتًى لم تَحمل الأرض مثله أبرَّ بميثاق وأوفى وأصبرا

وقوله:

فظل طهاة اللحم ما بين منضج صفيف شواء أو قديرٍ معجل

وقوله:

فظل العذارى يرتمينَ بلحمها وشحم كهدَّاب الدِّمَقس المفتل

فإنك تجد فيه عزة الملك، وتلمح فيه مخايل النبل والإمرة والسيادة وعلو الهمة وعظمة النفس.

وإذا نظرت إلى قوله:

إذا ما لم يكن إبل فمعزى كأن قرون جلتها العصي
لنا غنم نسوقها غزار كأن قرون جلتها العصي

... إلخ.

فإنه يمثل لك قناعة الصعلوك، وذلة المعدوم، ورضا الخامل.

وإذا نظرت إلى قوله:

فإن كنت قد ساءتك مني خليقة   فسلي ثيابي من ثيابك تنسلِ

وقوله:

رمتني بسهم أصاب الفؤاد   غداة الرحيل فلم أنتصر
فأسبل دمعي كفض الجمان   أو الدر رقراقه المنحدر
فبتُّ أكابد ليل التما   م والقلب من خشية مقشعر

تمثل لك فيه ذل العاشق، وخنوع المحب الذي مَلَكَ الحبُّ عليه مشاعرَه، فلم يجد ما يفرج به كربه إلا إسبال الدمع، والاستسلام للمحبوب، والنزول عند رغبته.

وإذا تأملت قوله:

وأنا المنية بعدما قد نوموا   وأنا المعالن صفحة النوَّام

وقوله:

وإذا أذيت ببلدة ودعتها   ولا أقيم بغير دار مقام
وأنازل البطل الكريه نزاله   وإذا أناضل لا تطيش سهامي

وقوله:

والله لا يذهب شيخي باطلا   حتى أُبير مالكًا وكاهلا
القاتلين الملك الحُلاحلا   خير مَعَدٍّ حسبًا ونائلا[٣٣]

---

[٣٣] في العكبري ١ / ٥٠ لامرئ القيس:

القاتلين الملك الحلاحلا   يا لهف هند إذ خطئن كاهلا

وقوله:

وكل مكارم الأخلاق صارت إليه همتي وبه اكتسابي

رأيته يضم بين جوانحه نفسًا جبارة لا تقيم على ضيم، ولا تنام على وتر، فهو الموت، وهو ينازل البطل الكريه نزاله، ولا تطيش سهامه، وقد أحبت همته كل خلق كريم، كما حملت راحلته فتًى لم تحمل الأرض مثله، فامرؤ القيس شجاع كريم الأخلاق، شديد الاعتداد بنفسه، كثير الفخر بها وبقومه.

وإذا تدبرت قوله:

أرانا مُوضِعين[٣٤] لحتم غَيْب ونُسْحَر[٣٥] بالطعام وبالشراب
عصافير وذبَّانٌ ودودٌ وأجرأُ مِن مُجَلِّحةِ[٣٦] الذئاب
فبعض اللوم عاذلتي فإني ستكفيني التجارب وانتسابي[٣٧]
إلى عرق[٣٨] الثرى وشجت[٣٩] عروقي وهذا الموت يسلبني شبابي
ونفسي سوف يسلبها وجُرمي[٤٠] فيُلحقني وشيكًا[٤١] بالتراب

وهذه هي امرأة أبيه لم تلد لأبيه حجر شيئًا، فخلف عليها امرؤ القيس وخرج في طلب بني كاهل، فأوقع بحي من بني كنانة وهو يظن أنهم من كاهل، وهم بطن من أسد. وخطئ وأخطأ بمعنًى واحد، وهما لغتان.

[٣٤] الإيضاع: نوع من السير.

[٣٥] أي نعلل، فكأنا نسحر ونخدع بهما.

[٣٦] جريئة، وفي اللسان: أجرأ من مجلجة.

[٣٧] إذا لم أجد بيني وبين أحد حيًّا كفاني وعلمت أني سأموت.

[٣٨] آدم.

[٣٩] اتصلت.

[٤٠] جسدي.

[٤١] سريعًا.

إلى أن يقول:

وقد طوفت بالآفاق حتى رضيت من الغنيمة بالإياب!
أبعد الحارث الملك بن عمرو وبعد الخير حجر ذي القباب[٤٢]
أرجي من صروف الدهر لينًا ولم تغفل عن الصم الهضاب[٤٣]
وأعلم أنني عما قليل سأنشب في شبا[٤٤] ظفر وناب
كما لاقى أبي حجرٌ وجَدِّي ولا أنسى قتيلًا بالكُلاب[٤٥]

وقوله المتقدم:

ألا إن لم تكن إبل فمعزى كأن قرون جلتها العصي

... إلخ.

خيل إليك أن زاهدًا يملي ضروبًا من العظات على تلاميذه ليعتبروا، ويكفوا أنفسهم عن الهوى؛ لأنهم صائرون إلى ما صار إليه آباؤهم من قبل، ويحضهم على القناعة والاجتزاء من الغنى بالشبع والري.

ومن سمع قوله:

البر أنجع ما طلبت به والبر خير حقيبة الرَّحْلِ[٤٦]

[٤٢] القبة من أدم تكون للملوك.

[٤٣] ج. هضبة: الصخرة الراسية الضخمة.

[٤٤] حد.

[٤٥] اسم ماء كانت عنده وقعة؛ ولذلك قالوا: الكلاب الأول والثاني، وهما يومان مشهوران، والمراد بالقتيل: عمه شرحبيل بن عمرو.

[٤٦] الحقيبة: وعاء يجعل الرجل فيه زاده.

وقوله:

وقاهم جدهم[٤٧] ببني أبيهم وبالأشقَيْن ما حلَّ العقاب[٤٨]

وقوله:

وهل يَنْعَمَنْ إلا سعيدٌ مخلَّدٌ قليل الهموم ما يبيت بأوجال؟!

وقوله:

صُبَّت عليه ولم تنصبَّ من كثب إن الشقاء على الأشْقَيْن مصبوب!

وقوله في النساء:

أراهن لا يُحْبِبْنَ مَن قلَّ مالُه ولا من رأينَ الشيب فيه وَقوَّسا[٤٩]
ألا إن بعد العدم للمرء قنْوة[٥٠] وبعد المشيب طول عمر ومَلبَسا[٥١]

وقوله:

إذا المرء لم يَخزُن عليه لسانه فليس على شيء سواه بخزَّانِ!

وقوله:

فإنك لم يفخر عليك كفاخر ضعيف ولم يغلبك مثل مغلَّب

---

[٤٧] حظهم.
[٤٨] نسخة العتاب؛ أي صار الملام واقعًا بهؤلاء الأشقياء.
[٤٩] انحنى.
[٥٠] غنًى ورخاء، كسبة.
[٥١] ثوبًا يلبس.

وقوله:

أرى المرء ذا الأذواد يصبح مَحْرضًا[٥٢] كإحراض بكر في الديار مريض
كأن الفتى لم يغن في الناس ساعة إذا اختلف اللحيان عند الجَرِيضِ[٥٣]

وقوله:

وما المرء ما دامت حُشاشة نفسه بمدرك أطراف الخطوف ولا آل

وقوله:

تمتع من الدنيا، فإنك فانِ مِن النشواتِ والنساءِ الحسانِ!

وقوله:

ألا إنما الدهر[٥٤] ليالٍ وأعصر وليس على شيء قويم بمستمر[٥٥]

تبين أن امرأ القيس شاعر حكيم، يستمد حكمته من التجارب ومقايسة بعض الأمور ببعض.

وإذا تأملت قوله:

لقد أنكرتني[٥٦] بعلبك وأهلها ولابْن جريج في قرى حمص أنكرا

---

٥٢ ج. ذود من الإبل، ما بين الثلاث إلى عشر. المحرض: الهالك، لا حي فيرجى، ولا ميت فيواسى.

٥٣ الغصص بالريق، ورواه الجوهري: «عند جريض»، وفسر الجريض بالغصة.

٥٤ في رواية: ألا إنما الدنيا …

٥٥ استمر الشيء: مضى على طريقة واحدة.

٥٦ أنكر الشيء: جهله.

وقوله:

إذا قلت: هذا صاحب قد رضيته   وقرَّت به العينان، بُدِّلت آخرا
كذلك جَدِّي: لا أصاحب صاحبًا   من الناس إلا خانني وتغيرا
وكنَّا أناسًا قبل غزوة قَرْمَل[٥٧]   ورثنا الغنى والمجد أكبر أكبرا

تمثل لك فيه شكوى البائس، وذكرى المكروب، وفخر الضعيف المغلوب.
وإذا نظرت إلى قوله:

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع   فألهيتها عن ذي تمائم محول

وقوله:

سموت إليها بعدما نام أهلها   سمو حباب الماء حالًا على حال

وقوله:

كأني لم أركب جوادًا للذة   ولم أتبطن كاعبًا ذات خلخال
ولم أسبأ الزق الروي ولم أقل   لخيلي كِرِّي كَرَّة بعد إجفال

وقوله:

إذا ذقت فاها قلت طعم مدامة   معتقة مما تجيء به التجر

وقوله:

هصرت بفوديْ رأسها فتمايلت   عليَّ هضيم الكشح ريَّا المخلخل

[٥٧] ملك من اليمن غزا كِندة قبل امرئ القيس فأصاب منهم، أو اختلفت أصحاب امرئ القيس عليه، فخرج إلى قَرْمَل فاستجاشه، فثبطه.

وقوله الذي غبر فيه في وجه كل من وصف المضاجعة:

تقول وقد جردتها من ثيابها كما رُعت مكحولًا من العين أتلعا[٥٨]
وجدِّكَ لو شيء أتانا رسوله سواك ولكن لم نجدْ عنك مدفعا
فبتنا نذود الوحش عنا كأننا قتيلان لم تعلم لنا الناس مصرعا
إذا أخذتها هزة الروع أمسكتْ بمنكب مقدامٍ على الهول أروعا[٥٩]

وقوله:

فلما تنازعنا الحديث وأسمحت هَصَرْتُ[٦٠] بغصن ذي شماريخ[٦١] ميَّال
وصرنا إلى الحسنى ورقَّ كلامنا ورُضْتُ فذلَّت صعبة أي إذلال

تراءى لك فيه عربدة الماجن، وصراحة الخليع، وفجور المتعيهر.

فأشعار امرئ القيس لا تمثل نفسًا سلكت سبيلًا واحدًا في الحياة، ولا انتهجت سَنَنًا مطردًا، بل تمثل نفسًا مضطربة لا تستقر على حال من القلق.

---

[٥٨] طويل العنق.

[٥٩] الأروع: الكريم ذو الجسم والجهارة والفضل، والذي يروعك حسنه ويعجبك إذا رأيته.

[٦٠] هصر الغصن وبالغصن: أمال رأسه إليه.

[٦١] الشمراخ: العذق. والشمروخ: غصن دقيق رخص ينبت في أعلى الغصن الغليظ خرج في سنته رخصًا.

أغراض شعره

أما أغراض شعره فلا تكاد تخرج عن أغراض الشعر في الجاهلية من: غزل، وحماسة، وفخر، وعتاب، ومدح، وهجاء، ووصف.

(١) الغزل

البداة لا يعرفون مظهرًا من مظاهر الجمال خيرًا من المرأة، فالمرأة هي المثل الأعلى فيه عندهم، والعرب ذوو نفوس حساسة وأذواق لطيفة: إذا رأى أحدهم الجمال أخذ بمجامع قلبه، وملك عليه مشاعره، وشغل نفسه عما سواه، فإذا فارق من أحب جاشت مراجل الحب في نفسه، فقذفت على فيه ما يختلج فيها من آلام البعد، وتباريح الشوق، فأخذ يشكي[١] ويبكي، ويترنم بوصف من أحب بالصفات التي تثير في نفسه كوامن الشوق؛ ولذلك كانوا يقدمون الغزل في فاتحة أشعارهم.

ولامرئ القيس آيات رائعة في الغزل؛ فقد بلغ فيه غاية لم يُسبق إليها، وسلك سبيلًا اتبعه من جاء بعده، وشعره وإن كان مطبوعًا بطابع البداوة أحيانًا، فإن غزله يكاد يذوب لطافة ورقة.

[١] لغة في يشكو.

وسبيله في الغزل مختلف: منه العفيف الشريف، ومنه ما أفحش فيه وخرج عن الأدب، بالنسبة إلى هذا العصر، ولعل ذلك كان مرغوبًا فيه في عصره، فإن النابغة الذبياني بلغ من الصراحة في وصف «المتجردة» ما لم يبلغه امرؤ القيس في كل أدبه الصريح.

وقد يظهر للباحث أن امرأ القيس مولع بالنساء، شديد الحب لهن، ولكن حبه غير صحيح ولا ثابت، بل هو محب للجمال، يتبعه حيث كان كما يتبع الراعي ساقط الغيث، ومنابت الكلأ.

وقد سئل مرة: ما أطيب لذات الدنيا؟ فقال: بيضاء رعبوبة،[2] بالحسن مكبوبة، بالشحم مكروبة،[3] بالمسك مشبوبة.[4]

ولشدة شغفه بالنساء كان يكره أن يمسي وليس لديه من يأنس بها أية كانت، فقد قال من قصيدة:

له الويل إن أمسى ولا أم هاشم قريب ولا البسباسة ابنة يشكرا

وكان سريع العشق، متى رأى أحب، يشهد لذلك أنه كان في طيء وكلب (لما نفاه أبوه)، فرأى «هر» — وهي أم الحويرث ابنة سلامة بن علند[5] — فأحبها، واصطادت قلبه، وأقصدته بسهم: فأسبل دمعًا كالجمان، ثم دنا منها، فتسداها، ولم يره كاشح، وألحق بها شرًّا، ووصمها بسبة لا تمحى، وقد أجاد في وصفها حيث يقول:[6]

وفيمن أقام من الحي هر أم الظاعنون بها في الشُّطُر؟[7]

---

[2] تارة شطنة: طويلة غضة.

[3] كربه: فتله؛ وإذا كان الحيوان وثيق المفاصل قيل إنه لمكروب المفاصل.

[4] يقال شب لون المرأة خمار أسود: لبسته؛ أي زاد في بياضها ولونها فحسنها، وفي «عيون الأخبار» ٣ / ٢٥٩: «بالطيب مشوبة.» ولم يذكر: «بالحسن مكروبة.»

[5] وفي التبريزي في شرح القصائد العشر ص١٠: «وأم الحويرث هي الهر أم الحارث بن حصين بن ضمضم الكلبي.»

[6] في شرح الوزير أبي بكر: «قال ابن الكلبي: أعزاب كلب ينشدون هذه القصيدة لابن حذام.» وفي شرح شواهد المغني للسيوطي: «وزعم أبو حاتم أنها لرجل من النمر بن قاسط يقال له ربيعة بن جشم.»

[7] ج. شطر؛ وهو الغريب.

وهـر تـصـيـد قـلـوب الـرجـال   وأفلت منها ابن عمرو حجر[٨]
رمـتـنـي بـسـهـم أصـاب الـفـؤاد   غـداة الـرحـيـل فـلـم أنـتـصـر[٩]
فأسبل دمعي كفض[١٠] الجمان   أو الـدر رقـراقـه الـمـنـحـدر
وإذ هـي تـمـشـي كـمـشـي الـنـزيـ   ـف يَصْرعه بالكثيب البُهُر[١١]
بَـرَهْـرَهَـةٌ[١٢] رُودَةٌ رَخْـصَـة[١٣]   كَخُرْعُوبة[١٤] البانة المنفطر[١٥]
فَتُور[١٦] القيام قطيعُ[١٧] الكلا   م تفترُّ[١٨] عن ذي غروب[١٩] خَصِر
كـأن الـمُـدام وصـوب الـغـمـام   وريح الخزامى[٢٠] ونَشْر[٢١] القُطُر[٢٢]
يُـعَـلُّ[٢٣] بـهـا بَـرْدُ أنـيـابـهـا   إذا طرَّب[٢٤] الطائر المستحر[٢٥]

---

[٨] أبو امرئ القيس.

[٩] أي أصابته بمحاسنها فلم ينتصر منها.

[١٠] تفرق.

[١١] انقطاع النفس.

[١٢] رقيقة الجلد.

[١٣] شابة، أو رخصة؛ ناعمة.

[١٤] قضيب غض.

[١٥] المتشقق: الذي ينفطر بالورق وهو ألين ما يكون.

[١٦] متراخية لثقل عجزها.

[١٧] قليلة لشدة حيائها.

[١٨] تبسم.

[١٩] حدة الأسنان وماؤها.

[٢٠] خيري البر.

[٢١] ربح.

[٢٢] عود يتبخر به.

[٢٣] يسقى بالمدامة مرة بعد مرة؛ يقال علَّت الإبل: شرب الشربة الثانية؛ وعلَّها صاحبها: سقاها السقية الثانية؛ يتعدى ولا يتعدى.

[٢٤] صوت.

[٢٥] المصوت بالسَحَر: أي الديك.

فـبـتُّ أكـابـد[٢٦] لـيـل الـتَّـمـا م[٢٧] والقلب من خشية مقشعر[٢٨]
فـلـمـا دنـوت تـسـدَّيـتـهـا[٢٩] فـثـوبًـا نـسـيـت وثـوبًـا أجُـر[٣٠]
ولـم يَـرَنَـا كـالـئٌ[٣١] كـاشـح[٣٢] ولـم يُـفْـشَ منـا لـدى الـبيت سـر
وقـد رابـنـي[٣٣] قـولـهـا: يـا هَـنَـا ه ويـحـك ألـحـقـت شـرًّا بـشـر![٣٤]

وذكر أنه علقها وليدًا إلى أن فني شبابه؛ ولذلك كان يفضل ليالي ذات الطلح؛ إذ كان يصطبح فيها عندها، وعند فرتنى بقوله:

لـيـالٍ بـذات الـطـلـح عـنـد مـحـجـرٍ أحـب إلـيـنـا مـن لـيـالٍ عـلـى أُقُـر[٣٥]
أغـادي الـصـبـوح عـنـد هـر وفـرتـنـى ولـيـدًا وهـل أفـنـى شـبـابـي غـيـر هـر؟
إذا ذقـت فـاهـا قـلـت: طـعـم مـدامـة مـعـتـقـة مـمـا تـجـيء بـه الـتُّـجُـر[٣٦]

[٢٦] أقاسي.
[٢٧] ليل التمام: أطول ليالي الشتاء؛ وقيل هي ثلاث ليالٍ لا يستبان زيادتها من نقصها، وقيل هي إذا كانت ١٢ ساعة إلى خمس عشرة ساعة، ويسمى ليل المغموم ليل التمام لطوله.
[٢٨] وجل.
[٢٩] تناولتها أو علوتها.
[٣٠] ذهب عقله فنسي ثوبًا وعفى الأثر بثوب، ويُروى صدرُه:

فأقبلت زحفًا على الركبتين …

يريد: أنه اجتهد في الوصول إليها في الليل الطويل، وقاسى شدة من خوف الرُّقَبَاء، فزحف على ركبتيه حتى وصل إليها، ونسي بعض ثيابه عندها؛ لأنها ذهبت بفؤاده، فلم يدرِ كيف خرج من عندها.
[٣١] حافظ حارس.
[٣٢] عدو.
[٣٣] أوقع الريبة، وهناه: اسم لا يستمعل في غير النداء، معناه يا فلان.
[٣٤] يعني: كنا متهمين فحققت الأمر.
[٣٥] موضع.
[٣٦] ج تجار أو أصلها تجر ج تاجر، كصحْب وصاحب.

هـمـا نـعـجـتـان مـن نـعـاج تـبـالـة[٣٧] لدى جؤذرين أو كبعض دمى هَكِر[٣٨]
إذا قـامـتـا تـضـوع الـمـسـك مـنـهـمـا بـرائـحـة مـن الـلَّـطِـيـمَـة[٣٩] والـقُـطُـر
كـأن الـتِّـجَـارَ أَصْـعـدوا[٤٠] بِـسَـبِـيـئَـة[٤١] من الخص[٤٢] حتى أنزلوها على يُسُر[٤٣]
فلما استطابوا صُبَّ في الصحن[٤٤] نصفُه وشُـجَّـتْ بـمـاءٍ غـيـر طَـرْقٍ[٤٥] ولا كَـدِر
بـمـاء سـحـاب زل عـن مـتـن صـخـرة إلـى بـطـن أخـرى طـيـب مـاؤهـا خـصـر

وأحب فاطمة[٤٦] (وهي من بني كلب) فاستكثر تدللها، وتذلل لها، وسألها أن تجمل صرمه، وتسل ثيابه من ثيابها إن كانت خليقته ساءتها، ثم غامر بنفسه وتجاوز الأحراس إليها، حتى جاءها وقد نضت ثيابها، ثم خرج بها وهي تعفي الأثر بأذيالها، حتى تجاوز ساحة الحي، فصهر بفودي رأسها، ثم نعتها بأجمل ما ينعت به عاشق معشوقته، ولم يدع مظهرًا من مظاهر الحسن في جسمها إلا وصفه وصفًا يستهوي الأفئدة، بأسلوب

[٣٧] موضع تألفه الوحش؛ والجؤذر: ولد البقر، والنعجة: الأنثى من الظباء أو بقر الوحش.

[٣٨] موضع.

[٣٩] عير تحمل المسك. والقطر: العود.

[٤٠] ذهبوا.

[٤١] خمر اشتريت للشرب.

[٤٢] بلد بالشام جيد الخمر.

[٤٣] بلد كان يسكنه الشاعر.

[٤٤] الصحن: القدح.

[٤٥] بالت فيه الإبل.

[٤٦] في الجمهرة هي عنيزة، وفي التبريزي هي فاطمة بنت عبيد بن ثعلبة بن عامر، وهو الأجدار بن عوف بن عذرة، ولها يقول:

لا وأبيك ابنة العامري لا يدعي القوم أني أفر

ينحدر إلى قرارة النفوس، فقال:

أفـاطـمُ مـهـلًا! بـعـضَ هـذا الـتـدلُّـل
وإن كنتِ قد أزمعت[٤٧] صَرْمِي[٤٨] فأجْملي[٤٩]
وإن تـك قـد سـاءتـك مـنـي خـلـيـقـة[٥٠]
فسُـلِّي ثـيـابـي[٥١] مـن ثـيـابـك تـنـسـل[٥٢]
أغــرك مــنــي أن حــبــك قــاتــلــي
وأنـك مـهـمـا تـأمـري الـقـلـب يـفـعـل؟!
ومــا ذرفــت عــيــنــاك إلا لــتــضــربــي
بـسـهـمـيك فـي أعـشـار[٥٣] قـلـب مـقـتَّـل[٥٤]
وبــيــضــة خــدر لا يُــرام خــبــاؤهــا
تـمـتـعـتُ مـن لـهـو بـهـا غـيـر مـعـجـل[٥٥]

---

[٤٧] عزمت.

[٤٨] قطيعتي.

[٤٩] فأحسني.

[٥٠] طبيعة.

[٥١] قلبي.

[٥٢] انسل الريش: سقط، وأنسله: أسقطه، ونَسَل ينسِل نسلًا، ونسل الطائر ريشه، يتعدى ولا يتعدى.

[٥٣] السهمان: العينان. والأعشار: الكسور. قدح أعشار: مكسور؛ أي لتجعلي قلبي فاسدًا مخروقًا، يقول: إنكِ لم تبكي لأنك مظلومة، وإنما بكيتِ لتقدحي في قلبي كما يقدح القادح في الأعشار. وقيل في معناه: إن هذا مثل لأعشار الجزور، وهي تقسم على عشرة أنصباء، ثم يجال عليها بالسهام، يريد: أنك ذهبت بقلبي أجمع. وعن الأصمعي، معناه: دخل حبك في قلبي كما يدخل السهم. قال التبريزي: وأجود هذه الوجوه أن يراد بالسهمين المعلى والرقيب؛ لأنه جعل بكاءها سببًا لغلبتها على قلبه، فكأنها حين بكت فاز سهماها.

[٥٤] مذلل.

[٥٥] غير خائف، أو لم يكن مما فعلته مرة أو مرتين فأعجل عنه.

تـجـاوزت أحـراسًـا وأهـوال مـعـشـر
علـيَّ حِـراصًـا لـو يُـسِـرُّون مـقـتـلـي[٥٦]
إذا مـا الـثـريـا فـي الـسـمـاء تـعـرضـت
تـعـرُّض أثـنـاءِ الـوشـاح الـمـفـصَّـل[٥٧]
فـجـئـت وقـد نـضَّـتْ لـنـوم ثـيـابـهـا
لـدى الـسـتـر إلا لْـبـسـة الـمـتـفـضِّـل[٥٨]
فـقـالـت: يـمـيـن الـلـه مـا لـك حـيـلـة
ومـا إن أرى عـنـك الـغـوايـة تـنـجـلـي
خـرجـتُ بـهـا أمـشـي تَـجُـرُّ وراءنـا
عـلـى أثـرَيـنـا ذَيـلَ مِـرطٍ مـرحَّـل[٥٩]
فـلـمـا أجـزنـا سـاحـة الـحـي وانـتـحـى
بـنـا بـطـنُ خَـبْـتٍ ذي قِـفَـافٍ عَـقَـنْـقَـل[٦٠]

---

[٥٦] الأحراس: ج حارس، وأبى بعضهم هذا الجمع، وقيل ج حرس. يسرون: يكتمون، ويُروى: يُشِرُّون؛ أي يظهرون.

[٥٧] تعرض الشيء: دخله فساد وتعوَّج. وتعرضت الثريا: لم تستقم في سيرها ومالت كالوشاح المعوجِّ أثناؤه على جارية توشحت به. أثناء: ج ثني؛ وهو الجانب، والوشاح ينسج من أديم عريضًا ويرصَّع بالجوهر تشده المرأة بين عاتقيها وكشحيها. وفصَّل الوشاح: جعل بين كل لؤلؤتين مرجانة أو شذرة أو جوهرة تفصل بين كل اثنتين من لون واحد.

[٥٨] تضت: نزعت وألقت، قال الجوهري: ويجوز عندي تشديده للتكثير. المتفضل: الذي يبقى في ثوب واحد لينام أو يعمل عملًا، واسم الثوب المفضلُ والمفضلة.

[٥٩] يروى: فقمت بها أمشي ... ويروى على إثرنا أذيال ... المرط: إزار خزله علم ويكون من صوف. مرحل: فيه صور الرحال.

[٦٠] أجزنا: قطعنا. وانتحى: اعترض. والخبت: بطن من الأرض غامض، ويروى حقف، والحقف: ما اعوج من الرمل وانثنى. وأقفاف: ج قف؛ وهو ما انقطع من الرمل. وعقنقل: متعقد داخل بعضه في بعض.

هَـصَـرْتُ بـفَـوْدَي رأسـهـا فـتـمـايـلـت
علـيَّ هـضـيـم الـكَشْـحِ رَيَّا الـمُـخـلـخَـل[٦١]
مـهـفـهـفـة بـيـضـاء غـيـر مـفـاضـة
تـرائـبـهـا مـصـقـولـة كـالـسـجـنـجـل[٦٢]
تـصـد وتـبـدي عـن أسـيـل وتـتـقـي
بـنـاظـرة مـن وحـش وَجْـرَة مـطـفـل[٦٣]
وجـيـد كـجـيـد الـريـم لـيـس بـفـاحـش
إذا هــي نــصــتــه ولا بــمــعــطَّــل[٦٤]
وفـرع يـغـشـي الـمـتـن أسـودَ فـاحـمٍ
أثـيـثٍ كَـقِـنْـوِ الـنـخـلـة الـمـتـعـثْـكـل[٦٥]
غـدائـرهُ مـسـتـشـزراتٌ إلـى الـعـلـى
تـضِـل الـمـداري فـي مُـثـنـى ومُـرسـل[٦٦]

---

[٦١] هصر الغصن: أماله نحوه. والفودان: جانبا الرأس. وهضيم: لطيفة. والكشح: ما بين الخاصرة إلى الضلع (وأراد الكشحين). وريا المخلخل: ممتلئة موضع الخلخال؛ أي الساق، ويروى:

إذا قلت هاتي نوليني تمايلت

[٦٢] مهفهفة: لطيفة الخصر، أو خفيفة اللحم. مفاضة: واسعة البطن، أو طويلته مضطربة. ترائبها: ألواح صدرها. السجنجل: المرآة.

[٦٣] تصد: تعرض. تبدي: تظهر. أسيل: سهل. وجرة: موضع بين مكة والبصرة، وأراد بوحشها: الظباء. مطفل: ذات طفل.

[٦٤] فاحش: قبيح. نصته: رفعته. المعطل: الخالي من الحلي.

[٦٥] الفرع: الشعر التام. يغشي: يغطي. فاحم: شديد السواد. أثيث: كثير. القنو: العذق. المتعثكل: الداخل بعضه في بعض، وقيل المتدلي.

[٦٦] غدائره مستشزرات: ذوائبه مرتفعات أو مفتولات. إلى العلى: ما فوقها. تضل المداري: تغيب الأمشاط، أو شيء كالشوكة تصلح به المرأة شعرها.

وكشح لطيف كالجديل مخصر
وساق كأنبوبِ السقي المُذلل[٦٧]
وَيُضْحي فَتِيتُ المِسكِ فوق فراشها
نئومُ الضُّحى لم تَنْتَطِقْ عن تَفضُّل[٦٨]
وَتَعْطو برَخْصٍ غيرِ شَثْنٍ كأنَّه
أساريعُ ظبي أو مساويكُ إسْحِل[٦٩]
تُضيء الظلامَ بالعشي كأنها
منارةُ مُمسَى راهب متبتل[٧٠]
إلى مثلها يرنو الحليم صبابة
إذا ما اسبكرَّت بين درع ومِجْوَل[٧١]
كِبِكْرِ المُقاناةِ البَياضُ بصُفْرَة
غذاها نميرُ الماء غير المحلَّلِ[٧٢]
تسلت عَمايات الرجالِ عن الهوى
وليسَ صِباي عن هواها بِمنْسَلِ[٧٣]

---

[٦٧] الجديل: الزمام من سيور. مخصر: معتدل. السقي: النخل المسقي. المذلل: الذي ذلل بالماء فتعنوه الرياح وتميله.

[٦٨] لم تنتطق: لم تجعل نطاقها وسطها. تفضل: بقي في ثوب واحد للنوم أو العمل (وعن بمعنى بعد).

[٦٩] تعطو: تتناول. رخص: غض. شثن: غليظ. أساريع: ج أسروع؛ دودة بيضاء لينة طويلة مستوية رأسها أحمر كأنه ظفر مخضب، وهو تشبيه جيد، إلا أن الحضر لا تأنس بهذا التشبيه الجيد (العمدة ١ / ٢٠٤)، ظبي: موضع. إسحل: شجر يستاك بغصونه.

[٧٠] المتبتل: المنقطع عن الناس.

[٧١] يرنو: يديم النظر. اسبكرت: امتدت؛ أي هي بين المرأة والجارية الصغيرة. والدرع: للمرأة. والمجول ثوب للجارية.

[٧٢] كبكر المقاناة: كبيضة النعام؛ وهي البكر أو الدرة. والمقاناة: التي قوني بياضها بصفرة؛ أي خولط؛ أي بياضها ليس بخالص؛ والمعنى كبكر البيض الذي قوني هو البياض. والنمير من الماء: الذي ينجع في شاربه. وغير محلَّل: لم يحله أحد فيكدره، ورُوي محْلِل؛ أي إنه قليل ينقطع سريعًا.

[٧٣] العماية: الجهل. بمنسل: إما من انسلَى مطاوع سلا أو سلَّت، وخفف للقافية، أو من أَنْسَل الوبر: أسقطه.

ألا رُبَّ خَـصْـمٍ فـيـكِ أَلْـوَى رَدَدتُـه
نـصـيـحٍ عـلـى تـعـذَالـه غـيـر مـؤتَـل[٧٤]

وأحب عنيزة،[٧٥] فدخل عليها الخدر، وأشفقت على بعيرها أن ينعقر، ثم ذكر لها أن النساء تشتهيه، حتى الحبالى والمراضع:

ويوم دخلتُ الخدر خدر عنيزة — فقالت لك الويلات إنكَ مُرجلي[٧٦]
تقولُ وقد مالَ الغَبيطُ بنا معًا — عقرتَ بعيري يا امرأ القيس فانزل[٧٧]
فقُلتُ لها سيري وأرْخي زِمامَه — ولا تُبعديني من جناك المعلل[٧٨]
فمِثلِكِ حُبْلى قد طَرَقْتُ ومُرْضعٍ — فألهيتُها عن ذي تمائمَ مُحول[٧٩]
إذا ما بكى من خلفها انْحرَفَتْ له — بشِقٍّ وَتحتي شِقُّها لم يُحَوَّلِ[٨٠]
ويومًا على ظهر الكثيبِ تعذَّرت — عَلـيَّ وَآلَتْ حَلْفَةً لم تَحَلَّلِ[٨١]

---

[٧٤] ألوى: شديد الخصومة. رددته: لم أقبل نصحه. التعذال: العذل. مؤتل: مقصر.

[٧٥] في الجمهرة والزوزني أن اسمها فاطمة، وكذلك في التبريزي، ورواه: «ويوم دخلت الخدر يوم عنيزة ...» وعنيزة على هذه الرواية هضبة سوداء بالشجر ببطن فلج. والخدر: الهودج.

[٧٦] أرجله: صيره رجلًا؛ أي: محوجي إلى أن أمشي راجلة.

[٧٧] الغبيط: الهودج أو قبة أو مركب من مراكب النساء.

[٧٨] الجنى «هنا»: ما اجتني من القُبَل. والمعلل: الذي علل بالطيب؛ أي طيِّب مرة بعد أخرى، ويروى المعلل: الذي يعللني وأتشفى به.

[٧٩] مثل: مجرورة برب مضمرة بعد الفاء، وقيل بالفاء المبدلة من الواو، المبدلة من رب. وطرقه: أتاه ليلًا. والتمائم: جمع تميمة؛ وهي التعويذة. ومحول: أتى عليه حول؛ أي ألهيتها عن ولدها، يريد أن الحبلى والمرضع، على قلة رغبتهما في الرجال، تميلان إلي لجمالي، حتى تلهى المرضع عن ولدها. ويروى: «مُغْيَل»: من أغالت المرأة ولدها وأغيلته؛ إذا سقته الغيل وهو لبن الحبلى.

[٨٠] يروى: «انصرفت له ...» ويروى: «لم يحلحل»: أي لم يحرك، يريد أنه يقبلها وخدها تحته، فإذا بكى ولدها أمالت طرفها إليه. وما قالوه من أن المراد أنها تنصرف إلى ولدها بشق ويبقى تحته شق، بعيد لا يتأتى؛ ولهذا لا يعد متعيهرًا في هذا البيت، ويريد بالمثل: المثل بالجمال أو السن أو الدلال، إذ لم يثبت أنها كانت حبلى ومرضعًا حين خاطبها بذلك.

[٨١] تعذرت: تصعبت. لم تحلل: لم تستثنِ.

وأحب سلمى، فوقف على طللها البالي، وحيَّاه، ودعا له بالنعيم، ثم قال: إنه لا ينعم إلا سعيد مخلد قليل الهموم، وكيف ينعم من كان أحدث عهده ثلاثين شهرًا؟! ثم ذكر أنها تحسب نفسها أنها لا تزال في مكان ترى فيه الوحش والبيض، وهو موضع التربع والتبدي، أو أنها ترى نفسها حديثة، ثم شبهها بالريم في قوله:[٨٢]

أَلا عِمْ صَبَاحًا أيهَا الطلَلُ البَالي ... وَهل يَعِمَنْ مَن كان في العُصُرِ الخالي[٨٣]
وَهَل يَنعمَنْ إلا سَعِيدٌ مُخَلَّد ... قليل الهموم ما يَبيتُ بأوجال[٨٤]
وَهَل يَنعمَنْ مَن كان أحدثُ عَهدِه ... ثَلاثِينَ شهرًا في ثَلاثَةِ أحوَال؟[٨٥]
دِيارٌ لسَلمَى عَافِيَاتٌ بذِي خَال ... أَلَحَّ عَلَيها كُلُّ أَسْحَمَ هَطَّال[٨٦]
وتحسبُ سلمى لا تزالُ ترى طَلا ... من الوَحشِ أوْ بَيضًا بمَيثاءِ مِحْلالِ[٨٧]
وتحسبُ سلمى لا نزالُ كعهدنا ... بوَادي الخُزَامى أوْ على رَسِّ أوْعال[٨٨]
لَيَاليَ سَلَمى إذْ تُرِيكَ مُنَصَّبًا ... وجيدًا كجيد الرئم ليس بمعطال[٨٩]

[٨٢] ذكر بعض الرواة أن امرأة القيس قال هذه القصيدة في طريق الشام، عند مسيره إلى قيصر بعد قتل أبيه، وأكثرهم — كابن قتيبة وصاحب الخزانة — يقول: إن حجرًا بلغه ما فعل امرؤ القيس يوم الغدير بدارة جلجل، فدعا مولى يقال له: «ربيعة»، فقال له: اقتل امرأ القيس وائتني بعينيه، فذبح جؤذرًا، فأتاه بعينيه، فندم حجر على ذلك، فقال: أبيت اللعن! إني لم أقتله! قال: فأتني به، فانطلق، فإذا هو قد قال شعرًا في رأس جبل:

فلا تسلمني يا ربيع لهذه ... وكنت أراني قبلها بك واثقا

فرده إلى أبيه، فنهاه عن قول الشعر، ثم إنه قال: ألا عم صباحًا ... فبلغ ذلك أباه فطرده.

[٨٣] وعم كوزن بمعنى نعم.

[٨٤] الخِلَدَة: جماعة الحلي. والمقرَّط: جارية مخلدة: مقرَّطة. وقيل الخلد السوار، يريد الصبي المسور أو المقرط، أو مِن خلَّده: أبقاه؛ فالمعنى: السعيد المبقي وهو غير موجود. الأوجال: ج وجل؛ الخوف.

[٨٥] «في» بمعنى «من» أو «مع».

[٨٦] ذي خال: موضع أو جبل. أسحم: أسود. هطال: كثير السيلان.

[٨٧] الطلا: ولد الظبية. الميثاء: الأرض السهلة. محلال: موضع يكثر فيه الحلول.

[٨٨] رس: بئر. أوعال: اسم هضبة.

[٨٩] منصبًا ثغرًا منسقًا. المعطال: الخالي من الحلي.

وزعمت «بسباسة» — وهي امرأة من أسد — أنه لا يحسن اللهو لكبره، فكذبها بقوله:

ألا زعمت بسباسة اليوم أنني   كبرت وأن لا يحسن اللهو أمثالي[٩٠]
كذبتِ! لقد أُصبي على المرءِ عِرْسَه   وأمنع عرسي أن يزنَّ بها الخالي[٩١]

وبين أنه لجماله يصبي عرس غيره، ويمنع عرسه أن يصيبها غيره، ثم عاد إلى وصف سلمى فقال:

وَيَا رُب يَوْمٍ قَد لـهَوْتُ وَلَيْلَةٍ   بِآنِسَةٍ كَأنـهَا خَطُّ تِمْثَالِ[٩٢]
يُضيء الفراشَ وجهها لضجيعها   كمصباح زيت في قناديل ذُبَّال[٩٣]
كأنَّ على لبَّاتها جمرَ مُصطلٍ   أصاب غضًى جزلًا وكُفَّ بأجذال[٩٤]
وَهَبتْ لهُ رِيحٌ بمُخْتَلَفِ الصُّوَى   صبًا وشمال في منازلِ قفَّال[٩٥]
إذا ما الضجيعُ ابتزها من ثيابه   تَميلُ عَلَيهِ هُونَةً غَيرَ مِجْبال[٩٦]
كحِقْفِ النَّقَا يَمشِي الوَليدَانِ فوْقَه   بما احتسبا من لين مسٍّ وتَسهال[٩٧]
لَطِيفَةُ طَيِّ الكَشْح غيرُ مُفَاضَة   إذَا انْفَتَلَتْ مُرْتجَّةً غَيرَ مِتفالِ[٩٨]

٩٠ اللهو السر النكاح.

٩١ أصبي أردها إلى الصبا لجمالي. يزن: يتهم. الخالي العزب.

٩٢ الآنسة: المرأة يؤنس حديثها. الخط: النقش.

٩٣ لضجيعها مضاجعها. الذُّبَّالة الفتيلة كالذبالة.

٩٤ للبات: ج لبة؛ وسط الصدر والمنحر، جعلوا كل جزء منها لبة، ثم جمعوا على لبات. الجزل: الحطب اليابس أو ما عظم منه، وكف بأجزال؛ أي جعل له كفاف من أصول الشجر، شبه توقد الحلي على صدرها بجمر المصطلي لأنه يذكيه فيتوقد.

٩٥ الصوة: حجر يكون علامة في الطريق؛ قفال: راجعين.

٩٦ ابتزها: سلب عنها ثيابها. هونة: لينة ضعيفة. محبال: غليظة.

٩٧ الحقف: ما استدار من الرمل. احتسبا: اكتفيا؛ أي جسمها أو عجيزتها لينة صلبة، كالحفف يمشي الوليدان ولم تسخ أرجلها فيه.

٩٨ الكشح: الخصر. مرتجة: يترجرج لحمها. مثفال: معنثنة الريح.

تنورتها من أذرعاتٍ وأهلها ... بيَثْرِبَ أدْنى دَارِهَا نَظَرٌ عَال[٩٩]
نظرت إليها والنجوم كأنها ... مصابيح رهبان تُشَتُّ لقُفَّال[١٠٠]
سموت إليها بعدما نام أهلها ... سمو حباب الماء حالًا على حال[١٠١]
فقالت: سباك الله! إنك فاضحي ... ألست ترى السمار والناس أحوالي؟[١٠٢]
فقلت: يمين الله أبرح قاعدًا ... ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي[١٠٣]
حلفت لها بالله حلفة فاجر ... لناموا فما إنْ من حديث ولا صال[١٠٤]
فلما تنازعنا الحديث وأسمحت ... هصرتُ بغصن ذي شماريخ ميَّال[١٠٥]
وصرنا إلى الحسنى ورق كلامنا ... ورُضْتُ فذَلَّت صعبة أي إذلال[١٠٦]

فلما انتهى معها إلى هذا الحد، وشغفها حبًّا، وكاد قلب بعلها يتميز من الغيظ والحنق، ولكن امرأ القيس لم يعبأ به؛ لأن معه سلاحًا وذاك أعزل:

فأصبحت معشوقًا وأصبح بعلها ... عليه القتام سيئ الظن والبال[١٠٧]
يغط غطيط البكر شد خناقه ... ليقتلني والمرء ليس بقتَّال[١٠٨]

[٩٩] تنورتها: نظرت نارها، قيل تخيُّل وليس رؤية بالعين. عالٍ: مرتفع؛ أي كيف أراها وأدنى دارها نظر مرتفع؟

[١٠٠] قفال: راجعين.

[١٠١] سموت: علوت ونهضت. حباب الماء: فقاقيعه؛ أي خفيف الوطء والحركة أو طرائقه؛ أي أندفع كما يندفع الماء شيئًا بعد شيء. حالًا على حال: شيئًا بعد شيء.

[١٠٢] سباك الله: جعلك سبيًا، أو أبعدك غريبًا. أحوالي: ج حول.

[١٠٣] يمين الله: (بالرفع) مبتدأ خبره محذوف؛ أي: علي. وأبرح على حذف «لا»؛ أي: لا أبرح. الأوصال: ج وصل: كل عظم يفصل من آخر.

[١٠٤] فاجر: كاذب. لناموا: لقد ناموا. صال: يصطلي النار.

[١٠٥] تنازعنا: تعامينا. أسمحت: لانت وانقادت وسهلت. هصرت: جذبت وثنيت، والباء زائدة. شماريخ: غصون رقاق، ضربها مثلًا للشعر. شبهها بالنخلة وشعرها بالسعف. ميال: ناعم.

[١٠٦] ذلت: ضد صعبت.

[١٠٧] القتام: الغبار. يروى: كاسف الظهر؛ أي: سيئ الخاطر. البال: الحال.

[١٠٨] يغط: الغطيط صوت يردد في الصدر. البكر: الفتى من الإبل. الخناق: ما يخنق به.

أيقتلني والمشرفي مُضاجعي ومسنونة زُرق كأنياب أغوال[١٠٩]
وليس بذي رمح فيطعنني به وليس بذي سيف وليس بنبَّال[١١٠]
أيقتلني أني شَغَفْتُ فؤادها كما شغف المهنوءةَ الرجل الطالي[١١١]
وقد علمت سلمى وإن كان بعلها بأن الفتى يهذي وليس بفعال[١١٢]
وماذا عليه أن ذكرت أوانسًا كغزلان رمل في محاريب أقوال[١١٣]
وبيت عذارى يوم دجن ولجته يطُفْنَ بحُبَّاء المرافق مكسال[١١٤]
سباط البنان والعرانين والقنا لطاف الخصور في تمام وإكمال[١١٥]
نواعم يُتبِعن الهوى سبل الردى يقلن لأهل الحلم ضُلٌّ بتَضْلال[١١٦]

---

[١٠٩] زرق: يقال زرق لصفائها ممددة. الأغوال: الشياطين، أراد بها التهويل.

[١١٠] النبال: صانع النبل، والمراد نابل له نبل، وفي السيوطي: الرامي بالنبل.

[١١١] شغفت: بلغ حبي شغاف قلبها؛ أي حجابه، هكذا روي بالغين المعجمة، والأكثر يروونه «شعفت» بالعين المهملة، وفي أمالي القالي:

أيقتلني وقد شعفت فؤادها كما شعف المهنوءة الرجل الطالي

وفي اللسان: «ليقتلني وقد شعفت …» والشعف: إحراق القلب مع لذة يجدها، كما أن البعير إذا هنئ بالقطران يجد له لذة في حرقه، فامرؤ القيس يقول: أحرقت فؤادها بحبي كما أحرق الطالي هذه المهنوءة. ففؤادها طائر من لذة الهناء؛ لأن المهنوءة تجد للهناء لذة مع حرقه، وقال في اللسان: «الشعف: الذعر. والشعف: شعف الدابة حين تذعر، ثم نقلته العرب من الدواب إلى الناس، وأنشد هذا البيت:

لتقتلني وقد شعفت فؤادها …

فالشعف الأول من الحب والثاني من الذعر. المهنوءة: المطلية بالهناء: القطران.

[١١٢] يهذي: يتكلم بكلام غير معقول.

[١١٣] المحراب: الغرفة. أقوال: أقيال؛ دون الملوك.

[١١٤] الدجن: الغيم. الجباء: الغائبة عظم المرافق من كثرة لحمها. مكسال: ليست بوثابة في قيامها.

[١١٥] سباط: طوال. العرانين: الأنوف. القنا: القامات. إكمال: تمام أرداف وإكمال صدور.

[١١٦] ضل: إذا هَوِينَ شيئًا تبعنه وإن يردين فيها ويدعين على أهل الحلم بالضلال، ويقال بالباطن: ضل بتضلال.

صرفت الهوى عنهن من خشية الردى ولست بمقلي الخلال ولا قال[117]

وبعد أن سما إليها بعدما نام أهلها، وصار معها إلى الحسنى، وشغف قلبها؛ لم يثبت على مودتها فقد قال:

غلِقْنَ بِرَهْن من حبيب به ادعت سليمى فأمسى حبلها قد تبترا[118]
وكان لها في سالف الدهر خُلة يسارق بالطرف الخِباء المسترا[119]

وكان امرؤ القيس، على جمال صورته، مفرَّكًا، تبغضه النساء، ولا يحظى عندهن، فلما هرب من المنذر بن ماء السماء، صار إلى جبلي طيء فأجاروه، فتزوج امرأة منهم يقال لها أم جندب، فلما بات عندها قامت في بعض الليل فقالت: أصبحت يا خير الفتيان! فقم. فلم يقم، فكررت عليه فقام، فإذا الليل باقٍ عليه أكثره، فقال لها: ما حملك على ما فعلت؟ فسكتت، فألح عليها وقال: لتخبريني. قالت: كرهتك! قال: ولمَ؟ قالت: لأنك ثقيل الصدر، خفيف العجز، سريع الإراقة، بطيء الإفاقة.[120] فعرف من نفسه صدق قولها، فسكت عنها، فلما أصبح أتاه علقمة بن عبدة — من زيد مناة بن تميم من نزار — وهو في خيمته، وخلفه أم جندب، فتذاكرا الشعر، وادعاه كل واحد منهما على صاحبه، فقال علقمة: قل شعرًا تمدح به فرسك والصيد، وأقول في مثل ذلك، وهذه الحكم بيني وبينك، فقال امرؤ القيس:

خليليَّ! مُرَّا بي على أم جندب لنقضي لبانات الفؤاد المعذَّب[121]
فإنكما إن تنظرانيَ ساعة من الدهر تنفعْني لدى أم جندب[122]

---

[117] الردى: الفضيحة والهلاك. الخلال: المخالة والمصادقة. قالٍ: باغض.

[118] غلقن: غلق الرهن: لم يوجد له فكاك. تبترا: تقطَّع.

[119] خلة: خليل. يسارق: يختلس. المسترا: كثير الاستتار.

[120] وسأل أخرى: ما يكره النساء مني؟ فقالت: يكرهن منك أنك إذا عرقت فحت بريح كلب. فقال: أنت صدقتني، إن أهلي أرضعوني لبن كلب. ولم يصبر عليه إلا امرأته من كندة، وكان أكثر ولده منها.

[121] اللبانة: الحاجة، ويروى: لنقضي حاجات.

[122] تنظراني: تنتظراني، ويروى تنظراني: تؤخراني.

ألم تـريـانـي كـلـمـا جـئـت طـارقًـا   وجدت بها طيبًا وإن لم تطيَّب؟[١٢٣]
عـقـيـلـة أتـراب لـهـا لا دمـيـمـة   ولا ذات خُلْق إن تأملت جَأْنب[١٢٤]
ألا ليت شعري كيف حادث وصلها   وكيف تراعى وصلة المتغيب؟[١٢٥]
أقـامـت عـلـى مـا بـيـنـنـا من مـودة   أميمة أم صارت لقول المخبِّب؟[١٢٦]
فـإن تـنـأ عـنـهـا حـقـبـة لا تـلاقـهـا   فـإنك مـمـا أحـدثـت بـالـمـجـرَّب[١٢٧]

---

[١٢٣] طارقًا: الطروق الإتيان ليلًا. لقيت امرأة مدينية يقال لها «تطام» صاحبة عبد الرحمن بن ملجم بن ملجم المرادي كثيرًا، فأنشدها قوله في عزة بعد حوار طويل بينهما:

فما روضة بالحزن طيبة الثرى   يمج الندى جثجاثها وعرارها
بأطيب من أردان عزة موهنًا   وقد أوقدت بالمندل الرطب نارها

(الجثجاث: ريحانة برية طيبة الريح، العرار: البهار البري، وهو النرجس البري.)
(المندل: العود.)

فقالت: بالله ما رأيت شاعرًا قط أنقص عقلًا ولا أضعف وصفًا منك، فض الله فاك! أرأيت لو أن زنجية بخرت أردانها بالمندل الرطب أما كانت تطيب، ألا قلت كما قال امرؤ القيس:

ألم ترياني كلما جئت طارقًا   وجدت بها طيبًا وإن لم تطيب

فقال: «الحق والله خير ما قيل، هو والله أنعت لصاحبته مني.» وقيل إنه خرج وهو يقول:

الحق أبلج لا يخيل سبيله   والحق يعرفه ذوو الألباب

(لا يخيل: لا يشبه.)

[١٢٤] عقيلة: كريمة. أتراب: ج ترب؛ وهو اللدة؛ وهو من يولد مع الشخص في زمن واحد. دميمة: قصيرة، ويروى ذميمة. الجأنب: القصير. والجانب: المجتنَب المحقور.

[١٢٥] حادث: حديث جديد. المتغيب: الذي تغيب عنها.

[١٢٦] المخبب: المفسد. والتخبيب: إفساد الرجل عبدًا أو أمة لغيره. وخبب على فلان صديقه: أفسده عليه.

[١٢٧] حقبة: مدة من الدهر. على المجرَّب: أي التجربة؛ أي بحيث جربت، وقيل بالمجرِّب فالمعنى بالمجرب، والباء بمعنى الكاف، وقيل زائدة في خبر «إن».

وقالت: متى يبخل عليك ويعتلل   يسؤْك وإن يكشف غرامك تدرب[١٢٨]

ثم وصف فرسه والصيد، وكان من قوله:

فللساق ألهوب وللسوط درة   وللزجر منه وقع أهوج منعب[١٢٩]

فلما فرغ من قوله، قال علقمة قصيدة مطلعها:

ذهبت من الهجران في كل مذهب   ولم يك حقًّا كل هذا التجنب

وكان من قوله في وصف الفرس:

فأقبل يهوي ثانيًا من عنانه   يمر كمر الرائح المتحلِّب[١٣٠]

فتحاكما إليها، فقالت: علقمة أشعر منك؛ لأنك ضربت فرسك بسوطك وامتريته بساقك، وزجرته بصوتك، وأدرك فرس علقمة الصيد ثانيًا من عنانه.

فغضب امرؤ القيس، وقال: ليس كما قلت، ولكنك هويته، فطلقها وتزوجها علقمة، وبهذا سمي «علقمة الفحل».

وأحب ابنة «عفزر»[١٣١] و«أم هاشم» و«بسباسة ابنة يشكر»، وقد كان لا يرى شيئًا يشفي من الأولى، ودعا على نفسه بالويل إن لم تكن الثانيتان قريبتين منه.

نشيمُ بروقَ المزن أين مصابه   ولا شيء يشفي منك يا ابنة عفزرا[١٣٢]

---

[١٢٨] يعتلل: يعتذر. الدربة: العادة؛ درِب بالشيء يدرَب: اعتاده. ومعنى أن يكشف غرامك: إن أعطيت ما تريد تعودت، وإن منعت ساءك. والغرام: الحب والعشق والعذاب اللازم.

[١٢٩] ألهوب: شدة جري. درة: رفعة. أدمن: در اللبن. أهوج: أحمق. منعب: يستعين بنعبه، أو أحمق مصون، ويروى: «وقع أخرج.»

[١٣٠] الثور الوحشي إذا مطر. الرائح: السحاب. تحلب: سال وقطر.

[١٣١] «عفزر»: رجل من أهل الحيرة له ابنة مغنية مشهورة، وهي هذه التي شبب بها امرؤ القيس.

[١٣٢] شام البرق: نظر إليه أين يقصد وأين يمطر. مصابه: مكان صوبه؛ أي انصبابه.

من القاصرات الطرف لو دبَّ مُحْوِل من الذر فوق الإتب منها لأثَّرا[١٣٣]
له الويل إن أمسى ولا أم هاشم قريب ولا البسباسة ابنة يشكرا

وعلق بهند والرباب وفرتَنَى، ووقف على أطلالها فشجته، وذكر فيها ليالي كان يدعوه الهوى فيجيبه، وما كان يدفع به كروبه، فقال:

لمن طلل أبصرته فشجاني كخط الزبور في العسيب اليماني[١٣٤]
ديار لهند والرباب وفرتنى ليالينا بالنعف من بدلان[١٣٥]
ليالي يدعوني الهوى فأجيبه وأعين من أهوى إليَّ روان[١٣٦]
وإن أمس مكروبًا فيا رب بُهمة كشفت إذا ما اسودَّ وجه الجبان[١٣٧]
وإن أمس مكروبًا فيا رب قينة منعمة أعملتها بكران[١٣٨]
لها مزهر يعلو الخميس بصوته أجش إذا ما حركته اليدان[١٣٩]

وأحب امرأة من نبهان — ونبهان من طيء — حين كان نازلًا فيهم، فبكى لذكرها، وجمع جميع أوصاف الدمع من كثرة وقلة، يشير إلى أنه كان في أوقات مختلفة، فقال:

أمن ذكر نبهانية حل أهلها بجزع الملا عيناك تبتدران[١٤٠]
فدمعهما سحٌّ وسكبٌ وديمة ورشٌّ وتوْكافٌ وتنهملان

[١٣٣] الإتب: قميص غير مخيط الجانبين.
[١٣٤] العسيب: سعف النخل كانوا يكتبون فيه صكوكهم وعهودهم.
[١٣٥] النعف: المرتفع. بدلان: جبل.
[١٣٦] روان: مديمات النظر.
[١٣٧] بهمة: الأمر المصمت لا يدرى كيف يحتال له والشجاع كذلك.
[١٣٨] الكران: العود.
[١٣٩] المزهر: العود. أجش: فيه بحة.
[١٤٠] يجزع: منعطف الوادي، الملا: ما استوى من الأرض تبتدران: تستبقان.

كـأنـهـمـا مَـزَادتـا مـتـعـجِّـل　　　فرِيَّانِ لما يُسْلَقَا بدِهان[١٤١]

وأحب امرأة تدعى «ماوية»، وكان في شك من حبها إياه فقال لها:

أماويَّ! هل لي عندكم من مُعَرَّس　　　أم الصرم تختارين بالوصل نيأَسِ[١٤٢]
أبـيـنـي لـنـا إن الـصـريـمـة راحـة　　　من الشك ذي المخلوجة المتلبِّسِ[١٤٣]

ولقد وقف على ديارها، فاستعجمت عن جوابه، فتحسر لذلك وقال:

يــا دار مــاويَّــة بــالــحــائــل　　　فالسهب فالخبتين من عاقل[١٤٤]
صَـمَّ صـداهـا وعـفـا رسـمـهـا　　　واستعجمت عن منطق السائل[١٤٥]

وأحب «لميس» فيمن أحب، وغشي ديارها، فكان من أسفه على سكانها كالسكران من خمرة عانة، وبكى عليها تأسيًا بابن حذام، قال:

لـمـن الـديـار غـشـيـتـهـا بـسـحـام　　　فعمايتين فهَضْب ذي أقدام[١٤٦]
فصفا الأطيط فصاختين فغاضر　　　تـمـشـي الـنـعـاج بـهـا مـع الآرام
دار لـهـنـد والـربـاب وفـرتـنـى　　　ولـمـيـس قـبـل حـوادث الأيـام[١٤٧]
عوجا على الطلل المحيل لأننا　　　نبكي الديار كما بكى ابن حذام[١٤٨]

---

[١٤١] مزادتا: قربتا. فريان: مضربتان فرع من عملهما. يسلقا: يلطخا ويدهنا. بدهان: شبه ما يقطر من عينه بما يخرج من مزادتين جديدتين لم تسند ثقوب خرزهما.

[١٤٢] معرس: منزل في الليل للمسافر. الصرم: القطع. نيأس: مجزوم بجواب الاستفهام.

[١٤٣] الصريمة: القطيعة. ذي المخلوجة: الأمر يتخالج فيه ولا يجتمع فيه على شيء.

[١٤٤] عاقل: موضع بطريق مكة.

[١٤٥] صم صداها: هلكت.

[١٤٦] غشيتها: قصدتها. ذي أقدام: جبل.

[١٤٧] أي قبل أن تغيرها الأيام وقبل أن يتصرف أهلها فتصيبهم حوادث الأيام.

[١٤٨] المحيل: الذي أتى عليه حول. لأننا: لعلنا. ابن حذام: يروى حزام حمام.

أوما ترى أظعانهن بواكرًا كالنخل من شوكان حين صرام[١٤٩]
حُور تعلل بالعبير جلودها بيض الوجوه نواعم الأجسام[١٥٠]
فظللت في دِمَن الديار كأنني نشوان باكره صبوح مدام
أُنُفٌ كَلَوْن دم الغزال معتَّقٌ من خمر عانة أو كروم شِبام[١٥١]
وكأن شاربها أصاب لسانه موم يخالط جسمه بسقام[١٥٢]

الخلاصة

إذا أنعمنا النظر فيما قاله امرؤ القيس وفيما قيل فيه، يتضح لنا أمور كثيرة منها:

(١) أن امرأ القيس كان شغفًا بالنساء، وكان طِلْب نساء، وتبع نساء، وزِيرَ نساء، وحِدْث نساء.

(٢) أنه كان غير صادق في محبته؛ ولذلك لم يقتصر على خُلة واحدة، ولم تدم محبته لواحدة، وإنما كان حبه متصلًا بلذته وشهوته، فكان لا يصبر على طعام واحد، بل يتنقل من حب واحدة إلى أخرى، كالنحلة تلمُّ بالزهرة حتى إذا قضت وطرها منها انتقلت إلى غيرها، وأن الذكريات كانت تهيجه وتثير كوامن نفسه، فيشبب بجماعة من حبِيباته تارة، وبواحدة منهن أخرى، وعلى بعده من الحب الصادق يتراءى في خلال أبياته كلمات تُوهم أنه صادق الحب، وأن بين جنبيه نفسًا تتَّقد فيها جذوة الصبابة واللوعة، وتفيض بعواطف الحب الخالص، وهذا أثر من آثار قدرته على التصرف بفنون القول حتى يجعل الباطل في صورة الحق.

(٣) أن امرأ القيس استطاع أن يأتي في باب الغزل ما لا يستطيع غيره أن يأتي به: من رقة الألفاظ، ورشاقة الأسلوب، وجمال الديباجة، وشرف المعنى، وسعة الخيال، ودقة التشبيه، وروعة الكناية، وما شاكل ذلك من المحسنات.

---

[١٤٩] شوكان: موضع. صرام: قطاف. شبه الهوادج بما عليها من الوشي بنخل شوكان حين صرامه.

[١٥٠] تعلل: تطبب مرة بعد أخرى، وفي نسخةٍ تغللن العبير: تطيبن.

[١٥١] أُنُفٌ: يقال كأس أنف؛ أي لم يشرب، قيل وشبهه بدم الغزال لأنه أشد الدماء حمرة. عانة: قرية على الفرات ينسب إليها الخمر. شِبام: موضع بالشام، وجبل باليمن، وبلد لحمير، وبلد في حضرموت.

[١٥٢] موم: برسام؛ علة يُهذى فيها.

(٤) أنه سلك في الغزل أسلوبًا قصصيًّا فتح به هذا الباب، ومهَّد به السبيل لكل من سلكه من بعده، كعمر بن أبي ربيعة.

فهو يقول في معلقة إنه دخل الخدر على عنيزة، ودعت عليه بالويلات وقالت له: انزل عقرت بعيري، فلم يصغ إلى قولها، وقال لها: سيري وأرخي زمامه، وبين لها أنه طوق أمثالها من الحسان ما بين حبلى ومرضع، ثم ذكر ما دار بينه وبينها من الحوار اللطيف، ثم أفاض في بيان رحلته إليها، فذكر أنه تجاوز إليها معشرًا يحرصون على قتله، فأتاها وقد نضت ثيابها للنوم، فأنكرت ذلك عليه، ثم خرج بها، وكانت تعفي آثار أقدامها بذيلها، حتى انتهيا إلى مكان منخفض، فهصر بفودي رأسها، ونال من جناها المعلل، ثم أخذ يصف أعضاها وصْف ماهر لبق.

ومن تأمل هذه الأبيات تَمثَّل أمام عينيه امرؤ القيس وفاطمة أو عنيزة، وخيل إليه أنه يسمع ما كانا يقولان، ويرى ما كانا يفعلان. وفي المعلقة أيضًا نمط آخر من هذا القبيل، قَصَّ فيه علينا ما وقع له يوم عقر الناقة، فذكر أنه عقر ناقته ليطعم العذارى، فلما شبعن جعلن يرتمين باللحم والشحم.

وفيها مثال آخر أتى عليه بعد أن وصف الجواد بما وصفه به، فذكر أن سربًا من بقر الوحش عرضن له فأرتعنَ، فأدبرنَ فرارًا منه، فألحقه الجواد بالسابقات منها، وترك المتأخرات في صرة، وأن الجواد عادى بين ثور ونعجة، ولم يتعب. ثم ذكر أن الطهاة نوعوا الطعام من لحم الصيد ما بين شواء وقدير.

وفي قصيدته البائية نمط لا يقل في البراعة والجودة عما في المعلقة، إذا لم يزِد عليه فيهما؛ وذلك أنه وصف الجواد وصفًا بديعًا، ثم ذكر أن شدة جريه أخرج الفأر من أنفاقهن، وأنه عادى بين ثور ونعجة، وكان لثيران الرمل غماغم،[١٥٣] وكان يطعنها بالرمح، فهي بين ساقط على جبينه ومتقٍّ بقرنه، فقال لفتيانه: انزلوا. فنزلوا، ونصبوا ثوبًا كالخيمة، فكانت أعمدته من الرماح، وأوتاده من الدروع، وأطنابه حبال النوق وأعلاه ثوب أبيض؛ فدخلوه وسندوا ظهورهم إلى رحال أو سيوف حيرية، فلما أكلوا مشُّوا أيديَهم بأعراف الجياد، وطرحوا عيون الوحش الشبيهة بالجزع حول الأخبية، ثم راحوا يحملون الصيد في أعدالهم وحقائبهم.

---

[١٥٣] أصوات تتردد في حلوقها.

وفي قصيدته الرائية يقص علينا أنه خرج إلى الصيد ومعه القانصان: الرجل والفرس، وكان يتبعهم كلب ألوف نشيط، فرأى ثورًا فتبعه حتى أدركه وأنشب أظفاره في نَسَاه، فكرَّ إليه الثور بقرنه فأدخله فيه، فجعل يستدير ويرنح كأنه حمار أصابته النعرة في أنفه.

ولعل أروع شيء له في هذا الباب ما في قصيدته اللامية:

ألا عم صباحًا أيها الطلل البالي!

فهو يقول فيها إنه سما إليها بعدما نام أهلها، فدعت عليه، وأنكر عمله؛ لأن السمَّار حولها، فأقسم أن لا يبرح قاعدًا عندها ولو قطعوا رأسه وأوصاله، ثم أقسم أن الحي ناموا، ثم تنازعا الحديث، فلانت وانقادت له بعد تمردها وعصيانها، ثم هصر بفوديها وصارا إلى الحسنى ورق كلامها.

فأصبح محبوبًا لديها قد شغف فؤادها، وأصبح بعلها سيئ الظن، كاسف البال، يغط غطيط البكر المشدود خناقه، لغيظه وحنقه، ويود أن يقتله، ولكنه لم يستطع ذلك؛ لأنه كان أعزل ليس بذي رمح ولا سيف ولا نبال، وكان مع امرئ القيس سيف مشرفي ونصال محددة.

ثم ذكر في هذه القصيدة أنه ولج في يوم غيم بيت عذارى فرآهن يطفن بفتاة كثيرة اللحم كسول.

ثم انتقل إلى وصف الجواد وذكر أنه ذعر به سربًا أبيض الجلود موشى الأكارع، فاتقى ذلك السرب بثور مُسنٍّ، فاصطاد الجواد ثورًا ونعجة في طلق واحد، وكان لسرعة لحاقه الصيد كالعقاب التي تصطاد ذكور الأرانب، وتختفي الثعالب خوفًا منها، حتى كثر الصيد لديها، وكانت قلوب الطير حول وكرها كالعناب والحشف.

ويتضح أيضًا أن امرأ القيس كان مع ولعه بالنساء، مولعًا بالخمر والقيان، وأنه كان مفركًا، ومع ذلك يحب أن تحبه النساء، ويكون له حظوة عندهن ويتمدح بذلك فيقول:

ويا رب يوم قد أروح مُرَجَّلًا حبيبًا إلى البيض الكواعب أملسا[١٥٤]

---

[١٥٤] مرجلًا: رَجَّل شعره سرحه. الكواعب: ج كاعب؛ وهي التي نهد ثديها وتكعب. أملسا: الملاسة ضد الخشونة.

يرعن إلى صوتي إذا ما سمعنه   كما ترعوي عيط إلى صوت أعيسا[155]

ويقول في الأبيات المتقدمة:

صرفت الهوى عنهن من خشية الردى   ولست بمقليِّ الخلال ولا قالِ

ليالَيَ يدعونني الهوى فأجيبه   وأعيُن من أهوى إليَّ روان

وكان يرى لذة الحياة في الخمر والنساء فيحض على التمتع بهما إذ يقول:

تمتع من الدنيا فإنك فانِ   من النشوات والنساء الحسان
من البيض كالآرام والأُدْم كالدمى   حواصنها والمبرقات روان[156]

(٢) نظره في المرأة

وكان امرؤ القيس، على شدة حبه للمرأة وعلو منزلتها من نفسه، لا يراها أهلًا للوفاء والحب الصادق للرجل، وإنما تحبه ما دام شابًّا كثير المال؛ لأن في ذلك بلوغ أمنيتها وقضاء لذتها، فإذا فقد الرجل ذلك فليس له نصيب من محبتها، وهذا معنى قوله:

أراهن لا يحببن من قل ماله   ولا من رأين الشيب فيه وقوَّسا

ولعل علقمة أخذ هذا البيت وطبع على غراره في قوله:

إذا شاب رأس المرء أو قل ماله   فليس له من ودهن نصيب

[155] عيط: ج عيطاء: ناقة لا تحمل. أعيسا: جمل أبيض إلى الحمرة.
[156] الحاصن: العفيفة. المبرقات: اللاتي يبرقن حليهن؛ أي يبرزنه للرجال. روان: مديمات النظر.

ولاعتقاده هذا في المرأة أنكر على بسباسة ادعاءها أنه كبر، وأنه لا يحسن اللهو حيث يقول:

لقد زعمت بسباسة اليوم أنني كبرت وأن لا يحسن اللهو أمثالي
كذبت! لقد أصبي على المرء عرسه وأمنع عرسي أن يُزنَّ بها الخالي

ولعل امرأ القيس حكم على المرأة بما يكنه صدره، فإنه لا يحب المرأة إلا لحاجة في نفسه؛ ولذلك كان لا يصْدق في حب، ولا يرعى لخليل حق الخلة — كما أسلفنا — فانظر إلى قوله:

وإن كنت قد أزمعت صرمي فأجملي!

وقوله:

فسلِّي ثيابي من ثيابك تنسل

وقوله:

وخليلٍ قد أفارقه ثم لا أبكي على أثره

وقوله:

أأسماء أمسى ودها قد تغيرا سنبدل إن أبدلت بالود آخرا

ونحو ذلك ... تتمثل لك نفس تحمل بين جوانحها قلبًا لا يعرف للحب معنًى إلا التمتع باللذة، ولا تشعر بحسن الوفاء للخلة والمودة.

(٣) الخمر

وأما الخمرة فهو يراها المثل الأعلى في اللذة، فيشبه بها ريق المحبوبة، ويبالغ في وصفها، ويمعن في شربها حتى يفقد عقله ويرى الفر والجون أشقر إذ يقول:

كأن المدام وصوب الغمام   وريح الخزامى ونشر القُطُر
يُعل بها برد أنيابها   إذا طرَّب الطائر المستحِرْ

وقد وصفها ووصف أثرها في الشارب في أبيات تقدمت.

أُنُفٌ كَلَوْن دم الغزال معتَّقٌ   من خمر عانة أو كروم شبام

... إلخ.

إذا ذقت فاها قلت طعم مدامة   معتقة مما تجيء به التجر

ويقول:

ونشرب حتى نحسب الخيل حولنا   نِقادًا وحتى نحسب الجَون أشقرا

ويعد شربها مأثرة فيضمها إلى مفاخره، إذ يقول:

كأنيَ لم أركب جوادًا للذة   ولم أتبطن كاعبًا ذات خلخال
ولم أسبأ الزق الرويَّ ولم أقل   لخيليَ كرِّي كرَّة بعد إجفال

فكل ما يتمدح به امرؤ القيس: ركوب الخيل، وشرب الخمر، وقربان النساء، حتى إنه ليعد غشيان منازلهن ودخول الخدور عليهن مفخرة ليس وراءها غاية، فقد دخل الخدر على عنيزة، وولج على عذارى بيتهن في يوم دَجْن ...

وأما ركوب الخيل للحرب والصيد، فإنما استفاده من كثرة والأسفار والحروب وإدمان ركوب الخيل والإبل، وقطع الفلوات.

(٤) الوصف

ومن الأغراض التي نظم فيها الشعر الوصفُ، فإنه شغل جزءًا عظيمًا من شعره، وبرع في ضروب منه براعة بذَّ فيها كل من تقدمه، وأبرَّ على من تأخر عنه؛ وصف الخيل والإبل والدروع، والفلوات، والجبال، والوحش، والأودية، والبرق، والسحاب، والمطر، والليل.

وأظهرُ موطن تنجلي فيه براعته وصفُ الخيل، حتى قيل: «أشعر الناس امرؤ القيس إذا ركب.» وفي شعره طائفة تدل على تفوقه في هذا الباب، منها قوله يصف ذهابه إلى الصيد والكلب والصيد والناقة من قصيدة مطلعها:

أَحارِ بن عمرو كأني خمر　　　ويعدو على المرء ما يأتمر[١٥٧]

ذكر فيها أنه لا يفر، وأن تميم بن مر وكندة حوله إذا ركبوا تحرقت الأرض واليوم قرٌّ.[١٥٨] ثم ذكر أن «هرًّا» أصابت فؤاده بسهم، ثم شبب بها ونعتها، ثم دنا منها فتسداها، ثم قال:

وَقَدْ أَغْتَدِي وَمَعي القَانِصَان　　　وَكُلٌّ بِمَرْبَأَةٍ مُقْتَفِر[١٥٩]
فَيُدْرِكُنَا فَغِمٌ دَاجِن　　　سَمِيعٌ بَصِيرٌ طَلُوبٌ نَكِر[١٦٠]
أَلَصُّ الضُّرُوسِ حَبيُّ الضلُوعِ　　　تَبُوعٌ طَلُوبٌ نَشِيطٌ أَشِرْ[١٦١]
فأَنْشَبَ أَظْفَارَهُ في النَّسَا　　　فَقُلْتُ هبِلْتَ! ألا تَنتَصِرْ؟[١٦٢]

---

[١٥٧] خمر: خامره داء أو وجع. يعدو: يصيبه. يأتمر: يهم به ويعزم عليه.

[١٥٨] قر: بارد.

[١٥٩] الصائدان: أراد بهما الرجل وفرس. مربأة: مكان مرتفع؛ مقتفر: متتبع آثار الوحش.

[١٦٠] فغم: حريص، يريد به كلبًا. داجن: ألوف. طلوب: إذا طلب أدرك. نكر: منكر عالم داه أو كريه الصورة.

[١٦١] ألص: التصقت أسنانه بعضها إلى بعض. حبي: منتفخ، ويروى: «حنيُّ الضلوع»؛ أي محنيُّها. أِشر: مرح.

[١٦٢] النسا: عرق في الفخذ يأخذ إلى القوائم. هَبلت: ثَكلت غيرك أو هُبلت: ثُكلت، والخطاب للفارس. تنتصر: تقصد الثور، ويجوز أن يراد بالمخاطب الثور على جهة الهزء.

فَـكَـرَّ إلَـيْـهِ بِـمِـبْـراتِـهِ　　كمَا خَلَّ ظَهْرَ اللِّسانِ المُجِر[١٦٣]
فَـظَـل يُـرَنِّـحُ فـي غَـيْـطَـل　　كمَا يَسْتَديرُ الحِمَارُ النَّعِر[١٦٤]

ثم انتقل إلى وصف الفرس فقال:

وأركب في الروع خَيفانة　　كسا وجهَها سعفٌ منتشر[١٦٥]
لها حافز مثل قعب الوليـ　　ـد رُكِّب فيه وظيف عجر[١٦٦]
لها ثُنَنٌ كخوافي العقا　　ب سود يفئن إذا تزبئر[١٦٧]
وساقان كعباهما أصمعا　　ن لحم حَماتيهما منبتر[١٦٨]
لها كَفَلٌ كصفاة المسيـ　　ـل أبرز عنها جُحافٌ مُضر[١٦٩]
لها ذنب مثل ذيل العروس　　تسد بها فرجها من دبر[١٧٠]

[١٦٣] بميراته: بقرنه. المجر: الخل أن يفرز في منخر الفصيل خلال يخرج من أرنبته، والإجرار أن يشق طرف لسانه. يقول: كر الثور على الكلب بقرنه فخله كما خل ظهر اللسان المجر.

[١٦٤] يرنح: يستدير. غيطل: شجر ملتف. الحمار النعر: الذي أصابته في أنفه النُّعَرة؛ وهي ذبابة خضراء تدخل أنفه فيزوي لذلك ويستدير، ويجوز أن تكون هذه الصفة في الكلب.

[١٦٥] الخيفانة: الجرادة انسلخت عن ثوبها الأصفر والأسود وصارت إلى الحمرة، والفرس الطويلة القوائم الضامرة والخفيفة، شبهها بالجرادة. سعف: شبَّه ناصيتها بسعف النخلة، وقد عيب عليه ذلك. منتشر: متفرق.

[١٦٦] قعب: قدح، يصفه بالصغر. وظيف: ما بين الرجل إلى العرقوب. عجز: صلب شديد أو غليظ.

[١٦٧] ثنن: ج ثُنَّة؛ وهي شعر خلف الرسغ. يفئن: يرجعن إلى مواضعهن، ويروى: «يفين»؛ أي يكثرن. تزبئر: تنتفش.

[١٦٨] كعباهما: عرقوباهما. أصمعان: محددان أو صغيران. حماتيهما: الحماة لحم الساق. منبتر: بائن من الساق لصلابته.

[١٦٩] كفل: عجز، ويروى: «لها عجز.» الصفاة: الصخرة. جحاف: سيل يذهب بكل شيء ويقشره. مضر: دانٍ؛ يقال أضر السيل من الحائط؛ أي دنا، أو مضر بمعنى ضار.

[١٧٠] ذيل: طويل. فرجها: ما بين قوائمها. دبر: من خلف؛ مؤخر.

لـهـا مـتـنـتـان خـظـاتـا كـمـا أكبَّ عـلـى سـاعـديـه الـنـمـر[١٧١]
لـهـا عـذر كـقـرون الـنـسـا ء ركِّبن في يوم ريح وَصِر[١٧٢]
وسـالـفـة كـسَـحـوق الـلُّـبـا ن أضرم فيها الغويُّ السُّعر[١٧٣]
لـهـا جـبـهـة كـسـراة الـمـجـنِّ حـذَّقـه الـصـانـع الـمـقـتـدر[١٧٤]
لـهـا مـنـخـر كـوجـار الـسـبـاع فـمـنـه تـريـح إذا تـنـبـهـر[١٧٥]
وعـيـن لـهـا حَـدْرَةٌ بَـدْرَةٌ فشقَّت مآقيهما من أُخُر[١٧٦]
إذا أقـبـلـتْ قـلـت دُبَّـاءةٌ من الخدر مغموسة في الغُدُر[١٧٧]
وإن أدبـرت قـلـت أُثْـفـيَّـة مـلـمـلـمـة لـيـس فـيـهـا أُثُـر[١٧٨]
وإن أعـرضـت قـلـت سُـرعـوفـة لـهـا ذنـب خِـلـفـهـا مُـسْـبَـطِـر[١٧٩]

---

[١٧١] متنتان: المتنةُ المتن، وقد عيب عليه وصف المتن بالغلظ. خظاتا: خظا لحمه خظوًّا وخظِي خظًى: اكتنز. والخظاة: المكتنزة من كل شيء، قيل أصله خظتا، ولما حركت التاء ردت الألف، وقيل خظاتان، فحذفت النون للتخفيف، وقيل إن لغة طيء يقلبون الياء ألفًا فيقولون في «رضيَتا»: «رضاتا»، فعلق ذلك امرؤ القيس منهم لمجاورته فيهم. النمر: أي كساعدي النمر البارك، أو كأن نمرًا باركًا فوق متنها.

[١٧٢] عذر: شعرات قدام القربوس، وهو آخر العرف. والعذرة: الناصية والعرف، جمعها عذر. وصر: بردًا وشدته.

[١٧٣] السالفة: صفحة العنق، والمراد هنا العنق. السحوق: الطويلة. اللبان: شجر الصنوبر، والأولى «الليان» ج. لينة؛ وهي النخلة، وكذا رواه السيوطي. السعر: ج سعير شدة الوقود، أراد أنه أشقر أو أن حفيفها إذا جرت كحفيف النار.

[١٧٤] السراة: الظهر. المجن: الترس، يمدحها بسعة الجبهة. حذقه: صنعه بحذق ومهر فيه.

[١٧٥] الوجار: الجحر. تريح: تستريح أو تتنفس. تنبهر: يتتابع نفسها من الإعياء، وقيل بضيق نفسها.

[١٧٦] حدرة: واسعة أو مكتنزة. بدرة: يبادر نظرها نظر الخيل، أو تامة كالبدر. المؤق: طرف العين الذي يلي الأنف، وقد أفرد العين وأعاد عليها ضمير المثنى. من أخر: من خلف؛ أي من آخرهما يريد انفتحت فكأنها اتسعت من مؤخر العين.

[١٧٧] دباءة قرعة، يريد أنها ملساء شبهها بالدباءة؛ لأن أولها رقيق وآخرها غليظ، من الخدر في نسخة «من الخضر». مغموسة؛ أي ريا مغموسة في غدير من النبت يكنها من الشمس. والغُدُر: ج غدير. والغُدَر: ج غدرة؛ وهي ما أغدرته؛ أي تركت من شيء كالغدر.

[١٧٨] أثفية: صخرة مدورة. والأثفية: الحجر توضع عليه القدر. ململمة: مجتمعة. الأثر: أثر الجراح يبقى بعد البرء.

[١٧٩] السرعوفة: المرأة الناعمة الطويلة والجرادة. مسبطر: ممتد.

وللسوط فيها مجال كما تَنَزَّل ذو بَرَد منهمر[١٨٠]
لها وَثَبَاتٌ كوثب الظباء فواد خِطاء وواد مطر[١٨١]
وتعدو كعدو نُجاة الظبا ء أخطأها الحاذف المقتدر[١٨٢]

وقال في معلقته يصف جواده:

وقد أغتدي والطير في وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل[١٨٣]
مكر مفر مقبل مدبر معًا كجلمود صخر حطه السيل من عل[١٨٤]
كميت يزل اللبد عن حال متنه كما زلَّت الصفواء بالمتنزِّل[١٨٥]
على العقْب جيَّاش كأن اهتزامه إذا جاش فيه حَمْيُه غليُ مِرْجل[١٨٦]
مِسَحٌّ إذا ما السابحات على الونى أَثَرْنَ غبارًا بالكديد المرَكَّل[١٨٧]

---

[١٨٠] مجال: أي لها عن السوط مجال، وجولانها كسرعة البرد المنصب.

[١٨١] الوثب: القفز. الخطاء: ج خطوة — كرِكاء وركوة — أي تخطو مرة فتكف عن العدْو وتعدو مرة عدوًا يشبه المطر.

[١٨٢] نجاة: ج ناجٍ؛ أي سريع. الحاذف: يقال حذفه بالعصا: أي رماه بها.

[١٨٣] أغتدي: أذهب وقت الغداة. الوكنات: ج وكنة (مثلثة)؛ عش الطائر في جبل أو جدار، ويروى: «وَكَراتها»، ج وُكَر ج وَكْر. المنجرد: الفرس القصير الشعر أو المتقدم الماضي غير الواني. الأوابد: الوحوش، وقيدها لأنه من سرعته يلحقها فكأنه قيد لها. هيكل: ضخم.

[١٨٤] مكر مفر: صالح للكر والفر كأنه آلة لهما. الجلمود: الصلب. حطه: حدره وأنزله. من عل: من فوق.

[١٨٥] كميت: أحمر ضارب إلى السواد. يزل: يزلق. اللبد: ما يوضع تحت السرج. حال: وسط، ويروى: «حاذ» بمعنى «حال»، وهما موضع اللبد. المتن: الظهر. الصفواء: الصخرة الملساء لا ينبت فيها شيء. المتنزل: الطائر الذي ينزل على الصخرة، وقيل المتنزل السيل؛ لأنه ينزل الأشياء، وقيل هو المطر.

[١٨٦] العقب: جري بعد جري، ويروى: «على الذبل»؛ أي الضمور. جياش: يجيش في عدوه؛ يغلي كما تجيش القدر في غليانها. اهتزامه: صوته. حميه: غليه. المرجل: القدر من الحجارة والنحاس، وقيل معناه إذا حركته بعقبك جاش وكفى ذلك من السوط.

[١٨٧] مسح: يصب الجري صبًّا. السابحات: الخيل تبسط أيديها في الجري كالسابح. الوني: الفتور. أثرن: هيجن. الكديد: الموضع الغليظ. المركل: ما ركل بالأرجل؛ أي كد وضرب، يريد أن هذا الفرس

يطير الغلام الخِفُّ عن صهواته ويُلوي بأثواب العنيف المثقل[188]
دريرٍ كخُذْروف الوليد أمرَّه تتابع كفيه بخيط موصَّل[189]
له أيطلا ظبي وساقا نعامة وإرخاء سرحان وتقريب تتفل[190]
ضليع إذا استدبرتَه سدَّ فرجه بضافٍ فُويق الأرض ليس بأعزل[191]
كأن على الكتفين منه إذا انتحى مَدَاك عروس أو صلابة حنظل[192]
كأن دماء الهاديات بنحره عصارة حناء بشيب مرجَّل[193]

يصب الجري؛ أي يسرع لنشاطه حين تتعب الخيل وتركل الأرض بأيديها من التعب والفتور، ويروى: «بالكديد السموَّل» وهي الأرض السهلة التراب، وفي التبريزي: الأرض الصلبة.

[188] يَروى: يَزِل. ويُروى: يُزَل. الخف: الخفيف. والصهوات: ج صهوة؛ وهي موضع اللبد، وجَمَعَها باعتبار ما حولها، أو اعتبر كل جزء صهوة، وصهوة كل شيء أعلاه. يلوي: يرمي بها فيبعدها. العنيف: الذي ليس برفيق. المثقل: الثقيل، وقيل المراد بأثواب العنيف نفسه.

[189] درير: در الفرس عدا عدوًا شديدًا أو سهلًا. درير مستدر في عدوه. والخذروف: الخرارة التي يدورها الصبي بخيط في يديه فيسمع لها دوي. الوليد: الصبي. أمرَّه: أحكم فتله، وتتابع كفيه متابعتهما بالتخرير، ويروى: «تقلب كفيه»؛ أي تقلبهما بالخذروف، ومعنى موصل أن الصبي لعب به حتى تقطع خيطه فوصل فهو أسرع لدورانه.

[190] الأيطل: الكشح؛ وهو ما بين آخر الضلع إلى الورك. والإرخاء: جري غير شديد. السرحان: الذئب. التقريب: أن يرفع يديه معًا ويضعهما معًا. والتتفل: ولد الثعلب. شبه أيطله بأيطل الظبي لأنه طاوٍ ليس بمنفضج متسع، وساقها بساق النعامة وهي قصيرتهما لأن قصر الساق أشد لرميها بوظيفها؛ السرحان أحسن الدواب إرخاء، والتتفل أحسن الدواب تقريبًا.

[191] ضليع: قوي منتفج الجنبين، وقيل ضليع تام الخلق مجفر غليظ الألواح كثير العصب، فرجه ما بين رجليه. ضاف: سابغ. والأعزل: الذي يكون ذَنَبه مائلًا إلى جانبه. وفي تعبيره بلفظ فويق من البراعة في الصنعة ما لا يطول إليه غيره، وربما كان هذا البيت أحسن ما قيل في وصف الذَنَب.

[192] الكَتْف — كحمل وحبل: لغة في الكَتِف. انتحى: اعتمد، ويروى: «كأن سراته لدى البيت قائمًا» السراة: الظهر. المداك: الحجر الذي يسحق به. والمِدْوَك: الحجر الذي يسحق عليه. وشبهه بمداك العروس؛ لأن مداك العروس قريب العهد بالطيب. والصلاية والصلاءة: حجر يدق به الحنظل فيخرج دهنه فيبرق على الصلاءة، ويروى: «صراية حنظل.» والصراية: الحنظلة التي اصفرت فهي تبرق كأنها قد صقلت، شَبَّه ظهر الفرس بمداك العروس أو صلاءة الحنظل في الصفاء والملاسة والبريق.

[193] الهاديات: المتقدمات من كل شيء، وهنا المتقدمات من الوحش إذا لحقها طعنت فأصابت دماؤها نحره. العصارة: ما اعتصر من شيء وتحلب، والمراد هنا ما بقي من أثر الحناء. والمرجل: المسرح.

ثم استطرد إلى وصف بقر الوحش التي اصطادها على هذا الفرس فقال:

فعنَّ لنا سرب كأن نعاجه   عذارى دُوارٍ في مُلاءٍ مُذيَّل[١٩٤]
فأدبرن كالجزع المفصل بينه   بجيد معمٍّ في العشيرة مخول[١٩٥]
فألحقنا بالهاديات ودونه   جواحرها في صرَّةٍ لم تزَيَّلِ[١٩٦]
فعادى عداءً بين ثور ونعجة   دِراكًا ولم يُنضحْ بماء فيغسل[١٩٧]
وظلَّ طهاة اللَّحم من بين مُنضج   صفيفٍ شِواءٍ أوْ قديرٍ معجَّل[١٩٨]
ورُحنا يكاد الطِّرف ينفض رأسه   مَتَى ما ترقَّ العين فيه تَسَهَّلِ[١٩٩]

ويروى: «كأن دماء العاديات» (نهاية الأرب ٣–١٢٢)، ومعناه أنهم كانوا إذا أرسلوا الخيل على الصيد فسبق واحد منها خضبوا صدره بدم الصيد علامة له، واستشهدوا على ذلك بقوله: كأن دماء العاديات، وهذا من أوابد العرب.

[١٩٤] عنَّ: اعترض. السرب: القطيع من بقر الوحش. نعاجه: إناثه، ج نعجة. عذارى: ج عذراء؛ أي بكر. دوار: صنم كانوا يدورون حوله. الملاء: ج ملاءة؛ وهي الملحفة. ومذيل: سابغ له هدب أو له ذيل أسود، وهذا أشبه بالمعنى يصف بقر الوحش، وهي بيض الظهور سود القوائم.

[١٩٥] أدبرْنَ: ولَّيْنَ. الجزع: خرز فيه سواد وبياض. المفصل: الذي فصل بينه وفرق. المعم المخول: الكريمُ الأعمامِ والأخوالِ؛ أي الكريم الأبوين بصيغة الفاعل والمفعول، وإنما قال ذلك لأن الصبي إذا كان كريم الأبوين كان الجزع في قلادته أصفى وأحسن. شبَّه البقر حين تفرقها بالجزع المذكور.

[١٩٦] يروى «فألحقه» (والضمير للغلام؛ أي ألْحق الغلامُ الفرسَ، أو للفرس؛ أي ألحق الفرسُ الغلامَ). الجواحر: المتخلفات التي لم تلحق، الصرة: الشدة أو الصيحة أو الجماعة. تتزيل: تتفرق. يقول: لحق هذا الفرس أوائل الوحش فبقيت أواخرها لم تتفرق فهي خالصة له.

[١٩٧] عادى بين صيدين: طعنهما طعنتين متواليتين، العداء أن يتابع بين اثنين يصرع أحدهما على إثر الآخر في طلق واحد. دراكًا: مداركة؛ متابعة. لم ينضح: لم يعرق فيغسل؛ أي فيصير كأنه قد غسل، و«الفاء» للعطف؛ أي لم ينضح ولم يغسل.

[١٩٨] طهاة: ج طاهٍ؛ وهو الطباخ. ونضج اللحم: أدرك وأنضجه. الصفيف: الذي قد صفف وفرق على الجمر ليشوى. الشواء: اللحم المشوي. القدير: المطبوخ في القدر، وإنما جعله معجلًا لأنهم كانوا يستحسنون تعجيل الطعام إذا كان من الصيد. «أو»: بمعنى الواو، ويروى ما بين والمعنى من بين.

[١٩٩] الطِّرف: الكريم. ينفض: يحرك من المرح والنشاط. وترق: تنظر إلى أعلاه. تسهل: تنظر إلى أسفله؛ يريد أن هذا الجواد بعد أن اصطاد عليه كان في العشي يحرك رأسه من نشاطه لأنه لم يتعب، وهو

وبـاتَ عـلـيـه سـرجُـهُ ولـجـامـه　　وباتَ بعيني قائمًا غير مرسلِ[٢٠٠]

وقال من قصيدة مطلعها:

ألا عِـمْ صَـبَـاحًـا أيـهَـا الـطـلَـلُ الـبَـالـي　　وَهل يَعِمنْ مَن كان في العُصُرِ الخالي[٢٠١]

كامل الصورة والحسن إذا نظر الإنسان إلى أعلاه رأى ما يعجبه، ولم يسعه إلا أن ينظر إلى أسفله ليستتم النظر إلى جميع جسده لأنه كله حسن. ويروى: «ورحنا يكاد الطَّرف يقصر دونه»؛ والطَّرف: العين؛ أي إذا نظر إلى هذا الفرس إنسان أطال النظر إلى ما ينظره منه لحسنه فلا يكاد يستوفي النظر إلى جميعه.

[٢٠٠] فبات: أي الفرس. وبات بعيني: أي حيث أراه بعيني. غير مرسل: أي مهمل.

[٢٠١] قال الواحدي: لما أنشد المتنبي لسيف الدولة قوله:

وقفت وما في الموت شك لواقف　　كأنك في جفن الردى وهو نائم
تمر بك الأبطال كلمى هزيمة　　ووجهك وضاح وثغرك باسم

أنكر عليه سيف الدولة، وقال له: كان ينبغي أن تقول:

وقفت وما في الموت شك لواقف　　ووجهك وضاح وثغرك باسم
تمر بك الأبطال كلمى هزيمة　　كأنك في جفن الردى وهو نائم

ثم قال: وأنت في هذا مثل امرئ القيس في قوله:

كأني لم أركب جوادًا للذة …

قال: ووجه الكلام في البيتين على ما قاله العلماء بالشعر أن يكون عجز الأول مع الثاني وعجز الثاني مع الأول ليستقيم الكلام؛ فيكون ركوب الخيل مع الأمر للخيل بالكر، ويكون سباء الخمر مع تبطن الكاعب، فقال أبو الطيب: «أدام الله عز مولانا! إن صح أن الذي استدرك هذا على امرئ القيس أعلم منه بالشعر فقد أخطأ امرؤ القيس وأخطأت أنا! ومولانا يعرف أن الثوب لا يعرفه البزاز معرفة الحائك؛ لأن البزاز يعرف جملته والحائك يعرف جملته وتفصيله؛ لأنه أخرجه من الغزلية إلى الثوبية، وإنما قرن امرؤ القيس لذة النساء بلذة الركوب للصيد وقرن السماحة في شراء الخمر للأضياف بالشجاعة

كـأنـي لـم أركـب جـوادًا لـلـذة ... ولـم أتبـطـن كـاعبًـا ذات خـلـخـال[٢٠٢]
ولـم أسـبـأ الـزقَّ الـروي ولـم أقـل ... لـخـيـلـيَ كِـرِّي كَـرَّة بـعـد إجـفـال[٢٠٣]
ولم أشـهد الـخيل المغـيرة بـالـضحى ... عـلـى هـيـكـل عـبـل الـجُـزَارَة جـوال[٢٠٤]
سليم الشظى عبل الشوى شَنِج النسا ... لـه حَـجَـبَـات مشـرفـات عـلـى الـفـالـي[٢٠٥]
وصـمٌّ صـلاب مـا يـقـيـن مـن الـوجـى ... كـأن مـكـان الـردف مـنـه عـلـى رال[٢٠٦]
وقـد أغـتـدي والـطـيـر فـي وكـنـاتـهـا ... لـغـيـث مـن الـوسـمـي رائـده خـال[٢٠٧]
تـحـامـاه أطـراف الـرمـاح تـحـامـيًـا ... وجـادَ عـلـيـه كـلُّ أسـحـمَ هـطَّـال[٢٠٨]
بـعَـجْـلَـزَة قـد أتـرز الـجـري لـحـمـهـا ... كـمـيـت كـأنـهـا هـراوة مـنـوال[٢٠٩]

في منازلة الأعداء، وأنا لما ذكرت الموت في أول البيت أتبعته بذكر الردى ليجانسه، ولما كان وجه المنهزم لا يخلو من أن يكون عبوسًا وعينه من أن تكون باكية، قلت: «ووجهك وضاح وثغرك باسم» لأجمع بين الأضداد في المعنى.»

فأعجب سيف الدولة بقوله، ووصله بخمسين دينارًا من دنانير الصلات وفيها خمسمائة دينار، قال في الصناعتين (ص١٠٨) — بعد أن ذكر مثل ما تقدم في بيتي امرئ القيس — قال أبو أحمد: والذي جاء به امرؤ القيس هو الصحيح؛ وذلك أن العرب تضع الشيء مع خلافه فيقولون: الشدة والرخاء، والبؤس والنعيم، وما يجري مع ذلك.

[٢٠٢] أتبطن: أجعلها بطانة؛ أي أجعل بطني عليها. الكاعب: التي كَعَبَ ثديها.

[٢٠٣] لم أسبأ: لم أشتر. الزق: السقاء؛ ظرف للخمر. الروي: يروي شاربه. كري: ارجعي. إجفال: إسراع.

[٢٠٤] هيكل: فرس طويل عظيم. عبل: غليظ. الجزارة: القوائم وكثرة عصبها. ولا يراد رأسه لأن ذلك في الخيل هجنة، وأصل الجزارة اليدان والرجلان والعنق؛ لأنها لا تدخل في أنصباء الميسر، وإنما يأخذها الجزار جزارته أي أجره. جوال وعبل: كثير العصب قليل اللحم.

[٢٠٥] الشظى: عظم لازق بالذراع. الشوى: اليدان والرجلان. شنج: قصير منقبض. النسا: عرق في الفخذ. حجبات: رءوس عظام الوركين. مشرفات: مائلات مقبلات. الفالي: اللحم الذي على الورك، أصله الفائل فقلب.

[٢٠٦] صم: حوافر. الوجي: الحفا أو وجع الحافر؛ أي لا يتقين. الرال: فرخ النعامة.

[٢٠٧] لغيث: بقل ونبت. الوسمي: أول مطر الخريف. رائده: الذي يرتاده. الخالي: الذي يكون في الخلاء.

[٢٠٨] تحاماه: تتجنبه. جاد: أمطر. أسحم: أسود. هطال: كثير الهطل والسيلان.

[٢٠٩] العجلزة: فرس شديد الخلق صلب. أترز: أيبس. الهراوة: العصا. منوال: خشبة السدى والحائك.

ذَعَرتُ بها سربًا نقيًا جلوده وأكْرُعُه الوِشْي البرود من الخال[٢١٠]
كأنَّ الصُّوار إذ تَجَهَّد عدْوُه على جُمُد خيل تجولُ بأجلال[٢١١]
فجال الصوار واتقين بقرهب طويل القرا والرَّوق أخنس ذيال[٢١٢]
فعادى عداءً بين ثور ونعجة وكان عداء الوحش مني على بال[٢١٣]
كأني بفَتْخَاءِ الجناحين لَقْوَة صيود من العقبان طأطأت شملالي[٢١٤]
تَخَطف خزَّان الشَّرَبة بالضحى وقد جحرتْ منها ثعالب أَوْرال[٢١٥]
كأن قلوب الطير رطبًا ويابسا لدى وكرها العناب والحشف البالي[٢١٦]

وقال يصف الجواد من قصيدة مطلعها:

خليليَّ مرَّا بي على أم جندب لنقضي لبانات الفؤاد المعذب

---

٢١٠ ذعرت: أخفت. السرب: القطيع من بقر الوحش. نقيًّا جلوده: بيضًا لا خطوط فيها. أكرع: ج كراع؛ ما دون الكعب من الدواب. الخال: الثوب الناعم المخطط، وفي نسخة: «وشي البرود»؛ أي فيها نقط سود وبيض.

٢١١ الصوار: قطيع بقر الوحش. تجهد: روي «إذ تجاهدن»: بالغ في عدوه. جمد: ما غلظ من الأرض، ويروى: «تجهد عدوه على جَمْزَى»؛ أي عدو شديد. تجول بأجلال: ج جُل؛ أي ظهورها بيض وقوائمها سود منقطعة، فأسافلها تشبه البرود وأعاليها تشبه الأجلال، وهي ما تلبسه الدابة، يشبه الصوار في عدوه بخيل تجول بأجلال بيض.

٢١٢ القرهب: الكبير الضخم من بقر الوحش. القرا: الظهر. الروق: القرن. أخنس: قصير الأنف. ذيال: طويل الذيل.

٢١٣ يروى: «فعاديت منها»؛ أي واليت. على بال: أي إذا صرعت منها شيئًا فمن شأني أن آسي.

٢١٤ الفتخ: لين وطول في الجناح؛ يشبه فرسه بعقاب لينة الجناح موصوفة بما ذُكر. لقوة: سريعة تخطف كل شيء. صيود: كثيرة الصيد، ويروى: «دَفوف»؛ أي تدنو من الأرض وهي طائرة إذا انقضت. طأطأت: دانيت أو حثثت وأسرعت. شملال: سريعة.

٢١٥ تخطف، ويروى: «تكفت»: أي تضم وتجمع. الخزان: ج خزن؛ وهو ذكر الأرنب. الشربة: موضع بنجد. جحرت: تخلفت أو توارت ثعالب أورال؛ فلا تسرح خوفًا من هذه العقاب أو دخلت جحرها. أورال: موضع.

٢١٦ العناب: ثمر أحمر. الحشف: ما يبس من التمر ولم يكن له طعم ولا نوًى.

وقد أغتدي والطَّير في وكراتها ... وماء الندى يجري على كل مِذنب[217]
بمنجرد قيد الأوابد لاحه ... طراد الهوادي كل شأو مغرب[218]
على الأين جياش كأن سراته ... على الضمر والتعداء سرحة مرقب[219]
يباري الخنوفَ المستقلَّ زماعُه ... ترى شخصه كأنه عود مشجب[220]
له أيطلا ظبي وساقا نعامة ... وصهوة عير قائم فوق مرقب[221]
ويخطو على صُمٍّ صلاب كأنها ... حجارة غيل وارسات بطحلب[222]
له كفل كالدِّعص لبَّده الندى ... إلى حارك مثل الغبيط المذأَّب[223]
وعين كمرآة الصناع تديرها ... بمحجرها من النصيف المنقب[224]
له أذنان تعرف العلق فيهما ... كسامعتي مذعورة وسْط ربرب[225]

---

[217] وكراتها: وكناتها. المذنب: كهيئة الجدول يسيل عن الروضة ماؤها إلى غيرها فيغرق ماؤها فيها والتي يسيل عليها الماء مذنب أيضًا.

[218] لاحه: أهزله. الهوادي: طراد: متتابعة. السوابق: المتقدمة. شأو: طلق؛ وهو جري مرة إلى الغابة. مغرب: بعيد.

[219] الأين: التعب والإعياء. سراته: ظهره. الضمر: الهزال. التعداء: الجري. سرحة: شجرة. مرقب: موضع يرقب منه.

[220] يباري: يعارض. الخنوف: خنف بيديه في السير. مال بهما نشاطًا أو رمى بهما فيه فهو أوسع. المستقل: المرتفع. زماع: ج زَمَعَة؛ وهي الشعرة التي خلف الرسغ أو الثنة؛ والثنة: الشعرات في مؤخر رسغ الدابة، وليس للفرس زماع، وإنما أراد بالمستقل بالشعر. المشجب: خشبات موثقة منصوبة تضم رءوسها ويفرج بين قوائمها توضع عليها الثياب وتنشر، وقد تعلق عليها الأسقية لتبريد الماء وهي الشجاب.

[221] أيطلا: خاصرتا. صهوة عير: ظهر حمار. مرقب: مكان مرتفع.

[222] غيل: ماء جارٍ على وجه الأرض. وارسات: مصفرات. طحلب: خضرة تعلو وجه الماء.

[223] كفل: عجز. الدعص: كثيب رمل صغير. حارك: أعلى الكاهل. الغبيط: قتب الهودج. المذأب: الموسع؛ له ذؤابة.

[224] الصناع: المحسنة الصنعة بيدها. المحجر (كمجلس ومنبر): ما دار بالعين وبدا من البرقع من جميع جوانب العين. النصيف: الخمار. المنقب: الذي ينتقب به، وأراد موضع عينيها من الخمار.

[225] العتق: الكرم؛ والمراد الحسن والنقاء. سامعتي: أذني؛ أي بقرة خائفة.

ومستفلك الذفرى كأن عنانه ... ومثناته في رأس جذع مشذب[226]
وأسحم ريان العسيب كأنه ... عثاكيل قنوٍ من سُمَيْحَة مُرْطب[227]
إذا ما جرى شأوين وابتل عطفه ... تقول هزيز الريح مرَّت بأثأب[228]
إذا ما ركبنا قال ولدان أهلنا: ... تعالوا إلى أن يأتي الصيد مُخْطِبِ[229]
يدير قَطَاةً كالمحالة أشرفت ... إلى سند مثل الغبيط المذأب[230]
فيومًا على سِرب نقي جلوده ... ويومًا على بيدانة أُم تَوْلب[231]
فبينا نعاج يرتمين خميلة ... كمشي العذارى في الملاء المهدب[232]
فكان تنادينا وعقد عذاره ... وقال صحابي قد شأَوْنكَ فاطلب[233]
فلأيًا بلأي ما حملنا غلامنا ... على ظهر محبوك السَّراة محنب[234]

---

[226] مستفلك: مستدير. الذفرى: العظم الشاخص خلف الأذن، وكل مستدير فلكة. مثناة: حبل مشدود في رأسه. مشذب: نزع عنه شوكه؛ أي له رأس مستفلك ذفراه: كأن عنانه من طول عنقه في رأس جذع مشذب، فتبين طوله.

[227] أسحم: ذنب أسود. ريان: ممتلئ. العسيب: عظم الذنب. عثاكيل: أغصان. قنو: عنقود. سميحة: بئر غزيرة فيها نخل. مرطب: فيه رطب.

[228] شاوين: طلقين. هزيز: صوت. أثأب: شجر؛ أي له حفيف كالريح إذا مرت بهذا الشجر.

[229] ويروى: «إلى أن يأتِنا الصيد»، واستشهد به بعض النحاة على الجزم بأن، ويروى: «إلى ما يأتنا الصيد»، وجعل بعضهم ما شرطية وما بعدها شرطًا وجوابًا، والرواية التي اخترناها غنية عن الاحتياج إلى مثل هذا التكلف، والمراد من البيت: أنهم واثقون بالصيد على هذا الفرس لسرعته؛ ولذلك إذا ركبوه للصيد شرعوا في جمع الحطب وإعداده لشي الصيد، وذلك مدح للفرس.

[230] القطاة: مقعد الرديف. المحالة: البكرة. سند: حارك. الغبيط: الهودج. المذأب: له ذؤابة.

[231] نقي جلوده: بيض. بيدانة: حمارة.

[232] نعاج: إناث بقر الوحش. خميلة: رملة فيها شجر. مهدب: لها هدب.

[233] تنادينا: مناداة بعضنا بعضًا. عذار: سير في اللجام. شأونك: سبقنك.

[234] اللأي: البطء والجهد، وهو مصدر في موضع الحال، وما زائدة؛ أي حملنا غلامنا مبطئين أو مجهودين. محبوك: مجدول موثق. السراة: الظهر. محنب: بعيد ما بين الرجلين، أو معوج الساقين؛ وهو مدح.

ووَلَّـى كـشـؤبـوب الـعـشـي بـوابـل ... ويخرجن من جعد ثراه منصب[٢٣٥]
فـلـلـسـوط ألـهـوب ولـلـسـاق درة ... ولـلـزجـر مـنـه وقـع أهـوج مـنـعـب[٢٣٦]
فـأدركَ لـم يَـجْـهَـد ولـم يُـثـنِ شـأوه ... يـمـر كـخـذروف الـولـيـد الـمـثـقـب[٢٣٧]
ترى الفأر في مستيفع القاع لاحبًا ... على جدد الصحراء من شد ملهب[٢٣٨]
خـفـاهـن مـن أنـفـاقـهـن كـأنـمـا ... خـفـاهـن ودق مـن عـشـي مـجـلـب[٢٣٩]
فـعـادى عـداءً بـيـن ثـور ونـعـجـة ... وبين شبوب كالقضيمة قرهب[٢٤٠]
وظـل لـثـيـران الـصـريـم غـمـاغـمٌ ... يُـداعـسـهـا بـالـسَّـمْـهَـريِّ الـمُـعـلَّـب[٢٤١]
فـكـابٍ عـلـى حـر الـجـبـين ومـتـقٍ ... بـمـدْريـةٍ كـأنَّـهـا ذلـق مـشـعـب[٢٤٢]
وقـلـنـا لـفـتـيـانٍ كـرامٍ ألَا انـزلـوا ... فعالوا علينا فضل ثوب مطنب[٢٤٣]

[٢٣٥] الشؤبوب: الدفعة من المطر بشدة. الجعد: المتراكم بعضه فوق بعض، والمراد الغبار. منصب: انتصب على كل شيء وغطاه، ويروى: «عصبصب»؛ أي شديد، يصف الفرس بأنه يندفع كالشؤبوب في آثار الصيد.

[٢٣٦] ألهوب: شدة جري. درة: در جريه: إذا أسرع. أهوج: أحمق. منعب: أحمق مصوت. ويروى: «أخرج مهذب»؛ أي ظليم سريع.

[٢٣٧] أدرك طريدته بغير مشقة. ثنى الشيء (كَرَمَى): صار معه ثانيًا. الخذروف: الدوارة يلعب بها الصبيان.

[٢٣٨] اليفع واليفاع: ما ارتفع من الأرض أو التل، وكل مرتفع يفاع. القاع: السهل. لاحبًا: ظاهرًا. الجدد: المستوي من الأرض. ألهب الفرس: اشتد جريه فهو ملهِب أو ملهَب، بمعنى إلهاب؛ أي شدة جري؛ أي شدة وقوع حوافره؛ أخرج الفأر من حجرتها لأنها ظنته مطرًا.

[٢٣٩] خفاهن: أظهرهن. أنفاقهن: ج نفق؛ سَرَب له مخلص إلى مكان آخر استَعَاره لحجر الفأرة. ودق: مطر. مجلب: له جلبة؛ أي رعد.

[٢٤٠] عادى: والى. شبوب: ثور فتيٌّ. القضيمة: الصحيفة. قرهب: مسن أو ضخم.

[٢٤١] الصريم: رمل منقطع عن الرمال. غماغم: أصوات تتردد في الحلق. يداعسها: يطاعنها، ويروى: «يدعسها»؛ أي يطعنها. المعلب: المشدود بالعلباء.

[٢٤٢] كاب: ساقط. حر الجبين: ما بدا من الجبين. مدرية: قرن. ذلق: حد. مشعب: مخرز يشعب به النعال.

[٢٤٣] عالوا: ارفعوا. مطنب: ذي أطناب.

وأوتــاده مــاذيــة وعــمــادُه ردينية فيها أسنة قعضب[٢٤٤]
وأطنابه أشطان خوض نجائب وصهوته من أتحميٍّ مشرعب[٢٤٥]
فلما دخلناه أضفنا ظهورنا إلى كل حاريٍّ حديد مشطب[٢٤٦]
كأن عيون الوحش حول خِبائنا وأرحلنا الجزع الذي لم يثقب[٢٤٧]
نَمشُّ بأعراف الجياد أكفَّنا إذا نحن قمنا عن شواء مضهب[٢٤٨]
ورحنا كأنا من جؤاثي عشية نعالي النعاج بين عِدْل ومُحقب[٢٤٩]
وراح كَتَيْسِ الرَّبْل ينفض رأسه أذاةً به من صائكٍ مُتَحَلِّبِ[٢٥٠]
كأن دماء الهاديات بنحره عصارة حناء بشيب مخضب[٢٥١]
وأنت إذا استدبرته سد فرجه بضاف فويق الأرض ليس بأصهب[٢٥٢]

وقال من قصيدة مطلعها:

لمن طلل أبصرته فشجاني كخط الزبور في العسيب اليماني

---

[٢٤٤] مازية: دروع بيض. ردينة: رماح. قعضب: رجل جاهلي يصنع الرماح.

[٢٤٥] أطنابه: حبال أوتاده. أشطان: حبال. خوص: ج خوصاء؛ وهي الناقة الغائرة العيون. صهوته: أعلاه. أتحمي: ضرب من الثياب؛ قال المبرد: هذا من التشبيه العجيب. مشرعب: مصنف أو مقطوع طولًا.

[٢٤٦] أضفنا: سندنا. حاري: سيف منسوب إلى الحيرة أو رحل. مشطب: فيه شطب أو طرائق.

[٢٤٧] الجزع: خرز أسود فيه بياض.

[٢٤٨] نمش: نمسح. العرف: شعر العنق. الشواء: اللحم المشوي. مضهب: لم ينضج.

[٢٤٩] جؤاثي: موضع بالبحرين يمتار منه التمر. أحقبه: أردفه؛ وأحقب زاده خلفه: جعله وراءه؛ أي رحنا نحمل في الصيد أعدالنا وحقائبنا، كأنَّا رحنا من جؤاثي؛ لأن الرائح منها يملأ أعداله وحقائبه تمرًا.

[٢٥٠] وراح: في اللسان (وظل). الربل: ورق يتفطر في آخر القيظ بعد الهيج ببرد الليل من غير مطر، أو شجر إذا برد الزمان عليها وأدبر الصيف، تفطرت بورق أخضر. رأسه: في اللسان (متنه). الصائك: الذي تغير لونه وريحه؛ يقول: الفرس في نشاطه كالتيس الذي تحلب عليه صائك المطر من الشجر، وقيل ينفض رأسه من ريح عرقه الذي تحلب منه؛ لأنه يتأذى به. تحلب: سال.

[٢٥١] الهاديات: المتقدمات.

[٢٥٢] الصهبة: بياض إلى حمرة.

وإن أمس مكروبًا فيا رب غارة شَهِدْتُ عَلى أَقَبَّ رَخْوِ اللَّبَان[٢٥٣]
عَلى رَبِذٍ يَزْدَادُ عَفْوًا إذَا جَرَى مِسَحٍّ حَثِيثِ الرَّكْضِ وَالذَّأَلان[٢٥٤]
ويردي على صُمٍّ صِلابٍ مَلاطِس شَدِيدَاتِ عَقْدٍ لَينَاتٍ مِثَاني[٢٥٥]
وَغَيْثٍ منَ الوَسمِي حُوٍّ تِلاعُه تَبَطنْتُهُ بِشَيْظَمٍ صَلَتَان[٢٥٦]
مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ مَعًا كَتَيسِ ظِبَاءِ الحُلَّبِ العَدَوَان[٢٥٧]
إذَا مَا جَنَبْنَاهُ تَأَوَّدَ مَتْنُهُ كعِرْقِ الرُّخامى اهْتَزَّ في الهَطَلان[٢٥٨]

وقال من قصيدة مطلعها:

قفا نبك من ذكرى حبيب وعرفان ...
وغيث كألوان الفنا قد هبطْته تعاور فيه كل أوطف حنَّان[٢٥٩]
على هيكلٍ يعطيك قبل سؤاله أفانينَ جريٍ غيرَ كزٍّ ولا وان[٢٦٠]
كتَيْس الظباء الأعفر انضرجت له عُقاب تدلت من شماريخ ثهلان[٢٦١]

---

[٢٥٣] أقب: ضامر البطن. رخو: ليِّن. اللبان: الصدر.

[٢٥٤] ربذ: سريع. عفوًا: جمامًا، ويروى: «عدوًا.» الذألان: المشي السريع.

[٢٥٥] يردي: يرجم الأرض بحوافره، ويروى: «ويجري.» ملاطس: على حوافر صلاب. والمِلْطَس: معول تكسر به الحجارة وتنقر به الأرحاء. عقد: عقد الأرساغ. مثانٍ: مفاصل تثنى.

[٢٥٦] حو: خضر. تلاعه: ج تلعة؛ ما ارتفع من الأرض. تبطنته: تبطن الكلأ جول فيه. شيظم: طويل. صلتان: منجرد قصير الشعر أو ماضٍ أو حديد الفؤاد.

[٢٥٧] الحلب: نبات في القيعان تأكله الشاء والظباء. مَغْزَرَة: مسمنة؛ يقال تيس حُلَّب وتيس ذو حلب. العدَّاء: الشديد العدْو، وروي العذوان؛ أي النشيط المسرع.

[٢٥٨] جنب الدابة: قادها. تأود: تثنى. الرخامى: ضرب من الخلعة غرَّاء الخضرة، زهرته بيضاء، له عرق أبيض تأكله الوحش كلها لحلاوته. الهطلان: تتابع المطر.

[٢٥٩] الغيث: الكلأ. الفنا: عنب الثعلب؛ وهو شجر ذو حَب أحمر يتخذ منه قلائد. تعاور: تداول. أوطف: في وجهه كالحمل الثقيل أو فيه استرخاء من جوانبه لكثرة الماء. حنان: فيه صوت الرعد.

[٢٦٠] هيكل: ضخم. أفانين: أنواع وضروب. كز: منقبض. وانٍ: فاتر.

[٢٦١] انضرجت: اتسعت في طَيَرانها أو انقضت. الشماريخ: الرءوس. ثهلان: جبل.

وخرق كجوف العَيْر قفر مَضِلَّةٍ   قطعتُ بسامٍ ساهمِ الوجه حُسَّان[٢٦٢]
يدافع أعطاف المطايا بِرُكنه   كما مال غصن ناعم بين أغصان[٢٦٣]

وقال من قصيدة:

ومَرْقَبة كالزُّجِّ أشْرفتُ فوقها   أُقلِّب طَرْفي في فضاء عريض[٢٦٤]
فظلْتُ وظلَّ الجَوْن عندي بلبده   كأني أعدِّي عن جناح مهيض[٢٦٥]
فلما أجَنَّ الشمس عني غيارها   نزلتُ إليه قائمًا بالحضيض[٢٦٦]
يباري شباةَ الرمح خدٌّ مذلَّقٌ   كصفح السنان الصُّلَّبي النحيض[٢٦٧]
وقد أغتدي والطير في وكناتها   بمنجرد عبلِ اليدين قبيض[٢٦٨]
له قُصْرَيَا عَيْرٍ وساقا نعامة   كفحل الهجان القيسري الغضيض[٢٦٩]

---

[٢٦٢] خرق: قفر. مضلة: لا يهتدى فيها. سامٍ: مرتفع مشرف. ساهم الوجه: قليل لحم الوجه أو متغيره؛ محمول على كريهة الجري. حسان: حسن الخلق.

[٢٦٣] يدافع: يدفع. أعطاف: جوانب ونواحٍ. بِرُكنه: بمنكبه أو جانبه.

[٢٦٤] المرقبة: ما أرقبت عليه من علم أو رابية لتنظر من بعد. الزج: حديدة تجعل في أسفل الرمح؛ يريد أنها محددة الرأس مثل الزج.

[٢٦٥] الجون: اسم فرسه. أعدي: اتنحى. المهيض: المكسور؛ يريد أنه تنحى عنه كما يتنحى عن جناح الطائر المكسور إبقاءً عليه.

[٢٦٦] أجن: ستر. غيارها: غروبها. الحضيض (في الأصل): قرار الأرض عند سفح الجبل، والمراد هنا الأرض.

[٢٦٧] باراه: عارضه وجاراه وفعل مثل فعله. شباة الرمح: حده. مذلق: محدد. السنان: الحجر الذي يسن عليه، ويروى «كحد السنان.» الصلبي: حجارة المسن، أو الصلبي الذي جُلِيَ وشحذ بحجارة الصُّلَّب؛ وهي حجارة تتخذ منها المسان. النحيض المرقق: المحدد؛ يصف خد الفرس.

[٢٦٨] عبل: ضخم غليظ. قبيض: سريع نقل القوائم.

[٢٦٩] القصرَى: الضلع التي تلي الشاكلة بين الجنب والبطن. العير: حمار الوحش. الهجان من الإبل: البيض الكرام. القيسري: الضخم الشديد القوي. غضيض: بمعنى فتي؛ من قولهم: شيء غضيض طري، أو بمعنى دليل؛ من قولهم: رجل غضيض؛ أي ذليل.

يجم على الساقين بعد كلاله جموم عيون الحِسْي بعد المخيض[٢٧٠]
ذعرت بها سربًا نقيًا جلودها كما ذعر السرحان جنب الربيض[٢٧١]
فأقصد نعجة فاعرض ثورها كفحل الهجان ينتحي للعضيض[٢٧٢]
ووالى ثلاثًا واثنتين وأربعًا وغادر أخرى في قناة رفيض[٢٧٣]
فآب إيابًا غير نَكْد مواكل وأخلف ماءً بعد ماء فضيض[٢٧٤]
وسِنٍّ كَسُنَّيْق سناء وسُنَّم ذعرت بمدلاج الهجير نَهُوض[٢٧٥]

وقال يصف الناقة:

وإنك لم تقطع لُبانة عاشق بمثل غدو أو رواح مؤَوِّب[٢٧٦]
بأدماء حرجوج كأن قتودها على أبلق الكَشْحَين ليس بمُغرَب[٢٧٧]

---

[٢٧٠] جَمَّ الفرس يَجِمُّ إذا ترك فلم يركب، فعفا من تعبه وذهب إعياؤه، وقد يكون الجموم في السير الارتفاع، جم الفرس إذا سار وارتفع؛ ومنه قوله هذا. الكلال: الإعياء. وجمت البئر: كثر ماؤها واجتمع. الحسي: سهل يستنقع فيه الماء أو غَلْظ فوقه رمل يجتمع فيه ماء السماء، فكلما نزحت دلوًا جمتْ أخرى. مخض بالدلو: نهز بها في البئر. ومخض البئر بالدلو: أكثر النزع منها وحركها.

[٢٧١] ذعرت: أخفت. الجنب: معظم الشيء، والناحية والقطعة من الشيء. الربيض: الغنم في مرابضها.

[٢٧٢] أقصد السهمُ: أصاب فقتل مكانه. وأقصدت الرجل: طعنته أو رميته بسهم فلم تخط مقاتله. أعرض: ظهر واعترض. ينتحي: يعتمد ويقصد. العضيض: القِرن والقرين.

[٢٧٣] والى: تابع. غادر: ترك. قناة رفيض ورمح رفيض: متكسر متقصد؛ يريد أنه صرع ثلاثة على الولاء وترك الأخرى قناة مكسورة.

[٢٧٤] آب: رجع. النكد: الشؤم، والنكد: قلة العطاء. مواكِل: عاجز كثير الاتكال على غيره. والمواكل من الخيل: الذي يتكل على صاحبه في العدو. والمواكل: المسيء السير والذي يلجأ إلى التأخر. الفضيض: ما انتشر من الماء إذا تطهر به، المتفرق من ماء المطر والعرق.

[٢٧٥] السن: الثور الوحشي. سنيق: جبل أو اسم أكمة. سناء: رفعة. السنم: البقرة، وقوله: «مدلاج الهجير» رواه في اللسان بـ «مزلاج الهجير»، وفي التاج بـ «مدلاج الهجين».

[٢٧٦] لبانة: حاجة. الرواح: من زوال الشمس إلى الليل. الأوب: الرجوع. والرواح المؤوب: الذي يمد السير حتى يبلغ فيه إلى ما يراد.

[٢٧٧] أدماء: ناقة بيضاء مشربة بسواد. حرجوج: طويلة. قتود: أداة الرحل. الكشحين: الخاصرتين. مغرَب: أبيض الأشفار. والمغرب: الذي كل شيء منه أبيض.

يغرد بالأسحار في كل سُدفة　　تغرد مياح الندامى المُطَرب[٢٧٨]
أقبَّ رَباعٍ من حمير عماية　　يمجُّ لُعاع البقل في كل مشرب[٢٧٩]
بمَحنيَّةٍ قد آزر الضالَ نبتُها　　مجرَّ جيوش غانمين وخيَّب[٢٨٠]

وقال من قصيدته الرائية:

سما لك شوق بعدما كان أقصرا
فدَعْ ذا وَسَلِّ الهمَّ عنكَ بجَسْرَةٍ　　ذَمُولٍ إذا صَامَ النَّهار وَهَجَّرَا[٢٨١]
تُقَطَّعُ غِيطَانًا كَأن مُتُونَهَا　　إذا أظهرت تُكسى ملاءً منشَّرا[٢٨٢]
بَعِيدَةُ بَينَ المَنْكِبَينِ كَأنمَا　　ترى عند مجرى الظفر هرًّا مشجَّرًا[٢٨٣]
تُطاير ظرَّانَ الحصى بمناسمٍ　　صِلابِ العُجى مَلثومُها غيرُ أمعَرَا[٢٨٤]
كأن الحَصَى مِنْ خَلفِهَا وَأمامِهَا　　إذا نجَلَته رِجلُها خَذْفُ أعسَرَا[٢٨٥]
كَأن صَلِيلَ المَرْوِحِينَ تُشدُّهُ　　صليل زيوفٍ ينتقدنَ بعبقرا[٢٨٦]

---

[٢٧٨] يغرد: يطرب ويصوت. سدنة: ظلمة. مياح: يميح في ناحية من النشوة.

[٢٧٩] أقب: ضامر البطن. رباع: سنه رباع. عماية: جبل بنجد. يمج: يطرح. اللعاع: أول النبت وبقي في الإناء لعاعة؛ أي قليل، وفي الأرض لعاعة من كلأ؛ أي شيء رقيق؛ أي يرمي خضرة البقل في الماء إذا شرب؛ أي في الربيع، فهو أقوى وأنشط.

[٢٨٠] بمحنية حيث ينحني الوادي. آزر: ساوى. الضال: شجر. مجر: من مرَّ بها من الجيوش لم يلوِ عليها.

[٢٨١] جسرة: تجسر على الهول أو طويلة أو ماضية. ذمول: سريعة. صام النهار: قام قائم الظهيرة.

[٢٨٢] غيطان: ج غائط؛ المطمئن من الأرض. أظهرت: دخلت في الظهيرة.

[٢٨٣] الضفر: حبل من شعر من حبال الهودج. هرًّا مشجرًا: قطًّا مربوطًا، فهي تثب وتسرع.

[٢٨٤] ظران: ج ظرر؛ حجر له حد، وروي «شذان الحصى»؛ أي المتفرق منه. مناسم: ج منسم؛ طرف خف البعير. العجى: ج. عجاية؛ عصبة في باطن يد الناقة. ملثومها: خفها الذي تلثمه الحصى. غير أمعرا: لم يذهب شعره.

[٢٨٥] نجلته: رمته. خذف: رمي. أعسرا: الذي يعمل بيده اليسرى.

[٢٨٦] صليل: صوت. المرو: حجارة براقة تقدح منها النار. تشده — وروي «تشذه»: أي تنحيه وتطيره. زيوف: ج زيف؛ درهم صلب لا فضة فيه. عبقر: موضع باليمن؛ يريد أن رميها غير منتظم إلى جهة واحدة كخذف الأعسر.

وقال من قصيدة مطلعها:

غشيت ديار الحي بالبكرات ... فعارمةٍ فبُرْقةِ العبرات
كأني وردفي والقراب ونُمرقي ... على ظهر عير وارد الخَبِرَات[٢٨٧]
أرن على حُقب حيال طَروقة ... كَذَوْد الأجير الأربع الأشِرات[٢٨٨]
عنيف بتجميع الضرائر فاحش ... شتيم كَذَلْقِ الزُّج ذي ذمرات[٢٨٩]
ويأكلن بُهْمى جَعْدَةٍ حبشية ... ويشربْن بَرد الماء في السَّبَرات[٢٩٠]
فأوردها ماءً قليلًا أنيسه ... يحاذرن عَمرًا صاحب القترات[٢٩١]
تلُتُّ الحصى لتًّا بسُمر رزينة ... موازن لا كُزْمٍ ولا مَعِرات[٢٩٢]
ويرخين أذنابًا كأن فروعها ... عرى خِلل مشهورة ضفرات[٢٩٣]
وعنس كألواح الإران نسأتها ... على لاحب كالبُرد ذي الحبرات[٢٩٤]
فغادرتها من بعد بُدْن رَذِيَّة ... تغالي على عوج لها عود لها كَدِنَات[٢٩٥]

---

[٢٨٧] الخبرات: ج خَبِرَة؛ وهي أرض تنبت الخبر الدر.

[٢٨٨] أرنَّ: صوَّت. الحقباء: بيضاء العجز. حيال: ج حائل؛ طروقة يضربها الفحل. الذود: ما بين ٣–١٠. الأجير: الراعي، وخص الأربع ليكون أقوى على تعهدها.

[٢٨٩] عنيف: قليل الرفق. ضرائر: ج ضَرَّة. فاحش: متجاوز القدر. شتيم: كريه المنظر. ذلق: حد. زمرات: ج زمرة؛ الزجرة.

[٢٩٠] بهمى: نبت. جعدة: ندبة. حبشية: شديدة الخضرة أو كثيرة ملتفة. السبرات: الغدوات الباردة.

[٢٩١] عمرو: هو عمرو بن الشيخ من بني ثعل من طيء من أرمل العرب. القترة: بيت الصائد الذي يكمن فيه.

[٢٩٢] تلت: تسحق تدق. سمر: حوافر ثقال. موازن: صلاب لا تؤثر فيها الحجارة. كزم: قصار. معرات: يمرط شعرهن.

[٢٩٣] الخلة: بطانة؛ يغشى بها جفن السيف، وكل جلد منقوش. ضفرات: مفتولات، ويروى: «صفرات»؛ أي مكشوفة.

[٢٩٤] عنس: ناقة قوية. ألواح: شبهها بألواح التابوت؛ لصلابتها وضمرها. الأران: سرير الموتى. نسأتها: زجرتها. لاحب: طريق واضح. حبرة: وشي في الثوب.

[٢٩٥] بدن: سمن. رذية: مهزولة. تغالي: تجدُّ وتسرع. عوج: قوائم. كدنات: ج كدنة؛ غلاظ صلاب.

وأبـيـض كـالـمـخـراق بـلَّـيت حـدَّه   وهـبَّـتـه فـي الـسـاق والـقَـصَـرَات[٢٩٦]

وقال من قصيدة مطلعها:

أماوي هل لي عندكم من معرس

كأني ورحلي فوق أحقب قارح   بشربة أوطى وبعرنان موجس[٢٩٧]
تعشَّى قليلًا ثم أنحى ظلوفه   يثير التراب عن مبيت ومكنس[٢٩٨]
يهيل ويذري تربها ويثيره   إثارة نبَّاث الهواجر مُخْمِس[٢٩٩]
فبات على خد أحم ومنكب   وضِجْعَتُه مثل الأسير المُكَرْدس[٣٠٠]

[٢٩٦] أبيض: سيف. مخراق: منديل يلف فيضرب به، وأورده في اللسان شاهدًا على أن المخراق السيف. بليت: اختبرت. هبته: سرعة مضيه في ساق الإبل يمر فيها للضيوف. القصرات: ج قصرة؛ أصل العنق؛ يريد أنه ضَرَب به أعناق الأبطال فيفخر بالكرم والشجاعة.

[٢٩٧] الرَّحْل: مركب للبعير والناقة؛ ويقال لأعواد الرحل بغير أداة: رحل. أحقب: حمار أبيض الحقوين؛ أي الخاصرتين. قارح: متناه في قوته. شربة (بفتح أوله وضمه): موضع. طاوٍ: ضامر البطن. والطاوي: الذي يطوي عنقه عند الربوض ثم يربض؛ يقال ظبي طاوٍ. عرنان: غائط واسع منخفض من الأرض. أوجس: وقع في نفسه الخوف. وأوجس فزعًا: أحس به. وأوجست الأذن: سمعت حسًّا.

[٢٩٨] تعشى: أكل طعام العشاء، وقيل دخل في العشاء. أنحى: اعتمد. ظلوف: ج ظلف؛ وهو من الشاء والبقر والظباء بمنزلة القدم من الإنسان، وفي المصباح كالظفر من الإنسان. المكنس: مولج الظباء والبقر تستكنُّ فيه من الحر، يريد أنه اعتمد بأظلافه يثير التراب ليتخذ فيه مبيتًا يبيت فيه ومكنسًا يأوي إليه.

[٢٩٩] هال التراب: حرك أسفله فسال من أعلاه، أو أرسله فجرى. وهال الرمل: دفعه. يذري: يفرق التراب عن وجه الأرض. نَبَث التراب: نبشه وحفره بيده. ونبَّاث الهواجر: الذي ينبث التراب في وقت الهاجرة لتباشر إبله برد الثرى فيُسكن عطشَها الثرى. المخمس: الذي ترد إبله الخمس؛ قال رؤبة عن أبيه: ما وصف الثور الوحشي بأحسن من هذا الوصف في هذا البيت. ورواه في اللسان:

يثير ويبدي تربها ويهيله

[٣٠٠] أحم: أسود. كردس الأسير: أوثقه؛ يريد أن ضجعته مثل ضجعة الأسير، وقد تكردس؛ أي تجمع وتقبض.

وبـات إلـى أرطـاةَ حـقـف كـأنـهـا   إذا ألْـثَـقـتْـها غَبْيَةٌ بيتُ معرس[٣٠١]
فـصـبَّـحـه عـنـد الـشـروق غُـدَيَّـة   كلاب ابن مُر أو كلاب ابن سِنبس[٣٠٢]
مـغـرثـة زرقًـا كـأن عـيـونـهـا   من الذَّمْر والإيحاء نُوَّارُ عَضْرَس[٣٠٣]
فـأدبـر يـكـسـوهـا الـرغـام كـأنـهـا   على الصمد والآكام جَذْوة مُقْبِس[٣٠٤]
وأيـقـنَّ إن لاقـيْـنَـه أن يـومـه   بذي الرِّمْث أو ماوتْنَه يوم أنفُس[٣٠٥]
فـأدركنه يـأخـذن بـالـساق والنَّـسا   كما شَبْرَقَ الولدان ثوب المقدس[٣٠٦]
وغـوَّرْنَ فـي ظـل الـغـضـا وتـركْـنَـه   كفحل الهجان الفادر المتشمس[٣٠٧]

[٣٠١] الأرطأة: نوع من الشجر. الحقف: ما اعوج من الرمل. ألثقتها: ندَّتها وبلتها. الغبية: الدفعة من المطر. المعرس: الباني بأهله؛ يقول: إذا أصابها مطر فاحت منها رائحة طيبة كأنها بيت معرس.

[٣٠٢] ابن مر وسنبس: صائدان معروفان.

[٣٠٣] مغرثة: مجوعة. زرقًا: ازرقت عيونهم من العطش، ورواه في اللسان وغيره «مغرثة حصًّا» ج أحص؛ أي انحص شعرها؛ أي انجرد وتناثر. الذمر: الحث مع لوم واستبطاء. الإيحاء: الإيماء والإشارة، وأن تكلمه بكلام تخفيه عن غيره، ويروى: «من الدم والإيساد» يقال أوسد الكلب: إذا أغراه، ويروى: «من الزجر والإيحاء.» العضرس: شجرة لها زهرة حمراء، وقيل نبات له لون أحمر تشبه به عيون الكلاب.

[٣٠٤] الرغام: التراب. الصمد: ما غلظ من الأرض وارتفع لا يبلغ أن يكون جبلًا. آكام: ج أكمة؛ وهي التل. الجذوة: الجمرة أو عود غليظ أخذ فيه نار؛ وهي القبس. وأقبسه: أعطاه قبسًا.

[٣٠٥] الرمث: شجر من الحمض. وذو الرمث: الموضع فيه ذلك. يومه: حتفه وموته. ماوته: صابَرَه وثابَتَه. يوم أنفس: يُريد يومًا تُقتل فيه أنفس كثيرة من الكلاب التي يقتلها هذا الثور.

[٣٠٦] أدركه: لحقه. يأخذن بالساق: أي أخذت تعضه بساقه. النَّسا: عرق في الفخذ. شبرق: قطع ومزق. المقدس: الراهب ينزل من صومعته إلى بيت المقدس فيأخذ الصبيانُ خيوطًا من ثيابه يتبركون بها حتى يتمزق عنه ثوبه، ورواه في اللسان «ثوب المقدسي»، والنسبة إلى بيت المقدس «مقدسي» و«مُقدَّسي»، وقيل يعني بهذا البيت يهوديًّا.

[٣٠٧] غور: نزل في القائلة ونام في ذلك الوقت. الهجان: البيض الكرام من الإبل، وروي: «كقرم الهجان.» والقرم: الفحل يترك من الركوب والعمل ويودع للفحلة. الفادر: العاجز عن الضراب. المتشمس: القوي الشديد.

وقال يصف الناقة أيضًا:

ومُجِدَّةٍ نسَّأْتُها فتكمَّشت　　رَتْكَ النعامة في طريقٍ حام[٣٠٨]
تَخْدي على العِّلات سامٍ رأسها　　روعاء مَنسمها رثيم دام[٣٠٩]
جالت لتصرعني فقلت لها اقصري　　إني امرؤ صرعي عليك حرام[٣١٠]
فجزيت خير جزاء ناقة واحد　　ورجعت سالمة القرا بسلام[٣١١]

وقال من قصيدة يصف الفرس والرمح والسيف والدرع:

وأعددتُ للحرب وثَّابة　　جواد المحَثَّة والمُرْوَد[٣١٢]
سبوحًا جموحًا وإحضارها　　كمعمعة السعَف الموقَد[٣١٣]

[٣٠٨] جدَّ: أسرع. وأجدَّ: أسرع. وأجدَّ: صار ذا جد واجتهاد. ويقال للناقة: إنها لَمُجدة بالرجل: إذا كانت جادة في السير، فمن قال مَجِدَّة فهي مِن جَد يجد، ومن قال مُجدة فهي من أجدَّت؛ أي أسرعت. نسأها: زجرها وساقها؛ كَنَسَاهَا. تكمشت: أسرعت. رتكت الناقة، ترتك رتْكًا ورتَكًا: مشت في اهتزاز، وقد يستعمل في غير الإبل. حامٍ: شديد الحر.

[٣٠٩] تخدي: تسرع. على العلات: أي على كل حال. سامٍ: مرتفع. روعاء: حديدة الفؤاد شهمة ذكية. المنسم: طرف الخف أو الظفر الذي في يد الناقة. رثيم: كل ما لطخ بدم أو كسر فهو رثيم، ومنسم رثيم أدْمته الحجارة. ودَمِيَ (كَتَعِبَ): خرج منه الدم فهو دامٍ، ويروى:

يأتي عليها القدم واهٍ خفها　　عوجاء منسمها رثيم دام

[٣١٠] هكذا روي، وفيه إقواء.

[٣١١] القرا: الظهر، ولعله أول من دعا للناقة بالسلام وسلامة الظهر.

[٣١٢] أعددت: هيأت. وثب: طفر وقفز؛ أي إنها تثب وثبًا في مشيها لمرحها. وفرس: جواد رائع بيِّن الجودة. المحثة: مِن حَثَّه إذا حضه. وفرس جواد المحثة: إذا حث جاءه جري بعد جري. المرود: مصدر من أرود إذا رفق؛ يريد أنه جواد إذا حث على السرعة وإذا رفق في سيره.

[٣١٣] سبح الفرس: مد يديه في جريه كالسابح. جمح: اعتز فارسه وغلبه. الإحضار: ارتفاع الفرس في عدْوه. المعمعة: صوت الحريق في القصب ونحوه والعمل في عَجَل. السعف: جريد النخل أو ورقه، وأكثر ما يقال إذا يبست.

ومطَّردًا كَرِشاء الجرُو ... رِ من خُلُب النخلة الأجرد[٣١٤]
وذا شُطَب غامضًا كلْمُه ... إذا صاب بالعظم لم ينأد[٣١٥]
ومشدودة السك موضونة ... تضاءلُ في الطي كالمبْرد[٣١٦]
تفيض على المرء أردانها ... كفيض الأتي على الجدجد[٣١٧]

وقال من قصيدة يصف السيف:

متوسدًا عضْبًا مضاربه ... في متنه كمدبَّة النمل[٣١٨]
يدعى صقيلًا وهْو ليس له ... عهد بتمويه ولا صقل[٣١٩]

وقال يصف الغيث:

ديمة هطلاء فيها وطف ... طبق الأرض تحرى وتدر[٣٢٠]

---

[٣١٤] رمح مطرد: مستقيم مستوٍ. الرشاء: الحبل. الجرور: الفرس يمنع القياد والبطيء، والبئر البعيدة القعر. وبئر جرور: يستقى منها على بعير يجر دلوها على شفيرها لبعد قعرها. وبعير جرور: يسنى به. الخلب: لب النخلة والليف والحبل منه الصلب الرقيق. الأجرد — في الأصل: قصير الشعر أو الذي لا شعر عليه.

[٣١٥] الشُّطْبة والشطَبة: طريق السيف، والجمع شطب، كغُرَف وكُتُب. غمض السيف في اللحم: غاب. الكلم: الجرح؛ أي يغيب في اللحم فيكون جرحه غامضًا عميقًا غير ظاهر. صاب يصيب: أصاب. ينأد: يعود ويعطف.

[٣١٦] السك: السد والدرع الضيقة الحِلَق، ويروى: «مسرودة السك.» والسرد: نسج الدرع وسائر الحلق. الموضونة الدرع: المنسوجة حلقتين حلقتين أو بالجواهر. تضاءل: تصغر وتنحف إذا طويت حتى تصير كالمبرد.

[٣١٧] تفيض: تسيل. الأردان: ج ردن؛ أصل الكم. الأتي: السيل. الجدجد: الأرض الصلبة المستوية.

[٣١٨] توسد الشيء: جعله وسادة له. والعضب: السيف القاطع. ومضرب السيف: حده ومتنه. مدب النمل: مجراه.

[٣١٩] صقيل: مصقول مجلوٌّ.

[٣٢٠] الديمة: المطر الدائم في سكون بلا رعد وبرق أو يدوم يومًا وليلة أو أكثر. الهطل: تتابع المطر المتفرق العظيم، والمطر الضعيف الدائم؛ ديمة هطلاء وهطل. الوطف: الاسترخاء لكثرة مائها. وفيها

تُخرج الودَّ إذا ما أَشْجَذَت وتواريه إذا ما تَشْتَكر[٣٢١]
وترى الضَّب خفيفًا ماهرًا ثانيًا برثنه ما ينعفر[٣٢٢]
وترى الشَّجْراء في ريِّقها كرءوسٍ قطعت فيها الخُمُر[٣٢٣]
ساعةً ثم انتحاها وابلٌ ساقط الأكناف واهٍ منهمر[٣٢٤]
راح تَمريه الصبا ثم انتحى فيه شؤبوب جنوب منفجر[٣٢٥]
ثجَّ حتى ضاق عن آذيِّه عرض خيْم فخُفاف فيُسُر[٣٢٦]
قد غدا يحملني في أنفه لاحق الأيطل محبوك مُمر[٣٢٧]

وطف: تدلت ذيولها. الطبق: غطاء كل شيء. والطبق من كل شيء: ما ساواه. والطبق من المطر: العام، يريد أنها عمت الأرض كأنها طبق لها. تحرى: تقصَّد وتعمَّد. وتحرى بالمكان: تمكث. ندر: تصب وتسيل.

[٣٢١] الود: الوتد وجبل. أشجذت: ضعف مطرها. أو أنجمت: أقلعت بعد الإثجام. تواريه: تستره وتغطيه. تشتكر: يكثر ماؤها ويجدُّ مطرها، ويروى تعتكر: أي تشتد.

[٣٢٢] الماهر: الحاذق بكل عمل والسابح المجيد. ثانيًا: لاويًا عاطفًا. البرثن: الكف مع الأصابع والمخلب. ينعفر: يتمرغ في التراب؛ أي لا يصيبه ولا يلصق به.

[٣٢٣] الشجراء: الشجر. ريقها: أولها. الخمر: ج خمار.

[٣٢٤] انتحاها: قصدها واعتمدها. الوابل: المطرُ الشديدُ الضخمُ القطرِ. الأكناف: النواحي. وهَى الشيءُ: تخرقَ وانشقَّ واسترخى. ووهى السحاب: انبثق شديدًا. منهمر: سائل منسكب.

[٣٢٥] راح: جاء بالعشي. تمريه: تستخرج ماءه. الصبا: ريح مهبها من مطلع الثريا إلى بنات نعش. الشؤبوب: الدفعة من المطر، وحد كل شيء وشدة دفعه. الجنوب: ريح تخالف الشمال مهبها من مطلع سهيل إلى مطلع الثريا. منفجر: سائل.

[٣٢٦] ثج: سال. آذيه: موْجه. العرض: الجبل أو سفحه أو ناحيته. والعرض: السعة. خيم وخفاف ويسر: مواضع.

[٣٢٧] أنف المطر: أول ما أنبت. لاحق: ضامر. الأيطل: الخاصرة، ويروى: «الإطلين»؛ أي الخاصرتين. محبوك: شديد الخلق. ممر: مِن أَمَرَّ الحبل إذا أحكم فتله، أو مِن المِرَّة وهي القوة.

وقال يصف البرق والسحاب:

أَعِنـي عـلـى بـرق أراه ومـيـض　　يضيء حبيًّا في شماريخ بيض[٣٢٨]
ويـهـدأ تـارات سـنـاه وتـارة　　ينوء كتعتاب الكسير المهيض[٣٢٩]
وتـخـرج مـنـه لامـعـات كـأنـهـا　　أكف تَلَقَّى الفوز عند المُفيض[٣٣٠]
قـعـدت وأصـحـابـي بـيـن ضـارج　　وبـيـن تـلاع يـثـلـث فـالـعـريض[٣٣١]
أصاب قُطيَّات فسال اللوى لها　　فَوادي البدي فانتحى للأريض[٣٣٢]
بِـمـيـث دِمـاث فـي ريـاض أثـيـثـة　　تُحيل سواقيها بماء فضيض[٣٣٣]
بـلاد عـريـضـة وأرض أريـضـة　　مَدافع غيث في فضاء عريض[٣٣٤]

[٣٢٨] أعني: أسعدني. ومض وميضًا: لمع خفيفًا ولم يعترض في نواحي الغيم. الحبي (بفتح الحاء وضمها): السحاب يشرف من الأفق على الأرض، أو الذي بعضه فوق بعض. الشماريخ: رءوس الجبال وأعالي السحاب.

[٣٢٩] يهدأ: يسكن. التارة: المرة والحين. السنا: الضوء. ينوء: ينهض، يجهد. التعتاب: مصدر من عتب يعتُب ويعتِب: إذا مشى على ثلاث قوائم من العُقر وإذا وثب برِجل ورفع الأخرى. الكسير: المكسور. المهيض: الذي كسر بعد جبر.

[٣٣٠] تلقى: تتلقى وتتناول. الفوز: الظفر والربح. المفيض: الذي يفيض قداح الميسر؛ أي يضرب بها.

[٣٣١] ضارج: موضع. تلاع: ج تَلْعَة؛ ما ارتفع من الأرض، وما انهبط منها (ضدٌّ)، ومسيل الماء في الصحاري إلى الأودية. يثلث (على وزن يضرب ويمنع): موضع، وكذا العريض.

[٣٣٢] قطيات: وادٍ. اللوى: ما التوى من الرمل، أو ما استرق منه. وادي البدي: موضع. الأريض (ويروى البريض): بلد أو وادٍ.

[٣٣٣] ميث: ج ميثاء؛ الأرض السهلة. دماث: ج دَمِثَة؛ المكان السهل. الرياض: ج روضة؛ وهي الأرض الخضرة والموضع يجتمع إليه الماء فيكثر نبته. أثيثة: كثيرة النبات مُلْتَفَّتُهُ. تحيل: تصب. الفضيض: العذب، وكل متفرق من ماء المطر والبرد.

[٣٣٤] عريضة: واسعة. أرض أريضة: زكية معجبة للعين خليقة للخير. مدافع: ج مدفع؛ وهو مسيل يدفع فيه الماء ويجري. الفضاء (كسحاب): ما اتسع من الأرض، و(ككساء): الماء يجري على وجه الأرض. العريض: الواسع، ويروى: «مدافع ماء.»

فأضحى يَسُحُّ الماء عن كل فيقة يحور الضباب في صفاصف بيض[٣٣٥]
فأسقي به أختي ضعيفة إذ نأت وإذ بعُد المزار غير القريض

وقال يصف البرق والسحاب والغيث وما أثره:

أصاح ترى برقًا أريك وميضه كلمع اليدينِ في حَبِيٍّ مُكلل[٣٣٦]
يُضيءُ سَناهُ أوْ كمصباح راهِبٍ أهان السليط في الذُّبال المفتَّل[٣٣٧]
قَعَدْتُ لَهُ وصُحبتي بينَ ضارِج وبين العُذيْب بُعدَ ما متأملي[٣٣٨]
علا قَطَنًا بالشَّيْمِ أيْمَنُ صَوْبِهِ وأيْسَرُهُ على الستارِ فَيَذْبُلِ[٣٣٩]
وأضحى يسحُّ الماء عن كل فيقة يكبُّ على الأذقان دوحَ الكَنَهْبُلِ[٣٤٠]
كأن مكاكيَّ الجواء غُديَّة صُبِحنَ سلافًا من رحيقٍ مفلفل[٣٤١]

[٣٣٥] يسح: يصب. الفيقة: ما اجتمع من الماء في السحاب، وأصلها اللبن الذي يجتمع بين الحلبتين. عن بِمعنى بعْد. يحور: يرجع. الضباب: سحاب رقيق كالدخان. الصفصاف: ج صفصف؛ المستوي من الأرض.

[٣٣٦] وميضه: لمعه الخفيف. لمع اليدين: تحريكهما. الحبي: السحاب بعضه فوق بعض، والسحاب الذي يعترض اعتراض الجبل قبل أن يطبق السماء. والسحاب المكلل هو السحابة يكون حولها قطع من السحاب، فهي مكللة بهن. وسحاب مكلل: ملمع بالبرق، وفي التبريزي المكلل: «المستدير كالإكليل والمتبسم بالبرق.»

[٣٣٧] سناه: ضوءُه. المصباح: السراج، ويروى: «أو مصابيح راهب.» أهان: أذل. السليط: الزيت؛ أي أكثره. الذبال: ج. ذبالة؛ الفتيلة. المفتل: المفتول، شدد للكثرة.

[٣٣٨] ضارج والعذيب: موضعان. بُعد ما متأملي: أي يا بعد ما أتأمله!

[٣٣٩] قطن: جبل لبني أسد في نجد. شام البرق شيمًا: نظر إليه أين يقصد وأين يمطر.

[٣٤٠] يكب: يقلب. الأذقان: ج ذقن؛ مجتمع اللحيين من أسفلهما. الدوح: ج دوحة؛ الشجرة العظيمة. الكنهبل: شجر عظام؛ أي إن هذا المطر اقتلع هذه الأشجار فألقاها على الأرض كأنما كبها على وجوهها وأذقانها.

[٣٤١] مكاكي: ج مكاء؛ طائر حسن الصوت. الجواء: البطن الواسع من الأرض، وموضع. غُديَّة: مصغر غداة. وأما غَديَّة: فلغة في غدوة؛ كضحيَّة وضحْوَة. صبحن: سقين صبوحًا؛ وهو ما بات من الشراب فشربوه، وما شرب صباحًا. السلاف: الخمر أو ما سال منها من غير عصر. الرحيق: أطيب الخمر أو

وَمَرَّ علـى القَنَـانِ مِـنْ نَفَـيَانِـهِ فَأَنْزَلَ مِنْهُ العُصْمَ مِن كل مَوئِلِ[٣٤٢]
وَتَيْمَاءَ لَمْ يَتْرُكْ بِهَا جِذْعَ نَخْلَة وَلَا أُطُمًا إلا مَشِيْدًا بِجَنْدَل[٣٤٣]
كأَنَّ ثَبِيرًا فـي عَرَانِـينِ وَبْلِهِ كَبِيرُ أُنَاسٍ في بِجادٍ مُزَمَّلِ[٣٤٤]
كَأَنَّ ذُرَى رَأْسِ المُجَيمِرِ غُدْوَةً مِنَ السَّيلِ والغُثاءِ فَلْكَةُ مِغْزَل[٣٤٥]
كَأَنَّ سباعًا فيهِ غَرْقَى غديةً بِأَرْجَائِهِ القُصْوَى أَنَابِيْشُ عُنْصُل[٣٤٦]

الصافي. مفلفل: يَلْذَعُ لَذْعَ الفلفل؛ يريد أن المكاكي في وقت الغداة تتابع التصويت كأنما سُقيت شرابًا مفلفلًا يلذعها فتصيح.

[٣٤٢] القنان: جبل. نفيانه: ما تطاير منه. العصم: ج أعصم؛ الوعل في ذراعيه أو أحدهما بياض وسائره أحمر أو أسود. الموئل: مستقر السيل والملجأ. يريد أن نفيان المطر أصاب هذا الجبل، فكاد يغرق الأوعال في مقارها الحصينة، فنزلت منها هربًا منه، ولا ينزلها إلا الأمر الجلل.

[٣٤٣] التيماء: الأرض التي لا ماء فيها ولا نحو ذلك. وتيماء: بُليد في أطراف الشام بين الشام ووادي القرى. جذع النخلة: ساقها. الأطم: الحصن المبني بالحجارة والقصر، وكل بيت مربع مسطح. شاد الحائط: طلاه بالشيد، وهو ما يطلى به من جص ونحوه فهو مشيد. الجندل: الحجارة.

[٣٤٤] ثبير: جبل بظاهر مكة. عرانين: ج عرنين؛ وهو من كل شيء أوله. الوبل: المطر الشديد، والضخم القَطْر، ويروى:

كأن أبانًا في أفانين ودقه

أبان: جبل. أفانين: ج أفنون؛ وهو الضرب من الشيء. وأفنون السحاب: أوله. الودق: المطر. البجاد: الكساء المخطط. المزمل: الملفوف.

[٣٤٥] ذرى: ج ذروة (بضم الذال وبكسرها)؛ أعلى الشيء، رأس الشيء أعلاه. المجيمر: جبل. السيل: الماء الكثير السائل والمجتمع من المطر الجاري في الأودية. الغثاء (كغرَاب ورمَّان): القمش، والبالي من ورق الشجر الذي إذا خرج السيل رأيتَه مخالطًا زبده. المغزل (مثلث الميم): ما يغزل به. فلكة المغزل: ما استدار منه؛ يريد أن هذا الجبل أحاط به السيل والغثاء، فلم يبقَ إلا رأسه المستدير كفلكة المغزل.

[٣٤٦] كأن سباعًا في … يروى: «كأن السباع.» غرقى: ج غريق. بأرجائه: بنواحيه. القصوى: البعيدة. والقصوى: طرف الوادي. أنابيش: ج أنبوش؛ أصل البقل أو الشجر المقتلع بأصله. العنصل: البصل البري، ويقال بصل الفار والإسقيل والإسقال.

وَأَلْقَى بِصَحْراءِ الغَبِيْطِ بَعَاعَه نُزُولَ اليَمَانيْ ذي العِيَابِ المُحَمَّل[٣٤٧]

وقال يصف الليل:

وليلٍ كموج البحر أرخى سدوله علي بأنواع الهموم ليبتلي[٣٤٨]
فقلت له لما تمطَّى بصلبه وأردف أعجازًا وناءَ بكَلْكَلِ[٣٤٩]
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي بصبح وما الإصباح منك بأمثل[٣٥٠]
فيا لك من ليل كأن نجومه بكل مغار الفتل شدت بِيَذْبُل[٣٥١]

[٣٤٧] الغبيط: الأرض المطمئنة الواسعة المستوية، يرتفع طرفاها، ومسيل من الماء بشق في القف، وأرض لبني يربوع. البعاع: ثقل السحاب من المطر. وألقى السحاب بعاعه: كل ما فيه من المطر. اليماني: التاجر اليماني. العياب: ج عيبة؛ ما يجعل في الثياب.

[٣٤٨] شبه الليل بموج البحر في كثافة ظلمته أو في هوله ونكارة أمره. أرخى: أرسل وأسدل. السدول: ج سدل؛ الستر. والباء في قوله «بأنواع» بمعنى «مع». الهموم: الأحزان. ليبتلي: ليختبر ما عندي من الصبر والجزع.

[٣٤٩] تمطى: تمدد؛ من مطا الشيء إذا مده، أو محول من التضعيف، أصله تمطَّط، كما يقال تظنَّى، من الظن، وتقضَّى من التقضض. الصلب: عظم من لدن الكاهل إلى العجب، ويروى: «تمطى بجوزه»؛ أي وسطه. أردف: أتبع. أعجاز: ج عجز. ناء: بمعنى بعد، مقلوب نأى، أو تهيأ لينهض، أو من ناء بالحمل: نهض به مثقلًا. الكلكل: الصدر. قال بعضهم: معنى البيت: ناء بكلكله، وتمطى بصلبه، وأردف أعجازًا، فقدم وأخر، واستعار لليل صلبًا وأراد وسطه، وكلكلًا وأراد به أوله، وأعجازًا وأراد مآخيره. قال الأصمعي: «معناه حين رجوت أن يكون قد مضى أردف أعجازًا.»

[٣٥٠] انجلِ: انكشِفْ. الإصباح: الصبح. أمثل: أفضل وأدنى إلى الخير. ومعنى البيت: ليس الصبح بأمثل منك عندي؛ لأني أقاسي فيه من الهموم ما أقاسي فيك، ويروى:

وما الإصباح فيك بأمثل!

ومعناه أن جاءني الصبح وأنا فيك فليس ذلك بأمثل؛ لأن الصبح قد يجيء والليل مظلم، وقيل معناه: وما الإصباح في جنبك أو بالإضافة إليك أفضل منك؛ لأني أقاسي فيه مثل ما أقاسي فيك، وهو لا يعقل، ومخاطبته الليل مخاطبة مَن يعقل يدل على شدة الوله والتحير.

[٣٥١] يا لك من ليل: فيه معنى التعجب المستفاد من اللام؛ أي يا عجبًا لك من ليل! المغار: المحكم الفتل. يذبل: جبل في بلاد نجد؛ أي كأن نجومه ربطت بحبل محكم الفتل بيذبل، فلا تسير من أماكنها، كَنَى

كأن الثريا علقت في مصامها   بأمراس كتان إلى صم جندل[٣٥٢]

ولقد أجاد امرؤ القيس غاية الإجادة في وصف الليل؛ إذ شبهه بموج البحر في شدة ظلمته وتتابع أهواله الكثيرة، وإذ جعل له سدولًا لتكون ظلماته أشد، وبرع غاية البراعة في استعارته لليل الصلب والعجز والكلكل، وفي كنايته عن طوله بشد نجومه بيذبل، وفي مخاطبته إياه مخاطبة الند للند، ولا يعلم لشاعر من المتقدمين وصف لليل يساوي وصف امرئ القيس هذا أو يتقدمه.

وقد تشاجر[٣٥٣] الوليد بن عبد الملك وأخوه مسلمة في شعر امرئ القيس والنابغة في وصف الليل، أيهما أجود، فرضيا بالشعبي، فأحضر، فأنشده الوليد أبيات النابغة الثلاثة:

كليني لهم يا أميمة ناصب …

وأنشد مسلمة قول امرئ القيس:

وليل كموج البحر …

فضرب الوليد برجله طربًا، فقال الشعبي: بانت القضية!

بذلك عن طول الليل، ويروى:

… … … كأن نجومه   بأمراس كتان إلى صم جندل

والرواية الأولى أعرف وأشهر وأسير. الأمراس: ج مرَس: ج مرسة. وقد يكون المرس للواحد. الصم: الصلاب المصمتة. الجندل: الحجارة.

[٣٥٢] الصوم: القيام بلا عمل. وصام الفرس: أمسك عن العمل مع قيامه. ومصام الفرس: مقامه وموقفه. ومصام النجم: معلقه. ويروى: «على صم جندل» يقول: كأن الثريا مشدودة معلقة في موقفها بحبال من كتان على حجارة صلبة، فهي لا تنتقل ولا تسير، يريد طول الليل. ويروى هذا البيت عند وصفه الفرس، والمعنى حينئذ أنه شبه تحجيل الفرس في بياضه بالثريا، وشبه حوافره بالحجارة، وقد علقت الثريا في مقام الفرس بحبال من كتان من تلك الحوافر. الثريا: تصغير ثروى؛ مقصورة.

[٣٥٣] الخزانة والموشح.

الخلاصة

إن امرأ القيس بلغ من الإجادة في الوصف، ولا سيما وصف الخيل، ما لم يبلغه غيره من شعراء الجاهلية وغيرهم. وافتنانه في وصف الشيء الواحد، وإيراده في صور مختلفة أو متقاربة، كلها في الدرجة القصوى من البراعة، شاهد عدل على أن امرأ القيس شاعر فذ، خنذيذ مُفْلِق، أتى بما لم تستطعه الأوائل والأواخر.

وصف الفرس

وصف الفرس في مواضع من شعره، ولم يكد يدع وصفًا حسنًا إلا وصفه به وأجاد فيه.

وإذا أمعنت النظر في معلقته، تبين لك أن فرسه فيها منجرد، قيد الأوابد، هيكل، مكر، مفر، مقبل مدبر معًا، سريع كالحجر الذي حطه السيل من مكان عال، كُميت اللون، مصقول المتن، جياش مع ضموره، مِسَح حين يعيا غيره، لا يستطيع أن يستقر على ظهره راكب لسرعته، سريع كخذروف الوليد، يشبه الظبي في ضمور خاصرتيه، والنعامة في قصر ساقيها، والذئب في إرخائه، والتتفل في تقريبه. وهو قوي، سابغ الذنب، ليس بأعزله، يشبه ظهره مداك العروس في اكتنازه وملاسته ولمعانه، مخضب النحر بدماء الصيد، يوالي بين ثور ونعجة في طلق واحد، تام الحسن، إذا نظرتْ العين أعلاه لا بد أن تنظر أسفله؛ لأنه حسن كله، وبعد أن اصطاد عليه بات ينفض رأسه من المرح والنشاط؛ لأنه لم يتعب في الصيد.

وهذا الفرس اصطاد عليه، فوصفه بكل ما يتطلبه الوصف لهذا الغرض: من قوة وصلابة وسرعة ونشاط، وشبَّهه بأجمل ما عند أهل البادية من المشبهات بها، للدلالة على الأغراض التي يقصدها. ولم يصف جميع أعضائه؛ لأن غرضه أن يصفه بما يتطلبه الصيد، وهذا لا يتوقف عليه ذكر الأعضاء وما شاكلها.

وأما فرسه في مَواطن أخرى من شعره، فهو: منجرد، قيد الأوابد، غيَّره مطاردة السوابق من الوحش، جيَّاش مع تعبه، كأن ظهره سرحة مرقب، وكأنه عود مشجب، يشبه الظبي في خاصرتيه، والنعامة في ساقيها، والعير في صهوته، حوافره صلبة مصفرة كحجارة الغَيْل، وكفله كالدعص الملبَّد، وحاركه كالغبيط المذأَّب، وعينه كمرآة الصناع، وأذناه كريمتان حسنتان كأذني البقرة الوحشية المذعورة، وذفراه مستديرة، ورأسه عالٍ، وذنبه أسود، كثير الشعر، ريان العسيب، إذا أسرعَ سمعت له حفيفًا كحفيف الأثأب إذا

ضربته الريح، قطاته كالمحالة، يغير ما به يومًا على بقر الوحش، ويومًا على حُمرها، وهو محبوك الظهر، محنب، سريع كشؤبوب العشي، سريع كالخذروف، يدرك الصيد من غير أن يجهد، أزعج الفأر من أنفاقها، وعادى بين ثور ونعجة وبين شبوب، وترك للثيران غماغم، وهي بين كابٍ على جبينه ومتَّقٍ بقرنه، وقد تأذى من رائحة عرقه، فجعل ينفض رأسه، وتلطخ نحره بدماء الهاديات وذَنَبه ضافٍ فويق الأرض.

وقد وصف كثيرًا من أعضائه؛ كعينه، وأذنه، وذفراه، ورأسه، وشعره، وعذره، وسالفته، وجبهته، ومنخره، وظهره، وخاصرتيه، وحاركه، وصدره، وكفله، وقطاته، وذَنَبه، وساقيه، وحوافره، وثننه. ولم يكد يدع شيئًا من أعضائه، وشبهه بتشبيه رائع مؤنق، ووصفه مقبلًا ومدبرًا ومعرضًا، ونعته بالسرعة والنشاط والتقدم.

وقص علينا اصطياده عليه، ووثوقه بالصيد منذ ركبه، وكثرة الصيد الذي ألقيت عيونه حول الخباء، كل ذلك بأسلوب ساحر عذب.

وقد افتنَّ في التشبيه افتنانًا يدل على براعة رائعة، ومَلَكَة مطاوعة، وكثيرًا ما يشبِّه العضو الواحد بأشياء متعددة مختلفة؛ فقد شبه ظهره بمداك العروس، وصلابة الحنظل، وصهوة العير، وعرف الرخامى، وسرحة مرقب.

وشبه حافره بعقب الوليد، وحجارة الغيل الوارسة، والملاطس، وهكذا كثير من أعضائه.

ووصفه بالسرعة بأبيات لا يمكن لغيره أن يحوم حولها أو يدانيها مثل قوله:

على هيكل يعطيك قبل سؤاله   أفانين جرْي غير كزٍّ ولا وانِ

وقوله:

على ربذٍ يزداد عفوًا إذا جرى   مِسَحٍّ حثيث الركض والذألانِ

وقوله:

... ...   كجلمود صخر حطه السيل من علِ

وقوله:

درير كخذروف الوليد ... ...

وقوله:

يجم على الساقين بعد كلاله جموم عيون الحسي بعد المخيض

وقوله:

وولَّى كشؤبوب العشي بوابل ... ...

وقوله:

سبوحًا جموحًا وإحضارها كمعمعة السعف الموقد

وقوله:

كأني بفتخاء الجناحين لقوة صيود من العقبان طأطأت شملالا

وقوله:

كأن غلامي إذ علا حال متنه على ظهر باز في السماء محلق

وقوله:

يخرجن من خلل الغبار عشية بالدارعين كأنهن ظباء

وبهذا وأمثاله يتضح لنا معنى قولهم: «أشعر الناس امرؤ القيس إذا ركب.»

وصف الناقة

أما وصف الناقة فلا يقل في إجادته وبراعته عن وصف الفرس؛ فقد وصفها في مواطن من شعره، فهي: أدماء، طويلة، جسرة، ذمول، بعيدة بين المنكبين، كأن قطًّا مربوطًا عند ضفرها، صلبة، قوية، قوية كألواح التابوت، قوائمها صلاب غلاظ.

وهي نشيطة، سريعة تطاير الحصى فيصك بعضه بعضًا، حتى كأنه صليل زيوف في يد النقاد.

وقد شبهها مرة بحمار وحش عنيف بتجميع الضرائر، أورد أُتُنَه ماء، وهن يحاذرن صيادًا من بني ثعل.

وشبهها أخرى بحمار بات إلى أرطاة، فصبحته كلاب ابن مر، أو ابن سنبس، فأدبر يثير التراب، ثم أدركنه، فأخذن بساقه ونساه ثم تركنه. وشبهها بالظليم في قوله:

كأني ورحلي والقراب ونُمْرُقي إذا شبَّ للمرو الصغار وبيص[٣٥٤]
على نقنق هيق له ولعرسه بمنعرج الوعساء بيض رصيص[٣٥٥]

وصف كلب الصيد

وصف كلب الصيد بأنه فغم، داجن، تبوع، طلوب، نكر، ألص الضروس، وقص علينا كيف أنشب أظفاره في نسا ثور الوحش، وكيف كر هذا بمبراته، وأدخلها في الكلب، فيجعل يرنح ويستدير، كالحمار النعر.

وهو الذي مهد السبيل للنابغة وزهير، وفتح لهما هذا الباب، فوصفا كلاب الصيد، وما دار بينها وبين الثور الذي شبها به الناقة من المواثبة والعراك، وهما طبعًا على غرار امرئ القيس، وترسما خطاه في ذلك.

---

[٣٥٤] القراب: غمد السيف. النمرق: الطنفسة فوق الرحل. شب: أوقد. المرو: ج مروة؛ حجارة بيضاء براقة توري النار. وبيص: لمعان وبرق.

[٣٥٥] نقنق: ذكر النعام أو النافر. الهيق: ذكر النعام أيضًا. والدقيق: الطويل. المنعرج: المنعطف. الوعساء: رابية من رمل لينة، وموضع. بيض: ج بيضة. رصيص: بعضه فوق بعض.

وصف الغيث والسيل

وقد وصف المطر وصفًا دقيقًا رائعًا، فجعل الديمة الهطلاء طبق الأرض؛ إذا ضعفت أظهرت الجبل، وإذا اشتدت وارته، وجعل الشجر كرءوس فيها خمر مقطعة، ثم كثر المطر حتى ضاقت عن موجه خيم وخُفاف ويسر.

وجعله في موضع آخر يكب دوح الكنهبل، وينزل العصم عن موائلها، ولم يدعْ نخلة بتيماء إلا اقتلعها، ونزل على ثبير فجعله كالشيخ المزمل في البجاد، وأحاط بالمجيمر حتى صار رأسه كلفلكة المغزل، وعامت السباع الغرقى فيه كأنها أنابيش عنصل.

ووصف البرق وشبَّهه بلمع اليدين مرة، وبِتَعْتَاب الكسير مرة أخرى، وبالأكف التي تتلقى الفوز عند مفيض القداح مرة ثالثة.

ووصف النبات وشبهه بعد المطر بما في عياب اليماني من الثياب المنقوشة المختلفة الألوان، وشبهه مرة أخرى بألوان عنب الثعلب.

ووصف الدرع والسيف والوادي والليل والذئب وصفًا يدل على براعة فائقة، ومهارة باهرة. ولعل أظهر موطن تتجلى فيه براعته وعبقريته في الوصف وصْف الخيل ووصف النساء، وقد قدمنا أمثلة من شعره تدل على هذا.

(٥) الفخر

علمنا أن امرأ القيس كان مولعًا بالنساء والصيد وما إليهما، مما تقتضيه الصبوة، وكذلك كان شجاعًا فارسًا، طماحًا إلى معالي الأمور، بعد أن أفاق من سكرته، وأيقظه الدهر من رقدته.

وكان شديد الاعتداد بنفسه، واسع الآمال، لا يسعى إلا إلى مجد مؤثل يدركه أمثاله، ولا يقيم ببلدة يأذى بها، وينازل البطل الشديد ولا تطيش سهامه؛ ولذلك استطاع أن يأتي في شعره بصور من الفخر رائعة، كقوله من قصيدة — بعد أن وصف ناقته:

عليها فتًى لم تحمل الأرض مثله أبـرَّ بـمـيـثـاق وأوفـى وأصـبـرا[٣٥٦]

[٣٥٦] الميثاق: العهد.

هو المُنزل الآلاف من جو ناعطٍ بني أسد حزنًا من الأرض أوعرا[٣٥٧]
ولو شاء كان الغزو من أرض حِمير ولكنه عمدًا إلى الروم أنفرا[٣٥٨]
بكى صاحبِي لما رأى الدَّرب دونه وأيقن أنَّا لاحقان بقيصرا[٣٥٩]
فقلت له لا تبك عينُك إنما نحاول ملكًا أو نموت فنعذرا[٣٦٠]

* * *

وكنا أناسًا قبل غزوة قَرْمَل ورثنا الغنى والمجد أكبر أكبرا[٣٦١]
وما جبنت خيلي ولكن تذكرتْ مرابطها في بربعيص وميسرا[٣٦٢]
ألا رُب يوم صالح قد شهدتُه بتأذِفَ ذات التل من فوق طرطرا[٣٦٣]
ولا مثل يوم في قدَاران ظِلته كأني وأصحابي على قرن أعفرا[٣٦٤]
ونشرب حتى نحسب الخيل حولنا نِقادًا وحتى نحسب الجون أشقرا[٣٦٥]

---

[٣٥٧] ناعط: جبل باليمن؛ أي أنزل الآلاف بني أسد في هذا الجبل على كثرتهم ليتحصنوا فيه، وبني أسد بدل من آلاف، أو نصب على النداء، وزعم بعضهم أن الرواية «المنزل الألاف»، وأنهم القصاد الذين ألفوا إحسانه، والأُولى أليق بالفخر، وأقرب إلى البلاغة. الحزن: ما غلظ من الأرض. أوعر: أكثر وعورة، وهي ضد السهولة.

[٣٥٨] أنفر أصحابه: أغزاهم.

[٣٥٩] صاحبه: عمرو بن قميئة، وقد تقدم خبره. الدرب: كل مدخل إلى بلاد الروم.

[٣٦٠] يروى: «لا تبك عيناك.»

[٣٦١] قَرْمَل: مقول استنجد به امرؤ القيس فثبطه، أو غزا، كندة قبل امرئ القيس فأصاب منهم.

[٣٦٢] بربعيص وميسر (كمقعد): موضعان بالشام، وقد أُكرم فيهما.

[٣٦٣] تاذف (كتضرب): بلد على بريد من حلب. طرطر: موضع في الشام وقد أوقع فيهما بعدوِّه.

[٣٦٤] قداران: موضع ظفر فيه أكثر من ظفره بتاذف. الأعفر: الظبي الأبيض ليس بالشديد البياض، أو الذي يعلو بياضه حمرة، وكأنه على قرن ظبي؛ أي على غير طمأنينة، ورواه في التاج:

ولا مثل يوم في قدار ظللته كأني وأصحابي بقُلَّة عندرا

وقدار: موضع. القلة: أعلى الجبل، أو كل شيء. عندر: جبل.

[٣٦٥] نقاد: ج نقد؛ جنس من الغنم قبيح الشكل.

وكان حجر استعان ببني حنظلة من بني تميم، فبعثت بنو أسد إلى حنظلة تسألها أن تخلي بينها وبين كندة، فاعتزلت حنظلة وخذلت حجرًا، فلما التقت أسد وكندة انهزمت كندة وقتل حجر، فأقسم امرؤ القيس لابنة العامري أن تميم بن مر وأشياعها لا يدعون أنه يفر إذا كانت كندة مجتمعة حوله؛ لأن الأرض تحترق إذا ركبوا واستلأموا في اليوم البارد، وذلك حيث يقول:

فلا وأبيك ابنة العامر ... يِّ لا يدعي القوم أني أفر
تميم بن مر وأشياعها ... وكندة حولي جميعًا صُبُر[٣٦٦]
إذا ركبوا الخيل واستلأموا ... تحرَّقت الأرض واليوم قر[٣٦٧]

وقال:

فلو أنما أسعى لأدنى معيشة ... كفاني — ولم أطلب — قليل من المال
ولكنما أسعى لمجد مؤثل ... وقد يدرك المجد المؤثل أمثالي[٣٦٨]

وقال:

وشمائلي ما قد علمت وما ... نبحت كلابك طارقًا مثلي

وكان بين امرئ القيس وبين سبيع بن عوف بن مالك بن حنظلة قرابة، فأتاه امرؤ القيس يسأله، فلم يعطه شيئًا، فقال سبيع أبياتًا يعرِّض فيها بامرئ القيس، فقال امرؤ القيس مجيبًا له من قصيدة:

أبلغ سبيعًا إن عرضت رسالة ... أني كهمك إن عشوت أحامي[٣٦٩]

---

[٣٦٦] أشياع: ج شيعة؛ بمعنى أتباع وأنصار، يقع للواحد والمذكر وغيرهما. صبر: ج صبور.

[٣٦٧] استلأم: لبس اللأمة؛ أي الدرع. تحرقت: احترقت. قر: بارد.

[٣٦٨] المؤثل: المعظم.

[٣٦٩] كهمك: أي كما هممت به وحسبته. عشى النار: رآها ليلًا من بعيد فقصدها مستضيئًا. أحامي: أدافع.

فاقْصر إليك من الوعيد فإنني   مما ألاقي لا أشد حزامي[٣٧٠]
وأنا المنية بعد ما قد نوَّموا   وأنا المعالن صفحة النُّوَّام[٣٧١]
وأنا الذي عرفت مَعَدٌّ فضله   ونَشَدْت عن حُجر ابن أم قطام[٣٧٢]
خالي ابن كبشة قد علمتَ مكانه   وأبو يزيد ورهطُه أعمامي[٣٧٣]
وإذا أذِيت ببلدة ودعتها   ولا أقيم بغير دار مقام[٣٧٤]
وأنازل البطل الكريه نزالُه   وإذا أناضل لا تطيش سهامي[٣٧٥]

وقد تقدم أن امرأ القيس يعد حب النساء له مفخرة يفتخر بها كما يفتخر بشجاعته ورباطة جأشه.

وتقدمت كلمته التي ذكر فيها أنه سما إلى محبوبته بعدما نام أهلها، وهصر بفوديها وراضها فذلت، وافتخر بحبها إياه حتى أصبح معشوقًا لها، وأصبح بعلها سيئ الحال، يغط غطيط البكر، ثم تغنى بقوله:

كأنيَ لم أركب جوادًا للذة   ولم أتبطن كاعبًا ذات خلخال

إلى آخر الأبيات ...

[٣٧٠] اقصر إليك من الوعيد: أمسك وعيدك؛ يريد: إني مما ألاقي لا أحتاج أن أتشدد للأشياء ولا أتحزم لها.

[٣٧١] نوَّموا: ناموا. عالنه: أعلن إليه الأمر وجاهره. الصفحة: الوجه؛ يريد أنه يغير عليهم، فيوقظهم، فيقاتلهم وهم مستيقظون لشجاعته وقدرته عليهم، ويروى: «وأنا المنبَّه» (بفتح الباء)؛ أي اليقظان، ويروى: «المنبِّه» (بكسر الباء)؛ أي أنبه من نام، ومَن روى هذه الرواية قال: المعالي صفحة النوام؛ أي ارفع خدودهم من الأرض إذا استثقلوا من النوم.

[٣٧٢] عرفت معد: خص معدًّا لأن امرأ القيس من اليمن؛ يريد: أن البُعَداء عرفت فضله، فما لك بالقُرَباء. نشد الشعر: أشاد بذكره. وأنشد: رفع صوته. ويروى: «أشدت»؛ أي رفعت وفخرت به.

[٣٧٣] ابن كبشة وأبو يزيد من أشراف كندة. رهط الرجل: قومه وقبيلته.

[٣٧٤] أذيت: تأذيت. البلدة: كل قطعة من الأرض مستحيزة عامرة أو غامرة، وجنس المكان. ودعتها: رحلت عنها. المقام: محل الإقامة.

[٣٧٥] أناضل: أرمي. لا تطيش سهامي: لا تجاوز الغرض.

وقال من قصيدة أخرى يفتخر بنظر أحبائه إليه، وتطربه بالقيان، وكشفه المعضلات، لسداد رأيه، ورجاحة عقله، وشهوده الغارات لشجاعته:

ليالي يدعوني الهوى فأجيبه وأَعْين من أهوى إليَّ روان[٣٧٦]
وإن أُمسِ مكروبًا فيا رُب بهمة كشفت إذا ما اسودَّ وجه الجبان[٣٧٧]
وإن أُمْسِ مكروبًا فيا رب قَينة منعَّمة أعملتها بِكران[٣٧٨]
لها مزهر يعلو الخميس بصوته أجش إذا ما حركتْه يدان[٣٧٩]
وإن أمسِ مكروبًا فيا رب غارة شهدت على أقبَّ رخو اللبان[٣٨٠]

وقال حين أغار على قتلة أبيه في بني كنانة ولم يظفر بهم:

والله لا يذهب شيخي باطلا[٣٨١]
حتى أبير مالكًا وكاهلا[٣٨٢]
القاتلين الملك الحُلاحلا[٣٨٣]
خير معد حسبًا ونائلا[٣٨٤]

٣٧٦ روان: ج رانية؛ مديمة النظر.

٣٧٧ الكرب: الحزن يأخذ بالنفس. البهمة: الخطة الشديدة، والأمر المشكل، والشجاع أو الفارس الذي لا يُهتدى من أين يؤتى له من شدة بأسه، والجيش. كشف: أظهر، ورفع الشيء عما يواريه.

٣٧٨ القينة: المغنية. الكران: العود.

٣٧٩ المزهر: العود. الخميس: الجيش. أجش: غليظ الصوت.

٣٨٠ أغار على القوم غارة وإغارة: دفع عليهم الخيل. شهدت: حضرت. أقب: ضامر البطن. الرخو (بتثليث الراء): الهش اللين من كل شيء. اللبان: الصدر أو وسطه.

٣٨١ يريد بشيخه أباه. باطلًا: ضائعًا؛ أي لا يذهب دمه هدرًا.

٣٨٢ أبير: أهلك. مالك وكاهل: قبيلتان من أسد من قتلة أبيه.

٣٨٣ الحلاحل: السيد الشجاع أو الضخم الكثير المروءة، يريد أباه.

٣٨٤ معد: قبيلة من مضر خصها بالذكر لأن أباه يمني من قحطان. الحسب: ما تعده من مفاخر آبائك، والشرف في الفعل. النائل: العطاء.

وخيرهم قد علموا فواضلا[٣٨٥]
يا لهف هند إذ خطئْن كاهلا[٣٨٦]
نحن جلبنا القرَّح القوافلا[٣٨٧]
يحملننا والأسَل النواهلا[٣٨٨]
مستفرمات بالحصى جوافلا[٣٨٩]
تستثفر الأواخر الأوائلا[٣٩٠]

وقال من قصيدة بعد أن وصف الجواد بأبيات تقدمت وذكر فيها أنه قطع خرقًا بعيدًا كجوف العير مضلة:

ومَجْرٍ كغُلَّان الأُنَيْعَم بالغٍ ديار العدو ذي زُهاء وأركان[٣٩١]
مطوت بهم حتى تكل مطيُّهم وحتى الجياد ما يُقَدن بأرسان[٣٩٢]

---

[٣٨٥] الفواضل: ج فاضلة: الدرجة الرفيعة، واليد الجسيمة أو الجميلة.

[٣٨٦] هند: أخت امرئ القيس، قيل زوجة أبيه.

[٣٨٧] القرح: ج قارح؛ المسن من الخيل. القافل: اليابس الجلد؛ يريد الضوامر.

[٣٨٨] الأسل: الرماح. النواهل: العطاش، يروى بعده: «وحي صعب والوشيج الذابلا.» صعب: من أحياء أسد، كانوا مع امرئ القيس. الوشيج: شجر الرماح، والمراد الرماح. الذابل: الرقيق اللاصق بالليط؛ أي القشر.

[٣٨٩] الفرام: دواء تتضيق به المرأة. والفرامة: خرقة تحتشي بها أوان الحيض، استفرمت فهي مستفرمة، يريد أن هذه الخيل تضرب فروجها بالحصى من شدة سيرها وسرعته، فكأنها تستفرم به. جوافل: سريعة.

[٣٩٠] الاستثفار: أن يدخل إزاره بين فخذيه ملويًا، وأن يدخل الكلب ذنبه بين فخذيه حتى يلزقه ببطنه، والثفر للسباع كالحياء للناقة، والسير في مؤخر السرج؛ يريد أنها تضرب أثفارها بالحصى، ويروى: «يستشرف الأواخر الأوائلا»؛ أي يعلو.

[٣٩١] المجر: الجيش الكثير العظيم. الغلان: منابت الطلح، أو أودية غامضة في الأرض، ج غالٍ وغليل، ونبات ج غال. الأنيعم: موضع. يقال قوم ذوو زهاء: أي ذوو عدد كثير. الأركان: ج ركن: الجانب الأقوى، والعز والمنعة، وما تقوى به من ملك وجند وغيره. وركن الرجل: قومه وعدده ومادته.

[٣٩٢] مطا: جد في السير وأسرع. تكل: تعيا وتتعب. الجياد: ج جواد؛ الفرس البين الجودة الرائع. يقدن: مِن قاد الدابة؛ جرها من أمامها. أرسان: ج رسن.

وحتى ترى الجون الذي كان بادنًا   عليه عوافٍ من نسور وعقبان[٣٩٣]

وقال من قصيدة يتوعد بها بني أسد، وقد نسبها في «معاهد التنصيص» إلى امرئ القيس بن عانس الكندي الصحابي الجليل:

تطاول ليلُك بالأثمد   ونام الخليُّ ولم تَرقدِ[٣٩٤]
وبات وباتت له ليلة   كلَيلة ذي العائر الأرمد[٣٩٥]
وذلك من نبأ جاءني   وأنبئته عن أبي الأسود
ولو عن نثا غيره جاءني   وجُرْح اللسان كجرح اليد[٣٩٦]
لقلت من القول ما لا يزا   لُ يؤثر عني يد المُسنَد[٣٩٧]
بأي علاقتنا ترغبو   ن أعن دم عمرو على مرثد[٣٩٨]
فإن تدفنوا الداء لا نُخفِهِ   وإن تبعثوا الحرب لا نقعد[٣٩٩]
وإن تقتلونا نقتِّلْكُمُ   وإن تقصدوا لدمٍ نقصدِ[٤٠٠]
متى عهدنا بطعان الكما   ة والمجد والحمد والسؤدد

[٣٩٣] الجون من الخيل: الأدهم. البادن: الجسيم. عواف: ج عافٍ؛ وهو الرائد والوارد والضيف، وكل طالب فضل أو رزق.

[٣٩٤] الأثمد: موضع. الخلي: الفارغ من الهم. لم ترقد: لم تنم.

[٣٩٥] العائر: الرمد، وبثر في الجفن الأسفل، وغمضة تمض العين، كأنما وقع فيها قذًى. الأرمد: من الرمد؛ وهو وجع العين وانتفاخها.

[٣٩٦] النثا: ما أخبرت به عن الرجل من حسن أو سيئ.

[٣٩٧] روي في «معاهد التنصيص»: «لقلت في القول.» يؤثر: يروى وينقل. المسند: الدهر؛ يقال: لا آتيه يد المسند ويد الدهر أبدًا.

[٣٩٨] العلاقة: النيل، وما تعلقوا به عليهم، مثل علاقة المهر؛ أي ما يتعلقون به على المتزوج، ورواه في اللسان «ترغبون عن دم.»

[٣٩٩] رواه في «المعاهد»: «وإن تبعثوا الداء.»

[٤٠٠] رواه في «المعاهد»: «نقاتلكم.»

وبَنْـي الـقـبـاب ومـلء الـجـفـا ن والنار والحطب المفأد[٤٠١]
وأعـددت لـلـحـرب وثـابـة جـواد الـمـحـثَّـة والـمُـرْود

الخلاصة

كان امرؤ القيس شديد الإعجاب بحسنه، شديد الاعتداد بنفسه وبشجاعته، كثير الطموح إلى المعالي، شديد الإباء.

وكل ما يفتخر ويمتدح به ميل الحسان إليه، وشغف أفئدتهن به، وشرب الخمر، وسباء الزق للذة، وتبطن الكاعب، وإعمال القيان بالكران، ونحو هذا مما تقتضيه جهلة الفتوة.

ويتمدح بركوب الجياد، ومطاردة الوحش عليها، وشهود الغارات وكشف البهم، وركوب النوق لتسلية الهموم.

ويفتخر بخلائقه، فهو المنية أو المنبه، وهو الأبي الذي لا يقيم على ضيم، والشجاع الذي ينازل الأبطال، والرامي الذي لا تطيش سهامه، والبطل المنزل الآلاف من بني أسد، ولا ينام على وتر، ويمطر بالمجر حتى تكل جياده، ويهزل سمانها، ونحو هذا مما تطلبه الشجاعة والأنفة.

ويفتخر بعظم آماله وأمانيه، وكبر نفسه، فهو لم تحمل الأرض مثله أبر وأوفى وأصبر، وهو يحاول ملكًا أو يموت، وهو لا يسعى إلا لمجد مؤثل قد يدركه أمثاله.

ونحو هذا مما يلائم النفس العظيمة، العظيمة الأمل.

ويفتخر بقومه وشجاعتهم، ويعتز ببأسهم وصبرهم.

وهذه الخلال التي يتمدح بها أهل عصره وبيئته، وقد أجاد فيها كلها.

ولم ينقصه إلا التمدح بالجود، ولعله لم يرَ إطعام الطعام لصحبه ومعتنفيه مَنقبة تستحق أن يباهي بها، على أنه ذكر في معلقته عقر ناقته للعذارى، وذكر فيها وفي غيرها ما كان من عمل الطهاة وإنضاجهم صفيف شواء أو فديرًا معجلًا، وذكر في بائيته ما

[٤٠١] الجفان: ج جفنة؛ القصعة الكبيرة، وفي «المعاهد» «والحطب الموقد»، وهو أحسن؛ لأننا لم نجد «أفأد الحطب» بمعنى أوقده، وإنما يقال لحم مفأد، إذا شوي فوق الجمر.

كان من مشهم أيديهم بأعراف الجياد، ولكنه لم يورد شيئًا من هذا على سبيل الفخر إلا في قوله السابق:

وبني القباب وملء الجفا　　ن والنار والحطب المُفْأد

(٦) المدح

قال يمدح عوير بن سبخة من بني عوف الطائي، وكان أجاره وأجار هندًا أخته، فوفى لها حتى أتى بها نجران:

إن بـنـي عـوف ابـتـنـوا حـسـبًـا　　ضيعه الدُّخْلُلُون إذ غدروا[٤٠٢]
أَدَّوا إلـى جـارهـم خـفـارتـه　　ولم يضع بالمَغيب من نصروا[٤٠٣]
لـم يـفـعـلـوا فـعـلَ آلِ حـنـظـلـةٍ　　إنهمُ، جَيْرِ، بئس ما ائتمروا[٤٠٤]
لا حِـمْـيَـرِي وفَـى ولا عُـدَس　　ولا است عَيْر يحكها الثَّفَر[٤٠٥]

[٤٠٢] ابتنوا حسبًا: أي بسبب إجارتهم لي. الدخلل: الذي يداخل الرجل في أمره ويصاحبه عليه، وهم الخاصة.

[٤٠٣] جارهم: يريد نفسه. الخفارة (مثلثة): اسم من خفره إذا آمنه وأجاره ومنعه؛ يريد: ذمته وعهده. المغيب: أي من غاب عن أهله وأنصاره، فإنهم ينصرونه.

[٤٠٤] اقتتل في يوم الكلاب الأول بنو ثعلب والنمر بن قاسط وسعد بن زيد مناة، وكانوا مع أبي حنش الثعلبي وبكر بن وائل وحنظلة بن مالك وبنو أسد وطوائف من تميم، وكانوا مع شرحبيل بن عمرو، فقتل أبو حنش شرحبيل وخذلته طوائف من تميم، وقد أشار إلى ذلك امرؤ القيس بقوله:

فما قاتلوا عن ربهم وربيبهم　　ولا آذنوا جارًا فيظعن سالما

جير: بمعنى أجل؛ أي إن بني عوف لم يفعلوا من الغدر ما فعلته بنو حنظلة من خذلان شرحبيل.

[٤٠٥] حميري وعدس: رجلان من حنظلة. واست العير: منهم أيضًا؛ سماه بذلك استهانة. يحكها الثفر: أي يمتهن في الخدمة. والثفر: السير الذي في مؤخر السرج.

لـكـن عُـوَيـرٌ وفـى بـذمـتـه   لا عـورٌ شـانـه ولا قِـصـر[٤٠٦]

وقال يمدحه أيضًا ويمدح رهطه:

ألا إن قـومًـا كـنـتـمُ أمـسِ دونـهـم   همُ منعوا جاراتكم آل غدران[٤٠٧]
عُـوَيـر ومـن مـثـل الـعـويـر ورهـطـه   وأسعد في ليل البلابل صفوان[٤٠٨]
ثـيـاب بـنـي عـوف طـهـارى نـقـيـة   وأوجههم عند المشاهد غُرَّان[٤٠٩]
هـمُ أبـلـغـوا حـي الـمـضـلـل أهـلـهـم   وساروا بهم بين العراق ونجران[٤١٠]
فـقـد أصـبـحـوا والـلـه أصـفـاهـم بـه   أبـر بـمـيـثـاق وأوفـى بـجـيـران[٤١١]

وقال يمدح المعلى أحد بني تيم من بني ثعلبة، وقد أجاره من المنذر بن ماء السماء حين طلبه:

كأنـي إذ نـزلـت عـلـى الـمـعـلَّـى   نزلت على البواذخ من شمام[٤١٢]
فما ملك العراق على المعلَّى   بمقتدر ولا الملك الشآمي[٤١٣]
أصد نشاص ذي القرنين حتى   تولَّى عارض الملك الهمام[٤١٤]

---

[٤٠٦] يريد: أنه آمن أخت امرئ القيس حتى أوصلها إلى نجران.

[٤٠٧] آل غدران: بطن من العرب.

[٤٠٨] البلابل: الهموم والوساوس. عوير وصفوان: سيدا بني عوف.

[٤٠٩] المشاهد: محاضر الناس، ج مشهد. غران: ج أغر؛ أي أبيض.

[٤١٠] أبلغوا: أوصلوا. المضلل: امرؤ القيس نفسه، ويقال له الملك المضلل والضليل، ويقال إنه سمي الملك الضليل بهذا البيت.

[٤١١] أصفاه بالشيء: آثره به.

[٤١٢] الباذخ: الجبل الطويل والعالي. شمام: جبل معلوم.

[٤١٣] ملك العراق: المنذر بن ماء السماء. والملك الشآمي: الحارث الغساني.

[٤١٤] أصد: منع وصرف وردَّ، ويروى: «أشذ»؛ أي نحَّى وفرق. نشاص: ما ارتفع من السحاب. ذو القرنين: المنذر الأكبر، سمي بذلك لضفيرتين كانتا له. العارض: السحاب المعترض في السماء؛ شبه الجيش بالسحاب لعظمه وسواده. تولَّى: انهزم.

أفرَّ حشا امرئ القيس بن حجر بنو تيم مصابيح الظلام[٤١٥]

ونزل امرؤ القيس على رجُل من جديلة يقال له «طريف بن مالك»، فأكرمه وأحسن إليه، فقال امرؤ القيس يمدحه:

لنعم الفتى نعشو إلى ضوء ناره طريف بن سالٍ ليلة الجوع والخصِرْ[٤١٦]
إذا البازل الكوماء راحت عشية تلاوذ من صوت المُبِسِّين بالشجرْ[٤١٧]

وقال يمدح سعد بن الضباب وكان نزل به:

مَنَعتَ الليثَ من أكلِ ابنِ حُجْرِ وَكادَ الليثُ يُودِي بِابنِ حُجْر[٤١٨]
مَنَعْتَ فَأَنْتَ ذُو مَنٍّ وَنُعْمَى عَلَيَّ ابنَ الضَّبَابِ بحَيثُ نَدْرِي[٤١٩]
سأَشْكُرُكَ الذِي دَافَعْتَ عَني وَمَا يَجْزِيكَ مِني غَيرُ شُكْرِي[٤٢٠]
فَمَا جَارٌ بِأَوْثَقَ مِنْكَ جَارًا وَنَصْرُكَ للفَرِيدِ أَعَزُّ نَصْرِ[٤٢١]

ونزل امرؤ القيس على خالد بن سدوس بن أصمع النبهاني، فأغار عليه باعث بن حويص الجديلي الطائي في رجال معه، فذهبوا بإبله، فلما علم ذلك امرؤ القيس أخبر جاره خالدًا، فقال له خالد: «أعطني رواحلك ألحق بها القوم، فأردَّ إبلك»، فأعطاه

[٤١٥] أفر: سكن وطامن؛ يريد أمَّنوه فسكنت نفسه، وقد شهروا بقول امرئ القيس هذا حتى سموا مصابيح الظلام.

[٤١٦] نعشو: ننظر؛ يقال عشا ناره وإلى ناره: رآها ليلًا من بعيد فقصدها مستضيئًا. الخصر: البرد.

[٤١٧] البازل: التي انتهى سنها. الكوماء: العظيمة السنام عادت من المرعى عشية إلى مراجلها. لاوذ به: امتنع به. أبسها: قال لها عند الحلب: بَسْ بَسْ، أو بُسْ بُسْ؛ لتدر، وقوله: المبسين بالشجر، لعله يريد الحظائر المتخذة من الشجر، ويروى: «بالسحر.»

[٤١٨] أراد بابن حجرٍ نفسَه. يودي به: يذهب به.

[٤١٩] المن: الإنعام واصطناع الصنيعة. النعمى: اليد البيضاء.

[٤٢٠] الشكر: عرفان الإحسان ونشره.

[٤٢١] الجار: المجاور والمجار والمستجير. وثق به: ائتمنه. ووثق: صار وثيقًا؛ أي محكمًا، أو أخذ بالثقة. الفريد: المنفرد أو الواحد.

رواحله، فركبها خالد، فلما أدركهم قال: «يا بني جديلة! أغرتم على جاري فردوا إليه إبله»، فقالوا: «ما هو لك بجار»، فقال: «بلى والله! ما هذه الإبل التي معكم إلا كالرواحل التي تحتي!» فقالوا: «أكذاك؟» فرجعوا إليه فأنزلوه عنها وذهبوا بها أيضًا، فلما عاد إلى امرئ القيس أخبره بما وقع، فتحول عنه إلى جارية بن مر الثعلي، فأجاره وأكرمه، فقال يمدحه ويمدح بني ثعل:[٤٢٢]

دع عنك نهبًا صيح في حجراته ... ولكن حديثًا ما حديث الرواحل[٤٢٣]
كأن دِثارًا حلَّقت بلَبُونه ... عُقاب تنوفي لا عقاب القواعل[٤٢٤]
تلعَّب باعثٌ بذمة خالد ... وأودى عصام في الخطوب الأوائل[٤٢٥]
وأعجبني مشي الحزُقَّة خالدٍ ... كمشي أتان حُلِّئت في المناهل[٤٢٦]
أبت أجأ أن تُسْلم العام جارَها ... فمن شاء فلينهض لها من مقاتل[٤٢٧]

---

[٤٢٢] وفي السيوطي: أن خالدًا رد الإبل ثم انتقل امرؤ القيس إلى بني ثعل.

[٤٢٣] نهبا: ما يغار عليه وما انتهب. حجراته: نواحيه. والرواحل: ج راحلة؛ الإبل الصالحة لأن ترحل.

[٤٢٤] دثار بن فقعس بن طريف: من بني أسد، راعي امرئ القيس. حلقت: ارتفعت في طيرانها. اللبون: الإبل ذوات اللبن. والعقاب: طائر. وتنوفي: جبل عالٍ؛ وفي القاموس ثنية مشرفة قرب القواعل، ويقال يَنوفي، وفيه أيضًا: وينوفي أو تنوفي أو تنوف: موضع بجبلي طيء. القواعل: ج قوعلة؛ الجبل الصغير، أو الأكمة الصغيرة. والقاعلة: الجبل الطويل، ويقال «عقاب قوعلة» على الصفة والإضافة؛ أي نأوي إليها ونعلوها. قال ابن الكلبي: أخبث العقبان ما أرى في الجبال المشرفة — وهذا مثل — أراد كأن لبون دثار ذهبت بها ذاهبةٌ؛ أي آفة، وأراد أنه أغير عليه من قبل تنوفي، ويروى: «عقاب ملاع.» مَلاع: أرض أضيفت إليها عقاب، أو نعت عقاب؛ أي سريعة.

[٤٢٥] تلعَّب: لعب. باعث: تقدم ذكره، ويروى بجيرة خالد، وقد تقدم ذكره. عصام: راعٍ آخر لامرئ القيس، ويروى: «وأودى دثار.» أودى: هلك. الخطوب: الأمور.

[٤٢٦] الحزقة: القصير العظيم البطن، إذا مشى أدار بأليتيه، أو السيئ الخلق، والضيق الأمر. الأتان: الحمارة. حلئت: طردت عن الماء. المناهل: الموارد.

[٤٢٧] أجأ: جبل لطيء؛ والمراد أهله. تسلم: تخذل أو تسلِّم وتعطي. والجار: المستجير والمجاور. فلينهض: فليقم؛ أي من شاء أن يعرف كيف نحمي الجار ونمنعه فلينهض لها.

تبيت لبوني بالقُرَيَّة أُمَّنًا   وأسْرَحها غبًّا بأكناف حائل[٤٢٨]
بنو ثعلٍ جيرانها وحماتها   وتمنع من رماة سعدٍ ونائل[٤٢٩]
تلاعب أولاد الوعول رِباعها   دوين السماء في رءوس المجادل[٤٣٠]
مُظلَّلَة حمراء ذات أسرَّة   لها حبكٌ كأنها من وصائل[٤٣١]

(٧) الهجاء

قال يوم ظفر ببني أسد (قاتلي أبيه حجر)، وكان قد حرم على نفسه شرب الخمر حتى يدرك ثأره:

يا دار ماويَّة بالحائل   فالسُّهب فالجَنْبَتيْن من عاقل[٤٣٢]
صم صداها وعفا رسمها   واستعجمت عن منطق السائل[٤٣٣]
قولا لدودان عبيد العصا   ما غرَّكم بالأسد الباسل؟![٤٣٤]

[٤٢٨] القرية: موضع. أمنًا: آمنة. أسرحها: أسومها وأسرحها إلى المرعى. غبًّا: حينًا أو يومًا بعد يوم. أكناف: جوانب. حائل: موضع بجبلي طيء.

[٤٢٩] جيرانها: ج جار؛ وهو المجير والناصر والمجاور. حماتها: ج حامٍ. سعد ونائل: من بني نبهان.

[٤٣٠] الوعول: ج وعل؛ تيس الجبل. رباعها: ج رُبَع؛ الفصيل ينتج في الربيع، وهو أول النتاج. المجادل: ج مجدل؛ القصر، وفي السيوطي: «المجادل: الجبال العالية.»

[٤٣١] مظللة: مغطاة، ويروى: «مكللة»؛ أي متوج أعلاها. أسرة: خطوط وطرائق، وكذا حبك. وصائل: ثياب يمانية حمر مخططة.

[٤٣٢] الحائل والسهب والجنبتين: مواضع. عاقل: موضع بطريق مكة، ويروى:

فالفرد فالجنبتين من حائل

[٤٣٣] الصدى: الدماغ، يكون السمع عنه. والصدى: ما يرده الجبل على المصوت. وصم صداه: هلك. عفا: درس. استعجمت: خرست وسكتت، ويروى: «بعدك صوب المسبل الهاطل.»

[٤٣٤] دودان: قبيلة من بني أسد قتلت حجرًا أبا امرئ القيس، وهو المراد بالأسد الباسل، وقيل أراد نفسه. عبيد العصا: أي لا يعطون إلا على الضرب والإذلال.

قد قرَّت العينان من مالك ومن بني عمرو ومن كاهل[٤٣٥]
ومن بني غُنْم بن دودانَ إذ نقذف أعلاهمْ على السافل[٤٣٦]
نطعنهم سُلكي ومَخْلوجةً كرَّك لأْمَيْن على نابل[٤٣٧]
إذ هن أقساط كرِجل الدبى أو كقطا كاظمة الناهل[٤٣٨]
حتى تركناهم لدى معرك أرجلهم كالخشب الشائل[٤٣٩]
حلَّت لي الخمرُ وكنتُ امرأً عن شربها في شغُلٍ شاغل[٤٤٠]
فاليوم أُسقى غير مستحقب إثمًا من الله ولا واغل[٤٤١]

وقال يهجو البراجم لأنهم قعدوا عن نصرة عمه شرحبيل، وهم خمسة إخوة: الظليم، وكلْفة، وغالب، وعمرو، وقيس من بني حنظلة، وهم من أم واحدة، ولهم إخوة لأبيهم:

ألا قبَّح الله البراجم كلَّها وجدَّع يربوعًا وعفَّر دارِما[٤٤٢]

---

[٤٣٥] مالك وبنو عمرو وكاهل: أحياء من بني أسد اشتركوا بقتل أبيه، فقتلهم وأخذ ثأره منهم فقرت عيناه.

[٤٣٦] بنو غنم: قبيلة من بني أسد. نقذف: نرمي من علو إلى أسفل.

[٤٣٧] نطعنهم سلكي: طعنًا مستويًا تلقاء الوجه. مخلوجة: طعنًا معوجًّا إلى يمين أو شمال. كرك: ردك. اللَّأْم: السهم عليه ريش، لؤام؛ وهو ما كان بطن الريشة منه يلي ظهر الأخرى، يلزق بالغراء على السهم قصد السرعة؛ أي كمناولة السهام لراميها في السرعة. نابل: صاحب نبل.

[٤٣٨] إذ هن: أي الخيل. أقساط: فرق. الرجل: القطعة من الجراد. الدبى: ج دباة؛ صغار الجراد. كاظمة: موضع قريب من البصرة من ناحية البحر. الناهل: العطشان.

[٤٣٩] معرك: موضع قتال. الشائل: الذي ألقى بعضه على بعض وارتفع إلى فوق.

[٤٤٠] كان حلف ألَّا يشرب حتى يدرك ثأر أبيه، فلما أدركه حلَّت له.

[٤٤١] مستحقب: مكتسب للإثم، مِن استحقب الشيء؛ إذا حمله في حقيبته؛ أي غير حامل إثمًا. الواغل: من يدخل على قوم يشربون بغير دعوة — هكذا رواه المبرد في الكامل — وروي: «فاليوم أشرب»، وخرِّج على الجزم على تقدير الوقف ثم الوصل، وقيل السكون ضرورة.

[٤٤٢] قبَّحه الله: نحاه عن الخير. جدع: قطع الأنف؛ والمراد أذلها. عفرها: أذلَّها وألصقها بالعفر وهو التراب.

وآثر بالملحاة آل مُجاشع رِقاب إماءٍ يَقْتَنِينَ المَغَارِمَا[٤٤٣]
فما قاتلوا عن ربِّهم وربيبهم ولا آذنوا جارًا فيَظعنَ سالما[٤٤٤]
ولا فعلوا يوم العُوَيْر بِجاره لدى باب هندٍ إذ تجرَّد قائما[٤٤٥]

ونزل[٤٤٦] بعامر بن جُوَيْن الطائي فأراد أخذ ماله، فارتحل ونزل بسعد بن الضباب الإيادي، فقال من قصيدة يمدحه ويهجو عامرًا، وقيل إنه يهجو هانئ بن مسعود:

لعمرك ما سعد بخلة آثم ولا نأنأٍ يوم الحفاظ ولا حصر[٤٤٧]
لعمري لقوم قد نرى في ديارهم مرابط للأمهار والعكر الدثر[٤٤٨]
أحب إلينا من أناس بقُنَّة يروح على آثار شائهم النَّمِر [٤٤٩]

[٤٤٣] آثر: اختص. الملحاة: مِفْعلة من لحاه إذا لامه، ويروى: «بالمخزاة.» رقاب: نصب على الذم. المغارم: خِرَق الحيض، لا واحد لها، وقال الوزير أبو بكر: جعلهن يتخذن ما يتضيقن به، ولا يضع هذا إلا العواهر.

[٤٤٤] سيدهم؛ يريد به شرحبيل بن عمرو الذي قتله أبو حنش الثعلبي. الربيب: المربوب. ربيت الصبي: ربيته حتى أدرك. والربيب: الملك، آذنوا: أعلموا بخذلانهم إياه فيرحل سالمًا بل فروا وانهزموا.

[٤٤٥] هو العوير بن شجنة الطائي الذي أجار امرأ القيس، ويروى: «ولا فعلوا فعل العوير.» بجاره: هو امرؤ القيس نفسه. تجرد: أي جدَّ في نصرته.

[٤٤٦] شرح الكامل: ٧ / ١٢٨.

[٤٤٧] الخلة: الصديق؛ أي ما سعد مخال رجلًا إثمًا. والخلة: الصداقة؛ ومعناه ما خلة سعد بخلة رجل آثم. النأنأ: العاجز الضعيف الجبان، الحفاظ الذب عن المحارم عند الحرب ومنعها من العدو. وحصِر: عييٌّ في منطقه، أو ضيق الصدر، أو بخيل.

[٤٤٨] المربط (بفتح الباء وكسرها): موضع ربط الدابة. الأمهار: ج مهر؛ ولد الفرس. العكر: ج عكرة؛ القطعة من الإبل ما بين الخمسين إلى المائة، وقيل أكثر وأقل، والدثر: الكثير، وحرك الثاء للضرورة.

[٤٤٩] القنة: الجبل الصغير أو السهل المنبسط، وقنة الجبل أعلاه. والشاء: ج شاة؛ الغنم ذكرًا أو أنثى. النمر سبع أخبث من الأسد، لا يُلقى إلا متنكرًا غضبان.

يفاكهنا سعد ويغدو لجمعنا   بمثنى الزقاق المترعات وبالجزر[٤٥٠]
لعمري لَسَعد بن الضباب إذا غدا   أحب إلينا منك فا فرس حمر[٤٥١]
ونعرف فيه من أبيه شمائلًا   ومن خاله ومن يزيد ومن حجر[٤٥٢]
سماحة ذا وبرَّ ذا ووفاء ذا   ونائل ذا إذا صحا وإذا سكر

ونزل في بني عدوان فلم يحمدهم فقال:

بُدلْتُ مِنْ وَائِلٍ وكنْدَةَ عَدْ   وَانَ وَفَهْمًا، صَمِّي ابنَةَ الجَبَل[٤٥٣]
قَوْمٌ يُحَاجُونَ بِالبِهَام ونسـ   ـوَانٌ قِصَارٌ كَهَيْئَةِ الحَجَلِ[٤٥٤]

وقال يهجو بني حنظلة:

أَبْلِغْ بَني زَيْدٍ مَا لَقِيتَهُم   وَأَبْلِغْ بَني لُبْنى وَأَبْلِغْ تُماضِرَا[٤٥٥]
وَأَبْلِغْ وَلا تَتْرُكْ بَني ابنَةِ مِنْقَر   أُفَقِّرُهُمْ إني أُفَقِّرُ نابِرَا
أحَنظلَ لَوْ كُنتُم كِرَامًا صَبرْتُمُ   وَحُطْتُمْ وَلا يُلفى التَميميُّ صَابِرَا

[٤٥٠] يفاكهنا: يمازحنا. والزقاق: ج زق؛ سقاء الخمر. المترعات: المملوءة. والجزر: ج جزور؛ الناقة أو الحمل يجزر؛ أي ينحر ويقطع، ويروى:

يفاكهنا سعد ويُنعم بالَنا   ويغدو علينا بالجفان وبالجزر

[٤٥١] فا: فم؛ أراد يا فم فرس. حمر: الحَمَر داء يعتري الدابة من كثرة الشعير فينتن فمه، حمِر يحمر حمرًا بعيره بالبخَر، ولقبه بفي فرس حمِر لنتن فمه.

[٤٥٢] الشمائل: ج شمال؛ الطبع والخلق.

[٤٥٣] وائل وكندة وعدوان وفهم: قبائل. ابنة الجبل: الداهية والحية. صمِّي: زِيدي، ويقال: صمَّت حصاه بدم؛ أي كثرت الدماء، حتى لو ألقيت فيها حصاة لم يسمع لها صوت، ومنه قوله: «صمي ابنة الجبل.»

[٤٥٤] حاجاه: فاطنه. والحجا: المعاركة. البهام: ج بهمة؛ ولد الضأن والمعز. الحجل: طائر معروف، وصغار الإبل.

[٤٥٥] بنو زيد وما بعدهم: قبائل.

الخلاصة

إذا استقرأنا كلام امرئ القيس في المدح والهجاء، يتضح لنا أن مدحه كان اعترافًا بالجميل، وشكرًا على الصنيع، وإشادة بالمعروف الذي أسدي إليه؛ ولذلك نجد الصور التي تمثل مدحه خالية من الغلو، قريبة المنال، ليس فيها شيء من البراعة التي تتمثل في بقية أغراضه، وإنما هو عبارة عن التعبير عما يخالج نفسه بصورة بسيطة، فقد مدح بني عوف بأنهم ابتنوا حسبًا، وأدوا الخفارة إلى جارهم، وأن ثيابهم نقية، وأنهم أبلغوا حيه أهلهم، وأنهم أبر الناس بميثاق وأوفاهم لجار.

ومدح المعلى بأنه منيع الحمى، لا يقتدر عليه ملكا العراق والشام.

ومدح قومه بأنهم مصابيح الظلام، وأنهم أقروا حشاه.

ومدح طريف بن مالك بأنه كريم عند الجدب والشتاء.

ومدح سعد بن الضباب بأنه حماه ومنعه، وأنه أوثق الناس جارًا، وأعزهم نصرًا للفريد.

وهذه الصور التي أوردها، وإن كانت قوية الأسر، متينة التأليف، جميلة الأسلوب، إلا أنها خالية من الروعة التي تلمس في غزله ووصفه وقصصه، وأقل رونقًا، وأنزر نوطة في القلب، وهزة في النفس.

وكذلك إذا تصفحنا هجاءه، لا نجد فيه من جمال الديباجة، وروعة الأسلوب، ما نجده في غزله ووصفه وطردياته.

فلقد هجا «دودان» فجعلهم عبيد العصا، ومثل ضعفهم إذ جعلهم يطعنون سلكى ومخلوجة، وهم فرق كرجل الدبى، حتى أصبحت أرجلهم كالخشب الشائل.

ودعا على البراجم ويربوع وطرام، وجعل آل مجاشع رقاب إماء، وجعل بني عدوان وفهم يحاجون بالبهام، والنساء القصار، وهكذا دواليك …

فمديحه عبارة عن الثناء على معروف، وهجاؤه عبارة عن اللوم على خذلانه والقعود عن نصرته.

وكلامه في المدح والهجاء مثل أعلى في بلاغته، وجلاء معناه، وحسن ترصيفه، ولطف كناياته، إلا أنه أدنى في الصناعة والبراعة من بقية شعره.

ولعل السبب في هذا أن امرأ القيس لم يتكسب في شعره، فيجهد قريحته في المدح، وكان ملكًا وابن ملك، فترفع عن الإسفاف في هجائه.

ومديحه وهجاؤه يمثلان لنا صورة المدح والهجاء في عصره؛ فقد كان كل منهما بسيطًا قريبًا من الطبع، بريئًا من التعمل والغلو، وظل هذا سبيله حتى قام عبيد الشعر،

فأجهدوا أنفسهم، وكدوا قرائحهم في الابتكار والتنقيح والمغالاة؛ تزلفًا من الممدوحين، وإرهابًا للمهجوين، فأصبح كل من المدح والهجاء غرضًا مقصودًا، وأمنية متوخاة، وميدانًا يتبارى فيه الطامعون في التكسب.

(٨) الشكوى

ولامرئ القيس في باب الشكوى من الزمان ومن تنكر الإخوان، وتجهم الأخدان والنزوح عن الأوطان والتحسر على ما أصابه من المحن ونعي نفسه وحظه، أبيات هي من مقلدات الشعر، فتح بها هذا الباب ومهد السبيل لمن بعده وإن كان لا يشق غباره فيها.

منها قوله:

ألا هل أتاها والحوادث جمة ... بأن امرأ القيس بن تملك بيقرا؟[٤٥٦]
تذكرتُ أهلي الصالحين وقد أتت ... على خملي خوص الركاب وأوْجرا[٤٥٧]
فلما بدت حوران والآل دونه ... نظرت فلم تنظر بعينيك منظرا[٤٥٨]
تقطع أسباب اللبانة والهوى ... عشية جاوزنا حماة وشيزرا[٤٥٩]
بسير يضج العود منه يَمُنُّه ... أخو الجهد لا يلوي عليَّ تعذرا[٤٦٠]
... ...

---

[٤٥٦] بيقر: خرج من الشام إلى العراق، وخرج من بلد إلى بلد.

[٤٥٧] قال الوزير في شرحه: خملي: جبل بأرض الشام، وقالوا: خملي وأوجر موضعان، وفي بعض النسخ: «على خمل بنا الركاب وأعفرا»، الخوص: ج خوصاء؛ أي غائرة العيون.

[٤٥٨] حوران: كورة بدمشق، قال الوزير: إنه مذكر، وحوران: ماء بنجد، وموضع ببادية السماوة. الآل: ما يشبه السراب، ويروى: «فلما بدا حوران والآل دونه»، ويروى: «والآل دونها»؛ أي المرأة، يريد لم تنظر منظرًا يسرك فكأنك لم تنظر.

[٤٥٩] اللبانة: الحاجة. حماة وشيزرا: بلدتان في الشام، يقول: لما جاوزنا هذين البلدين تقطعت أسباب الهوى للاشتغال بسواه.

[٤٦٠] يضج: يصيح. العود: الجمل المسن. يَمُنُّه: يُضعفه ويعييه. وأخو الجهد: المجتهد. يلوي: يعطف أو ينتظر أو ينحبس. تعذر: اعتذر، ويروى: تغدر؛ أي بقي. يقول: بسير يضعف العود منه إذ الصبر والجلد لا يحتبس فيه على من بقي أو اعتذر.

لـقـد أنـكـرتـنـي بـعـلـبـك وأهـلـهـا   ولَابن جريج في قرى حمص أنكرا[٤٦١]
...   .
إذا قلت هـذا صـاحـب قد رضيته   وقـرَّت بـه الـعـيـنـان بـدلـت آخـرا
كذلك جَـدي مـا أصـاحـب صـاحـبًـا   مـن الـنـاس إلا خـانـنـي وتـغـيـرا[٤٦٢]

ومنها قوله:

أَلا أَبْلِغْ بَنِي حُجْرِ بنِ عَمْرٍو   وَأَبْلِـغْ ذلِكَ الـحَـيَّ الـحَدِيدَا
بِأَنِّي قَدْ هَلَكْتُ بِأَرْضِ قَوْم   سَحِيقًا مِن دِيَارِكُم بَعِيدا
ولَوْ أَنِّي هَلَكْتُ بِأَرْضِ قَوْمي   لَقُلْتُ: المَوْتُ حَقٌّ لا خُلُودا
أُعالِجُ مُلْكَ قَيْصَرَ كُلَّ يَوْمٍ   وأَجْدِرْ بِـالـمَـنِـيـةِ أَنْ تَـقُـودا
بِأَرْضِ الشامِ لا نسَبٌ قَرِيب   ولا شـافٍ فَيُسْنِدَ أَوْ يَعُودا

ومنها قوله:

فـلا تـنـكـرونـي إنـنـي أنـا ذاكـمُ   ليالي حلَّ الحي غَولًا فألعسا[٤٦٣]
تـأوَّبـنـي دائـي الـقـديـم فـغـلَّـسـا   أحـاذر أن يرتد دائي فَأُنْكَسا[٤٦٤]
فـإمَّـا تَـرَيْـنِـي لا أغـمِّـض سـاعـة   من الليل إلا أن أُكَبَّ فأَنْعَسا[٤٦٥]

---

[٤٦١] بعلبك: بلدة بالشام، يريد: أنكرتني بعلبك لأنها لم توافقني وأنكرني أهلها إنكار من لا يعرف وأنكرني ابن جريج، ومفعول أنكر محذوف، ويروى: «ولابن جريج كان في حمص أنكرا»، والمعنى: والله لابن جريج كان أشد إنكارًا.

[٤٦٢] الجد: البخت والحظ.

[٤٦٣] روي: «أنا ذلكم»، وروي: «أنا جاركم.» روي: «عشية حل.» وغول وألعس: موضعان.

[٤٦٤] تأوَّبني: أتاني ليلًا. وغلَّس: سار بغلس، وهو ظلام آخر الليل. ونكس المريض: عاودته العلة بعد النقه.

[٤٦٥] كبَّه: صرعه وقَلَبه، وأكب هو على وجهه، وأكب: نكس. ونعس: نام أو قارب النوم، والنعسة: الخفضة؛ وهي إمالة الرأس من النعاس.

فـيـا رُبَّ مـكـروب كـررت وراءه وطاعنت عنه الخيل حتى تنفسا[٤٦٦]
ويـا رب يـوم قـد أروح مـرجـلًا حبيبًا إلى البيض الكواعب أملسا
... ...
وما خلت تبريح الحياة كما أرى تضيق ذراعي أن أقوم فألبسا[٤٦٧]
فلو أنها نفس تموت جميعة ولكنها نفس تساقط أَنْفُسَا[٤٦٨]
وبدلت قرحًا داميًا بعد صحة فيا لك من نعمى تحولن أبؤسا

ومنها قوله:

ألم أُنضِ المطي بكلِّ خرق أُمَقَّ الطُّولِ لمَّاعِ السَّراب[٤٦٩]
وأركبُ في اللهام المجر حتى أنالَ مآكِلَ القُحَمِ الرِّغابِ[٤٧٠]
وكُلُّ مَكارِمِ الأخْلاقِ صارَت إلَيْهِ هِمَّتي، وَبِهِ اكتِسابي
وقد طَوَّفْتُ في الآفاقِ، حَتى رضيتُ من الغنيمة بالإياب

إلى آخر الأبيات المتقدمة.

[٤٦٦] تنفس الرجل: استمد النفس؛ يريد أنه فُرج عنه.

[٤٦٧] التبريح: الشدة والمشقة. وضاقت ذراعه ضعفت طاقته، ولم يجد من المكروه فيه مخلصًا ولم يطقه ولم يقوَ عليه.

[٤٦٨] جميعة: أراد جميعًا فبالغ بإلحاق الهاء، والجميع ضد المتفرق وحذف الجواب للعلم به، كأنه قال: لفنيت واسترحت، وقال الأصمعي: معنى قوله: تموت جميعة، أي لو أني أموت بدفعة، ولكن نفسي لما بها من المرض تقلع قليلًا قليلًا، وتخرج شيئًا شيئًا من طول المرض، ومعنى تساقط: يموت بموتها بشر كثير، وفي «العمدة»: تموت سويةً، كأنه قال لهان الأمر ولكنها تمو موتات ونحو هذا، وهو من الإيجاز.

[٤٦٩] أنضي: أُهْزِل من طول السير. والخرق: الأرض الواسعة تتخرق فيها الرياح. والأمق: الطويل. والسراب: ما يرى نصف النهار في الفلاة كأنه ماء.

[٤٧٠] اللهام: الجيش الكثير العدد العظيم. والمجر: الثقيل. والقحم: جمع قحمة؛ الانقحام في السير، والمهلكة والقحط، وقال الوزير: القحمة: الدفعة الكثيرة من المال وغيره. والرغاب: الواسعة.

وقوله المتقدم:

أجارتنا إنا غريبان ها هنا   وكل غريب للغريب نسيبُ

(٩) الرثاء

لم يقع إلينا شيء من قصائد امرئ القيس في الرثاء لنتبين كيف كانت سبيله فيه، وإنما رويت له أبيات في هذا الباب أو قريبة منه، منها قوله حين قتل المنذر إخوته بالحيرة أو أقرباءه بجفر الأملاك:

ألا يا عين بَكِّي لي شنينا   وبكِّي لي الملوك الذاهبينا[٤٧١]
ملوكًا من بني حجر بن عمرو   يساقون العشية يقتلونا

وقد تقدمت بقية الأبيات.

ومنها قوله حين بلغه نعي أبيه وهو بدمون:

أتاني وأصحابي على رأس صيلع   حديث أطار النوم عني فأنعما[٤٧٢]
فقلت لعجليٍّ بعيد مآبه: أبن لي وبيِّن لي الحديث المجمجما[٤٧٣]
فقال أبيت اللعن عمرو وكاهل   أباحا حمى حجر فأصبح مسلما

وقوله السابق:

أرقت لبرق بليل أَهَل   يضيء سناه بأعلى الجبل

إلى آخر الأبيات المتقدمة.

---

[٤٧١] الشنين: قَطَران الماء شيئًا بعد شيء، ويقال: دم شنين؛ أي مصبوب.

[٤٧٢] صيلع: جبل أو موضع. أنعم: بالغ أو زاد.

[٤٧٣] مآبه: مرجعه ومنقلبه. المجمجم: الذي لم يبين. مسلمًا: مخذولًا.

وكان الحارث بن حبيب السلمي خرج مع امرئ القيس إلى الشام فمات، فرثاه بقوله:

ثوى عند الودية جوف بُصْرى أبو الأيتام والكَلِّ العجاف[٤٧٤]
فمن يحمي المُضاف إذا دعاه ويحمل خطة الأنس الضعاف[٤٧٥]

وهذه الأبيات وأمثالها تمثل لنا أسلوب الرثاء في عصر امرئ القيس، ويتمثل لنا في بعضها شبح ضئيل مما يسمونه عاطفة حزن، وإن كانت طافحة بالتحسر والتلهف مكتظة باستفظاع الخطب وتهويله واستصغار كل ما سواه.

[٤٧٤] ثوى: أقام. الودية: النخلة الصغيرة. بُصْرى: موضع في الشام. الكَلَّ: العيال. العجاف: جمع أعجف، وعجفاء؛ غير السمان.

[٤٧٥] المضاف في الحرب: من أُحيطَ به الْمُلْجَأ. الخطة: الأمر والإقدام على الأمور. الأنس الجماعة الكثيرون، الحي: المقيمون.

ما يستنتج من شعر امرئ القيس من الأحوال الاجتماعية في عصره

إذا استقرأنا كلمات هذا الشاعر تمثل لنا في تضاعيف كلماته أمور: أن الحياة الغالبة في عصره حياة البداة بين حل وترحال وسكنى الأخبية والخيام وانتجاع الكلأ والانتقال بسببه من مكان إلى آخر على الإبل والخيل، وأن هناك أطمًا مشيدة بجندل وأشجارًا وأنهارًا وغدرانًا ورياضًا ومرابئ ورُبًا ممرعة يتمتعون بجمالها وأزهارها وأطيارها.

(١) الترف

وأن هناك ضروبًا من النعمة والترف في المطعم والملبس والمضجع ونحوه، يتمثل في قوله في المرأة:

وتضحي فتيت المسك فوق فراشها	نئوم الضحى لم تنتطق عن تفضل

وقوله:

كأن المدام وصوب الغمام	وريح الخزامى ونشر القطر
تـعـل بـه بـرد أنـيـابـهـا	إذا غرد الطائر المستحر

وقوله:

إذا قامتا تضوع المسك منهما   برائحة من اللطيمة والقطر

وقوله:

... ...   نسيم الصبا جاءت بريا القرنفل

وقوله:

حور تعلل بالعبير جلودها   بيض الوجوه نواعم الأجسام

وقوله:

وفوق الحوايا غزلة وجآذر   تضمخن من مسك زكي وزنبق

وقوله:

وريح سنا في حقة حميرية   تخص بمفروك من المسك أذفرا[١]
وبانًا وأُلويًّا من الهند ذاكيًا   ورندًا ولُبْنَى والكباء المقترا[٢]
جعلن حوايا واقتعدن قعائدًا   وجففن عن حوك العراق المنمق[٣]

[١] السنا: ضرب من الطيب. والحقة: ما صنع من الخشب وهي الربعة. والمفروك: الطيب. والأذفر: الشديد الرائحة.

[٢] البان: شجر. والألوي: العود. والرند: شجر طيب. ولُبْنَى: ضرب من الطيب. والكباء: البخور. والقتار: الدخان؛ ريح البخور، وقتره تقتيرًا: هيج قتاره. وكباء: مقتر، كمعظم.

[٣] الحوايا: جمع حوية؛ كساء محشو حول سنام البعير. والقعائد: جمع قعيدة؛ شيء تنسجه النساء كالعيبة يُجلس عليه، واقتعدت قعيدة: اتخذتها. وحفف حوله: أحدق به. والحوك: النسج.

وقوله:

فجئت وقد نضت لنوم ثيابها   لدى النوم إلا لبسة المتفضل

وقوله:

خرجت بها أمشي تجر وراءنا   على أثرينا ذيل مِرْطٍ مُرَحَّل

وقوله:

من القاصرات الطرف لو دب محول   من الذر فوق الإتب منها لأثرا

وقوله:

وألقى بصحراء الغبيط بعاعه   نزول اليماني ذي العياب المحمل

وقوله:

فظل العذارى يرتمين بلحمها   وشحم كهداب الدمقس المفتل

وقوله:

فعنَّ لنا سِرب كأن نعاجه   عذارى دوار في ملاء مُذيَّل

يدل على أن للمرأة ضروبًا من الملابس كالمفضل والإتب والمرط، وأن منها ما هو مزين بالنقوش، وأن ذيولها طويلة تجر على الأرض، وأنها تلتحف بالملاءة، وأن الخادم تتخذ النطاق.

(٢) الزينة

وقوله:

وجيد كجيد الريم ليس بفاحش   إذا هـي نـصـتـه ولا بـمـعـطـل

وقوله:

ليالـيَ سلمى إذ تُريك منصبًا   وجيدًا كجيد الريم ليس بمعطال
قليلة جرس الليل إلا وساوسًا   وتبسم من عذب المذاقة سلسال[٤]
كـأنـي لـم أركـب جـوادًا لـلـذة   ولـم أتبطن كاعبًا ذات خلخال

وقوله:

غرائر في كِنٍّ وصون ونعمة   يحلين ياقوتًا وشذرًا مفقرا[٥]

وقوله:

إذا ما الثريا في السماء تعرضت   تعرض أثناء الوشاح المفصل

وقوله:

فأدبرن كالجزع المفصل بينه   بجيد مُعمٍّ في العشيرة مخول

يدل على أنواع الحلي من قلائد ووشاح وخلخال.

---

٤ الجرس: الصوت. والوساوس: جمع وسواس؛ وهو صوت الحلي.
٥ الشذر: الذهب. والمفقر: المصوغ على هيئة فقار الجرادة كما في الشرح، وفي غيره: الفقر ثقب الخرز للنظم.

وقوله:

وفرعٍ يغشي المتن أسودَ فاحمٍ   أثيث كقنو النخلة المتعثكل

وقوله:

غدائرها مستشزرات إلى العلا   تضل العقاص في مثنًى ومرسل[٦]

يمثل لنا طريقة النساء في اتخاذ الشعور: مثناة ومرسلة ومعقوصة ومضفورة وغرز المداري فيها.

وغزله يمثِّل لنا الصفات الخلقية التي كانوا يحبونها في المرأة: فهي مهفهفة غير مفاضة مصقولة الترائب كأن على لباتها جمر مصطلٍ كالدرة يخلط بياضها صفرة ... إلخ.

والصفات الخلقية: فهي قطيع الكلام:

عقيلة أتراب لها لا ذميمة   ولا ذات خلق إن تأملت جأنَّب

وهي مع هذا تريع إلى صوت الرجل كما ترعوي النوق إلى الجمل الفحل.

وتكره الرجل إذا قلَّ ماله أو شاب رأسه أو قوس ظهره، وكل ما تبديه من عسر لا يلبث أن ينقلب إلى مياسرة، فإذا قالت له:

سباك الله إنك فاضحي

أسمحت بعد ذلك وصارت معه إلى الحسنى وذلت.

وهي تتبع الهوى سبل الردى وتقول لأهل الحلم ضلا بتضلال.

[٦] وفي رواية: تضل المداري.

وقوله:

فأدبرن كالجزع المفصل بينه   بجيد معم في العشيرة مخول

وقوله:

درير كخذروف الوليد أَمَرَّه   تتابعُ كفَّيْه بخيط موصَّل

وقوله:

فمثلك حبلى قد طرقتُ ومرضعٍ   فألهيتها عن ذي تمائم محول

وقوله:

ومنهن سوفي الخود قد بلها الندى   تراقب منظوم التمائم مرضعا

يمثل لنا ما كان يعوَّذ به الأطفال وما يلعبون به.
وقوله:

كأن دماء الهاديات بنحره   عصارة حناء بشيب مرجَّل

وقوله:

كأن ثبيرًا في عرانين وَبْله   كبيرُ أناس في بجاد مُزَمل

يمثل لنا ناحية من حالة الشيوخ ولباسهم.
وقوله:

أيا هند لا تنكحي بوهة   ...   .
مرسعة بين أرساغه   به عسم يبتغي أرنبا
ليجعل في كفه كعبها   حذار المنية أن يعطبا

وقوله:

فأدركنه يأخذن بالساق والنسا　　　كما شبرق الولدان ثوب المقدس

وقوله:

كأن دماء العاديات بنحره　　　عصارة حناء بشيب مرجل

يصور لنا ما كان عندهم من المزاعم.
وقوله:

ومطردًا كرشاء الجرور　　　من خلب النخلة الأجرد
وذا شطب غامضًا حكمه　　　إذا صاب بالعظم لم ينأد
ومشدودة السبك موضونة　　　تضاءل في الطي كالمبرد

وقوله:

عارض زوراء من نشم　　　غير باناة على وتره
فرماها في فرائصها　　　بإزاء الحوض أو عقره
برهيش من كنانته　　　كتلظي الجمر في شرره
راشه من ريش ناهضة　　　ثم أمهاه على حَجَره

يدلنا على ما كان عندهم من الأسلحة.

أخلاقه من شعره

إذا صح أن كلام الإنسان مرآة تمثِّل دخيلة نفسه وتصور سجاياه، فإن كلام امرئ القيس يمثل لنا صورة واضحة تامة عنه: فهو قبل كل شيء مولع بالنساء والصبوة والخمر وركوب الخيل للصيد ونص العيس في مجاهل الأرض، وما يقتضيه كل واحد من هذه الأشياء من مجانة. وأكثر شعره في صباه لا يخلو من هذه الأمور، وهو لم يفارقها بعد أن فارق صباه، كما يشهد لذلك قوله:

أصبَحتُ ودَّعْتُ الصِّبا غير أنني　　أراقب خلات من العيش أربعا[1]
فمنهن قولي للندامى: ترفقوا　　يداجون نشاجًا من الخمر مترعا[2]
ومنهن ركض الخيل تَرْجُم بالقنا　　يبادرن سربًا آمنًا أن يفزَّعا[3]
ومنهن نصُّ العيس والليل شامل　　يُيمِّمن مجهولًا من الأرض بلقعا[4]

[1] ودع الصبا: فارقه وصار إلى الكبر. والخلات: جمع خلة وهي الخصلة.

[2] الندامى: جمع ندمان، وهو المنادم؛ أي المجالس على الشراب، ثم استعمل في كل مسامر. يداجون: يدارون. والنشاج: الزق، يقال: نشج الزق، إذا غلى ما فيه حتى سُمع له صوت. ومترع: مملوء.

[3] ترجم: ترمي وتطرد. والقنا: الرماح. يبادرن: يعاجلن. والسرب: القطيع من بقر الوحش والظباء.

[4] نصَّ الإبل: استخرج أقصى ما عندها من السير. والعيس: جمع أعيس أو عيساء؛ الإبل البيض يخالط بياضها شقرة. شامل: عام أو مغط، يقال: شمله بالمشملة إذا غطاه بها، أو من قولهم: لون شامل؛ وهو أن يكون أسود يعلوه لون آخر. يُيَمِّمن: يقصدن. المجهول من الأرض: ما لم يسلك فيعلم، أو ما لا يهتدي فيه. البلقع: القفر الخالي.

خـوارجُ مـن بـريَّـة نـحـو قـريـة   يُجددن وصلًا أو يُرجِّين مطمعا[٥]
ومنهن سوف الخود قد بلها الندى   تراقب منظوم التمائم مرضعا[٦]
يـعـز عـلـيـهـا ريبتـي ويـسـوءهـا   بكاه فتثني الجيد أن يتضوعا[٧]
بـعـثـت إلـيـهـا والـنـجـوم ضـواجـع   حذارًا عليـهـا أن تَـهُـبَّ فتسمعا[٨]
فجاءت قطوف المشي هيابةَ السرى   يـدافـع ركـنـاهـا كـواعـب أربـعـا[٩]
يزجينها مشي النزيف وقد جرى   صُباب الكرى في مخها فتقطعا[١٠]
تـقـول وقـد جـردتـهـا مـن ثـيـابـهـا: كما رعت مكحول المدامع أتلعا

وقد تقدم من قوله ما يدل على مغامراته في سبيل شهوته ومجاوزته في سبيل من يهوى أحراسًا ومعشرًا يحرصون على قتله، وسموه إلى أخرى بعدما نام أهلها، ودنوه إلى ثالثة وتسديها وما كان خلال ذلك.

وتدلنا أقواله في وصف الخيل والإبل والأودية على شجاعته وحبه للصيد.

فيدل قوله:

ولست بخزرافة في القعود   ولـسـت بـطـيـاخـة أخـدبـا[١١]

[٥] البرية: الصحراء. القرية: المصر. يجددن: يحدثن ويصيرنه جديدًا، الرجاء: ضد اليأس، رجاه ترجية: أطمعه. المطمع: كمقعد ما يطمع فيه، يريد أن هذه الإبل يخرج عليها من البرية إلى الأمصار لوصل حبيب أو لطلب مرغوب فيه.

[٦] ساف الشيء: شمه. الخود: الشابة أو الناعمة. بلها: أصابها ونداها. والندى: شيء يُتطيَّب به كالبخور. تراقب: تحرس. التمائم: جمع تميمة؛ خرزة رقطاء تنظم في السير، ثم بعقد في العنق.

[٧] عز عليه أن يفعل كذا: اشتد. الريبة: الظنة والتهمة والحاجة. يسوءها: يحزنها، ساءه: فعل به ما يسوءه. تثني: تلوي. يتضوع: يتضور؛ أي يتلوى من البكاء.

[٨] النجم الضاجع: المائل للمغيب. تهب: تنتبه من نومها.

[٩] قطوف: ضيقة المشي. هيابة: كثيرة الهيبة والخوف. السرى: السير في الليل. يدافع: يدفع. ركناها: جانباها. الكواعب: ج كاعب؛ التي نهد ثديها.

[١٠] يزجينها: يسقنها ويدفعنها فتمشي مشي النزيف؛ وهو السكران. صباب الكرى: بقية النوم. المخ: نقي العظم والدماغ وخالص كل شيء.

[١١] الخزرافة: من لا يحسن القعود في المجلس أو الكثير الكلام الخفيف الرخو. الأخدب: الأهوج والطويل والذي يركب رأسه.

ولست بذي رثية إمر إذا قيد مستكرهًا أصحبا[١٢]

على أنه وقور في مجلسه نزر الكلام غير أهوج ولا ضعيف الرأي.
وقوله:

وخليل قد أفارقه ثم لا أبكي على أثره
وابن عم قد تركت له صفو ماء الحوض عن كدره

على أنه جَلِد صبور صفوح يقابل السيئة بالحسنة.

وأقواله السابقة في المدح على أنه لا يجحد نعمة ولا ينكر معروفًا أُسدي إليه.

وأقواله في الهجاء على كرهه الغدر وخذلان الجار وحبه الانتقام.

وأقواله في الفخر على أنه شجاع أَبِيٌّ لا يقيم على أذًى.

وأبياته: «إذا ما لم تكن إبل فمعزى» … إلخ.

وأبياته: «أرانا مُوضِعين لأمرِ غيبٍ» … إلخ.

على أنه يئس من السعادة في الحياة والنجح في الطلب، يقنع من الغنيمة بالإياب، ورضي بالمعزى بدلًا من الخيل العتاق والإبل النجائب.

واستسلم للقدر فتلفع بشملة الزهاد واتخذ من حوادث الكون عبرًا أقام عليها صرح حكمته.

(١) الخلاصة

تدلنا أقوال امرئ القيس على أنه كان تبع نساء وطلب نساء من شُبٍّ[١٣] إلى دُبٍّ، وأنه كان خليعًا ماجنًا في غزله وصبوته مغامرًا في سبيل لبانته، محبًّا للخمر آمرًا بالتمتع بها وبالنساء الحسان، مولعًا بركوب الخيل واجتياب المفاوز للاصطياد، كثير الفخر

[١٢] رثية: مرض المفاصل. الإمر: الضعيف الرأي يوافق كل أحد على ما يريد من أمره كله. أصحب: ذل وانقاد بعد صعوبة.

[١٣] أي من الشباب إلى أن دب على العصا.

شديد الاعتداد بنفسه، طلوبًا لمعالي الأمور، وقورًا في مجلسه وقوله، بريئًا من الحمق وضعف الرأي، جَلِدًا على النوائب، صفوحًا عن السيئات، شاكرًا للنعمة، كارهًا للغدر، محبًّا للانتقام، شجاعًا أبيًّا قنوعًا، قد اسودت في وجهه الدنيا في أخريات أمره، فياض القريحة غمر البديهة، حكيمًا حنَّكته التجارب ونجذته النوائب.

دِين امرئ القيس

اختلفت كلمة الباحثين في دِين امرئ القيس وعقيدته على وجوه جروا فيها على الأهواء وأفاضوا على ما خيلت واتخذ كل قائل لتأييد مذهبه حججًا أوهى من بيت العنكبوت.

(١) وثنيته

ذهب فريق إلى أن امرأ القيس وثني واستدل على ذلك باسمه «امرأ القيس»، وزعم أن قيسًا صنم، فيكون المعنى «إنسان القيس أو عبد القيس». وأن امرأ القيس خرج لغزو فمر بتبالة وفيها صنم يقال له: ذو الخَلَصة، فاستقسم بقداحه الثلاثة: الآمر والناهي والمتربص، ولو لم يكن وثنيًّا لما استقسم بها.

وهذا زعم لحمته الوهم وسداه الباطل، فإن لفظ «امرئ» لا يفيد معنى العبودية، ولم يرد في اللغة إلا بمعنى الإنسان والرجل، وقد أطلقه بعضهم على الذئب مجازًا.

ولفظ القيس وردت لِمعانٍ كثيرة ذكرها أصحاب المعاجم، كالشدة والتبختر والجوع والذكر، وقالوا للرخمة: أم قيس.

وليس في معاني اللفظين ما يدل على معنى العبودية أو المعبود أو الصنم، ولم يذكر ابن الكلبي في كتاب «الأصنام» صنمًا يسمى قيسًا، وكلمة اللغويين متفقة على أن معنى امرئ القيس رجل الشدة. ولو فرضنا أن لفظ امرئ يفيد معنى «عبد» لا يوجب ذلك أن يكون وثنيًّا، فإن عبد المطلب سمي كذلك، ولم يكن المطلب وثنًا ولا كان هو عابدًا له، واستنباط الأحكام والعلل من الأسماء أمر غير مطرد.

على أن امرأ القيس لقب لا علم، فلعله لقِّب بذلك لشدته كما لقب رجل بجذل الطعان وآخر بمُلاعب الأسنَّة وثالث بحامي الظعينة.

ويدل على أن امرأ القيس ليس معناه عبد الصنم أو رجل الصنم أو إنسان الصنم، أن كثيرًا من المسلمين كانوا يسمون بهذا الاسم ولم ينكر النبي ﷺ، ولا أصحابه عليهم أسماءهم ولا غيروها، منهم: امرؤ القيس بن عابس الكندي، وامرؤ القيس بن الأصبغ الكلبي، وامرؤ القيس بن الفاخر بن الطماح.

ويدلنا على أن امرأ القيس لم يكن يعبد الأوثان ولا يحترمها ما ذكره ابن الكلبي[1] وغيره أنه لما مر بذي الخلصة، واستقسم عنده ثلاث مرات، فخرج الناهي، كسر القداح وضرب بها وجه الصنم، وقال: عضضت بـ ... أبيك! لو كان أبوك قُتل ما عوَّقتني، ثم غزا بني أسد فظفر بهم، فلم يستقسم عنده — أي الصنم — بشيء حتى جاء الله بالإسلام، فكان امرؤ القيس أول من أخفره.

فهذه الواقعة تدل على أن امرأ القيس إنما أتى ذا الخلصة ليتفاءل بقداحه، ولو كان يعبده أو يعبد غيره من الأوثان لما احتقره وضرب وجهه بالقداح وأعضه على هن أبيه وخالفه فنجح بمخالفته. ولا يكاد الباحث يجد في شعره ما يدل على أنه كان يعبد وثنًا، وما ورد في شعره من أسماء بعض الأوثان لا يدل على أنه كان يعبدها؛ لأنه ذكر الفرس والناقة والذئب والكلب والجبال والأودية وغيرها وليس شيء منها معبودًا.

(٢) مزدكيته

ذهب فريق آخر إلى أن امرأ القيس كان على دين مزدك، واحتج لهذا الرأي بأن جده الحارث تابع مزدك على رأيه وشايعه في هواه.

وأن امرأ القيس اقترف كثيرًا من الفواحش وطلق النساء وأرخى لنفسه العِنان في ميادين اللذة والشهوة.

وقد كان مزدك أمر بتناول اللذات والانهماك في الشهوات والمشاركة في الحرم والأزواج! وامرؤ القيس طبع على هذا الغرار.

وهذا الفريق أشد عمًى من الأول وأضل سبيلًا؛ لأن التاريخ لم ينقل إلينا أن جد امرئ القيس ظل على دين مزدك واعتصم به أعقابه من بعده، بل إن الحارث لم يَدِنْ بهذا المذهب اعتقادًا بصحته أو حسنه، وإنما اتخذه وسيلة يقوم مقام المنادرة في التقرب

[1] كتاب «الأصنام» ص٤٧.

من كسرى والتملك على العرب، فلما طارده كسرى لم يُسمع من فمه كلمة تتعلق بهذا الدين حتى فارق الحياة، ولا نُقل إلينا أن بنيه كانوا يدينون به. والحكم على شخص بالتزامه كهذا الدين يحتاج إلى أدلة تاريخية موثوق بها، وليس لدينا شيء من ذلك.

على أن امرأ القيس صرح في شعره بأنه يصبي على المرء عرسه ويمنع عرسه أن يزنَّ بها الخالي.

وأنه عقر للعذارى مطيته وأنه اصطاد كثيرًا من بقر الوحش وغيرها، وطعم منها وأطعم، واتخذ له الطهاة منها صفيف شواء وقديرًا ...

وأنه قَتل كثيرًا في الحرب التي وقعت بينه وبين بني أسد منهم ومن عمرو ومن كاهل وطعنهم سلكى ومخلوجة حتى تركهم أرجلهم كالخشب الشائل.

كل هذا خروج على مذهب مزدك، فإنه يبيح النساء ولا يجيز منعها وينهى عن قتل الحيوان وأكله وعن المباغضة والقتال. ولا تكاد تلمس في شعره أثرًا لهذا المذهب، فإلزامه ما لم يلتزم ضرب من الهذيان.

(٣) نصرانيته

وذهب فريق إلى أن امرأ القيس كان نصرانيًّا واستدل على هذا بأن في شعره كثيرًا من الإقرار بقدرة الله وحسابه وما شاكل هذا من عقائد النصارى التي لا يقر بها الوثني والمزدكي، فهو يقول:

فاليوم أسقي غير مستحقب   إثمًا من الله ولا واغل

ويقول: والله أنجح ما طلبت به ...

وفي شعره كثير من الإشارات النصرانية كقوله:

نظرت إليها والنجوم كأنها   مصابيح رهبان تشب لقفال

وقوله:

تضيء الظلام بالعشيِّ كأنها   منارة ممسى راهب متبتل

يضيء سناء أو مصابيح راهب أمال السليط بالذبال المفتل

وقوله في وصف كلاب الصيد حين أدركت الثور الذي تطرده:

فأدركنه يأخذن بالساق والنسا كما شبرق الولدان ثوب المقدس

وما شابه هذا من الأدلة.

وإذا تأملنا هذه الأدلة ونظرنا فيها نظر المدقق المنصف لا نجد فيها ما يوجب الحكم عليه بأنه كان على دين النصرانية، وبيان هذا:

(١) أن الإقرار بالله وقدرته وذكر الحساب وما شاكل ذلك مستفيض في كلام العرب ممن كان على دين إبراهيم أو ممن كان يعبد الأوثان؛ فإنهم لم يعبدوها إلا لتقربهم إلى الله، فذكر الله وذكر قدرته لا يقتضي الحكم بنصرانية شخص ولا وثنيته ولا مزدكيته؛ لأن كلًّا من هذه الأديان لا يحتم إنكار الإله ولا يحرم ذكره.

(٢) وأن تشبيه النجوم أو المرأة بمصابيح الراهب أو منارته لا يوجب أن يكون المشبه متدينًا بالدين الذي له علاقة بالمشبه به. وإذا علمنا أن الشاعر قضى شطرًا كبيرًا من حياته في الفلوات وأنه كان يرى مصابيح الرهبان من بعيد، وقلما رأى مصابيح غيرهم؛ تبين لنا السبب في التشبيه بها لأنها أكثر خطورًا في ذهنه وأقرب تناولًا إذا أراد التشبيه بها من غيرها، وأن ذلك لم ينشأ عن التدين بها.

ولو جاز لنا أن نتخذ مصابيح الرهبان دليلًا على نصرانيته لجاز لنا أن نتخذ من قوله في وصف بقر الوحش:

فعنَّ لنا سرب كأن نعاجه عذارى دوار في ملاء مذيل

دليلًا على وثنيته وعبادته «دوارًا»، وهو صنم كانت العرب تنصبه يجعلون موضعًا حوله يدورون به.

وقد شبه في شعره بكثير مما كان يعبده الناس، كالشمس والثريا والحجارة والذئب والنار ونحوها.

وحينئذٍ يجب أن نجعله متدينًا بعبادة كل هذه الأشياء، وهذا ما لا يتصوره عاقل.

على أننا علمنا أن امرأ القيس تزوج جملة من النساء، وطلق أم جندب، وهذا مخالف لأصول النصرانية.

وقد شبه الكلاب حين أخذت بنسا الثور بالولدان تشبرق ثوب المقدس، وفي هذا التشبيه ضرب من الغضاضة لا يصدر عمن يدين بدين ويحترم رؤساءه.

ولا تكاد تجد في شعره أثرًا يدل على اعتقاد أو عمل إلا ما كان من التشبيه بمصابيح الرهبان ومصاحفهم، وهذا وحده لا يصح أن يكون حجة كما أسلفنا.

والظاهر أنه كان على دين هواه ولذته لا يدين بمذهب آخر، ولا يحترم دينًا سواه.

وقد أسلفنا قوله:

أيا هند لا تنكحي بوهة ... ...

وفيه من الاستخفاف بعادات الجاهلية وعقائدها ما لا يخفى.

ما أخذه الشعراء من امرئ القيس

أشرنا فيما سبق إلى أن امرأ القيس سبق الشعراء إلى أشياء ابتدعها فاستحسنوها واحتذوا على مثاله فيها،[1] وقد كان أسلوبه محبوبًا كمعانيه؛ فاستحسنه الشعراء، وأغاروا على ألفاظه كما أغاروا على معانيه، حتى الفحول منهم، كزهير وطرفة ودريد وحسان وعمر بن أبي ربيعة وأبي نواس ومسلم بن الوليد وابن الرومي وأبي تمام والمتنبي.

مثال ذلك قوله:

تبصر خليلي هل ترى من ظعائن   سوالك نقبا بين حزمي شعبعب؟

أخذ أوله زهير فقال في معلقته:

تبصر خليلي هل ترى من ظعائن   تحملن بالعلياء من فوق جرثم؟

وأخذه في مطلع قصيدة وتمامه:

تبصر خليلي هل ترى من ظعائن   بمنعرج الوادي فويق أبان

[1] السيوطي ص٣٥.

وفي قصيدة أخرى وتمامه:

كما زال في الصبح الإشاء الحوامل

وأخذه الراعي في أثناء قصيدة وتمامه:

بذي النيق إذ زالت بهن الأباعر

وقاله في مطلع قصيدة وتمامه:

تحملن من وادي العناق وثهمد

وقاله مضرس بن ربعي في مطلع قصيدة وتمامه:

إذا ملن من قفٍّ علون رمالا

وقاله النابغة الجعدي أثناء قصيدة وتمامه:

رحلن بنصف الليل من بطن منعم

وقاله عبيد الأبرص أثناء قصيدة وتمامه:

يمانية قد تغتدي وتروح

وقاله الأسود بن يعفر أثناء قصيدة وتمامه:

غدون لبين من نوى الحي أبين

وقاله طفيل الغنوي أثناء قصيدة وتمامه:

تحملن أمثال النعاج عقائله

وقوله:

فلأيًا بلأي ما حملنا غلامنا   على ظهر محبوك السراة محنب

أخذ زهير أكثره فقال:

فلأيًا بلأي ما حملنا وليدنا   على ظهر محبوك ظماء مفاصله

وقوله:

علون بأنطاكية فوق عقمة   كجرمة نخل أو كجنة يثرب

أخذ أوله زهير فقال على رواية الأصمعي:

علون بأنطاكية فوق عقمة   وراد حواشيها مشاكهة الدم

وقوله:

وقوفًا بها صحبي عليَّ مطيهم   يقولون: لا تهلك أسًى وتجمل!

أخذه طرفة فقال:

وقوفًا بها صحبي عليَّ مطيهم   يقولون: لا تهلك أسًى وتجلد!

وقوله في وصف الفرس:

له أذنان تعرف العتق فيهما   كسامعتي مذعورة وسط ربرب[٢]

[٢] يروى: «وسامعتان يعرف في التين.»

أخذه طرفة فقال في وصف الناقة:

مؤللتان تعرف العتق فيهما كسامعتي شاة بحومل مفرد

وأخذه زهير فقال:

وسامعتين تعرف العتق فيهما إلى جذر مدلوك الكعوب محدد

وقوله:

وعنس كألواح الإران نسأتها على لاحب كالبرد ذي الحبرات

أخذه طرفة فقال:

أمون كألواح الإران نسأتها على لاحب كأنه ظهر برجد

وقوله في وصف الفرس:

وعينان كالماويتين ومحجر إلى سند مثل الصفيح المنصب

وأخذه طرفة فقال في وصف الناقة:

وعينان كالماويتين استكنتا بكَهْفَيْ حِجَاجَيْ صَخْرَةٍ قَلتِ مَوْرِدِ

وقوله:

فيا رُبَّ مكروب كررت وراءه وطاعنت عنه الخيل حتى تنفسا

أخذ آخره دريد بن الصمة فقال:

فطاعنت عنه الخيل حتى تنفست وحتى علاني حالك اللون أسود

وقوله في وصف الكلاب:

فصبحه عند الشروق غدية　　كلاب ابن مر أو كلاب ابن سنبس
مغرثة زرقًا كأن عيونها　　من الذمر والإيحاء نوَّار عَضْرَس

أخذه البعيث فقال:

فصبحه عند الشروق غدية　　كلاب ابن عمار عطاف وأطلس
محرجة حص كأن عيونها　　إذا أذَّن القناص بالصيد عضرس

وقوله:

من القاصرات الطَّرف لو دبَّ محول　　من الذَّرِّ فوق الإتب منها لأثَّرا

وأخذ المتنبي معنى أوله فقال وأجاد:

وخصر تثبت الأحداق فيه　　كأن عليه من حدق نطاقا

وأخذ معنى تتمته فقال وأجاد:

حسان التثني ينقش الوشي مثله　　إذا مسن في أجسامهن النواعم

وأخذه جماعة من الشعراء منهم حسان إذ يقول:

لو يدب الحَوليُّ من ولد الذر　　عليها لأندبته الكلوم

وعمر بن أبي ربيعة حيث يقول:

لو دب ذر فوق ضاحي جلدها　　لأبان من آثارهن حدورا

وكرره في مواضع من شعره، ومنهم مسلم بن الوليد وحميد بن ثور.

وقوله في تشبيه الظعائن بالنخل:

أوما ترى أظعانهن بواكرًا　　كالنخل من شَوْكان حين صرام[٣]

أخذه جرير فقال:

كأن حمول الحي زلن بيانع　　من الوارد البطحاء من نخل ملهما[٤]

وقوله:

ونشرب حتى نحسب الخيل حولنا　　نقادًا وحتى نحسب الجون أشقرا

أخذ منه أبو نواس قوله:

اسقني حتى تراني　　أحسب الديك حمارا

وقوله:

فلو أنها نفس تموت جميعة　　ولكنها نفس تساقط أنفسا

أخذه ابن الرومي فقال:

فيالك من نفس تساقط أنفسًا　　تساقط درٍّ من نظام بلا عقد

وقوله:

كبكر المقاناة البياض بصفرة[٥]

[٣] بواكر: مبكرة. شوكان: موضع بالبحرين، وحصن باليمن. صرام النخل: أوان إدراكه.
[٤] ملهم: أرض كثيرة النخل.
[٥] «العمدة» ص٧٩.

أخذه ذو الرمة فقال:[٦]

نجلاء في برج صفراء في دعج   كأنها فضة قد مسها ذهب

وقوله:

وشمائلي ما قد علمت وما   نبحت كلابك طارقًا مثلي

أخذه عنترة فقال:

وكما علمت شمائلي وتكرمي

وقوله:

نَمُشُّ بأعراف الجياد أكفنا   إذا نحن قمنا عن شواء مضهب

أخذه عبدة بن الطبيب:

ثمت قمنا إلى جرد مسومة   أعرافهن لأيدينا مناديل

وقوله:[٧]

إذا ما ركبنا قال ولدان أهلنا: تعالوا إلى أن يأتنا الصيد نحطبِ

أخذه ابن المعتز في وصف البازي فقال:

قد وثق القوم له بما طلب   فهو إذا عرى لصيده اضطرب

---

[٦] «العمدة» ٢ / ٢٢٣.

[٧] «العمدة» ٢ / ٢٢١.

عرو سكاكينهم من القرب

وقوله:

سموت إليها بعدما نام أهلها   سمو حباب الماء حالًا على حال

أخذه أبو تمام فقال:

سما للعُلا من جانبيه كليهما   سمو حباب الماء جاشت غواربه

وقوله:

وألقى بصحراء الغبيط بعاعه   نزول اليماني ذي العياب المحمل

أخذه أبو تمام فقال في وصف روضة:

عُني الربيع بروضه فكأنما   أهدى إليه الوشي من صنعاء

وقال في وصف روضة:

مصفرة محمرة فكأنها   عصب تيمن في الوغى وتمضر

وقوله:

سليم الشظى عبل الشوى شنج النسا   له حجبات مشرفات على الفال

أخذه كعب بن زهير فقال:

سليم الشظى عبل الشوى شنج النسا   كأن مكان الردف من ظهره قصر

وقوله:

لها ذنب مثل ذيل العروس   تسد به فرجها من دبر

أخذه خداش بن زهير فقال:

لها ذنب مثل ذيل الهدي   إلى جؤجؤ أيِّد الزافر[٨]

وقوله:

ولو أنما أسعى لأدنى معيشة   ... ... البيتين

أخذهما خفاف بن غضين البرجمي فقال:

ولو أنما أسعى لنفسي وحدها   لِزادٍ يسيرٍ أو ثيابٍ على جلدي
لهان على نفسي وبلَّغ حاجتي   من المال مال دون بعض الذي عندي
ولكنما أسعى لمجد مؤثل   وكان أبي نال المكارم عن جدي

وقوله في وصف الفرس:

ويخطو على صمٍّ صلاب كأنها   حجارة غيل وارسات بطحلب

أخذه النابغة فقال:

كأن حواميه مدبرًا   خضبن وإن كان لم يخضب
حجارة غيل برضراضة   كسين طلاءً من الطحلب

[٨] الهَدي: العروس. الجؤجؤ: الصدر. أيد: قوي.

وقوله:

كأنـي لـم أركـب جوادًا للـذة ولم أتبطن كاعبًا ذات خلخال
ولم أسبأ الزق الروي ولم أقل لخيلي كري كرة بعد إجفال

أخذه عبد يغوث فقال:

كأني لم أركب جوادًا ولم أقل لخيلي كري نفسي عن رجاليا
ولم أسبأ الزق الروي ولم أقل لأيسار صدق عظموا ضوء ناريا

وقوله:

كأن الحصى من خلفها وأمامها إذا نجلته رجلها حذف أعسرا

أخذه الشماخ فقال:

لـهـا مـنـسـم مـثـل الـحـجـارة جـفـة كأن الحصى من خلفه حذف أعسرا

وقوله:

كميت يزل اللبد عن حال متنه كما زلت الصفواء بالمتنزل

أخذه أوس بن حجر فقال:

يـزل قـتـود الـرحـل عـن دأبـاتـهـا كما زل عن عظم الشجيج المحارف

وقوله:

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي بصبح وما الإصباح منك بأمثل

أخذه الطرماح فقال:

ألا أيها الليل الطويل ألا أصبح　　　بتم وما الإصباح فيك بأروح

وقوله:

إذا ركبوا الخيل واستلئموا　　　تحرقت الأرض واليوم قر

أخذه نهشل فقال:

ويوم كأن المصطلين بحره　　　وإن لم يكن حر قيام على جمر

وقوله:

وسالفة كسحوق اللبا　　　ن أضرم فيها الغوي السعر

أخذه طفيل فقال:

كأن على أعرافه ولجامه　　　سنا ضرم من عرفج متلهب

وقوله:

ألم ترياني كلما جئت طارقًا　　　وجدت بها طيبًا وإن لم تطيب؟

أخذه المتنبي فقال:

أتت زائرًا ما خامر الطيبُ ثوبها　　　وكالمسك في أردانها يتضوَّع

وقوله:

وبات إلى أرطاة حقف كأنها　　　إذا ألثقتها غبية بيت معرس

أخذه ذو الرمة فقال:

إذا استهلت عليه غبية أرجت   مرابض العير حتى مازج الخشب
كـأنـه بـيـت عـطـار يـضـمـنـه   لطائم المسك يحويها وتنتهب

وقوله في مماتنة الحارث اليشكري:

أصاح ترى بريقًا هب وهنًا

أخذه لبيد فقال من قصيدة:

أصاح ترى بريقًا هب وهنًا   كمصباح الشعيلة في الذبال
أرقت لـه وأنـجـد بـعـد هـدء   وأصحابي على شعب الرحال

وقوله:

أماوي هل لي عندكم من معرس   أم الصرم تختارين بالوصل نيأس؟
أبـيـنـي لـنـا إن الـصـريـمـة راحـة   من الشك ذي المخلوجة المتلبس

أخذه ابن ميادة فقال:

فلا صرمه يبدو وفي اليأس راحة   ولا وصـلـه يـصـفـو لـنـا فـنـكـارمـه

وقوله:

لـمـن طـلـل دارس آيـه   أضر به سالف الإجرس
تنكره العين من جانب   ويعرفه شغف الأنفس

أخذه أبو نواس فقال:

ألا لا أرى مثلي امترى اليوم في رسم　　تغص به عيني ويلفظه وهمي
أتت صور الأشياء بيني وبينه　　فظني كَلا ظن وعلمي كَلا علم

وقوله: «قيد الأوابد» أولع به الشعراء واستعذبوه فطبعوا على غراره فيه واستعملوا القيد في معانٍ أخر، قال الأسود بن يعفر:

بمقلص عتد جهير شده　　قيد الأوابد والرهان جواد

وقال أبو تمام:

لها منظر قيد النواظر لم يزل　　يروح ويغدو في خفارته الحب

وقال آخر:

ألحاظه قيد عيون الورى　　فليس طرف يتعداه

وبدل المتنبي لفظ «قيد» «بربقة» فقال:

أجل الظليم وربقة السرحان

(١) ما أخذه علقمة منه أو تواردا عليه

في قصيدتي امرئ القيس وعلقمة اللتين حكما فيها أم جندب أبيات كثيرة متحدة في الألفاظ أو المعاني أو كليهما، وقد أدخل الرواة بعضًا منها في بعض حتى إنك لترى البيت بلفظه ومعناه في القصيدتين. وليس لدينا من الأدلة التاريخية ما يعين نسبة كل

بيت إلى قائله، على أن بعض الأبيات يشهد بنفسه أن امرأ القيس أبو عذرته، من ذلك قول امرئ القيس:

وقد أغتدي والطير في وكناتها ... وماء الندى يجري على كل مذنب
بـمـنـجـرد قـيـد الأوابـد لاحـه ... طراد الهوادي كل شأو مغرب

فقد رويا لعلقمة بلفظهما.
وكذلك قوله:

وعين كمرآة الصناع يديرها ... بمحجرها من النصيف المثقب

روي لعلقمة:

بعين كمرآة الصناع ...

وقوله:

فعادى عداءً بين ثور ونعجة ... وبين شبوب كالقضيمة قرهب

روي لعلقمة:

وعادى عداءً بين ثور ونعجة ... وتيس شبوب كالهشيمة قرهب

وقوله:

وَيَخْطُو على صُمٍّ صِلابٍ كَأنهَا ... حجارة غيل وارساتٌ بطحلب
ترى الفأر في مستنقع القاع لاحبًا ... على جدد الصحراء من شد ملهبِ
خفاهنَّ من أنفاقهن كأنما ... خفاهن ودق من عشي محلب
وظل لصيران الصريم غمائمُ ... يداعسها بالسمهريِّ المعلب
فَكاد على حُر الجبينِ وَمُتقِ ... بمَدْرِيَةٍ كَأنه ذَلْقُ مِشْعَبِ

وراح كتيس الربل ينفض رأسهُ ‏ ‏ ‏ أَذَاةً بهِ مِنْ صَائِكٍ مُتَحَلِّبِ

فهذه الأبيات رويت لعلقمة على هذا الوجه:

وسمر يفلقن الظراب كأنها ‏ ‏ ‏ حجارة غيل وارسات بطحلب
ترى الفأر عن مسترغب القدر لائحًا ‏ ‏ ‏ على جدد الصحراء من شد ملهب
خفا الفأر من أنفاقه فكأنما ‏ ‏ ‏ تجلله شؤبوب غيث مثقب
فظل لثيران الصريم غماغم ‏ ‏ ‏ يداعسهن بالنضي المعلب
فهاوٍ على حر الجبين ومتق ‏ ‏ ‏ بمدراته كأنه ذلق مشعب
وراح كشاة الربل ينفض رأسه ‏ ‏ ‏ أذاة به من صائك متحلب

ونحو ذلك من أبيات القصيدتين.
على أن علقمة أخذ منه أبياتًا من غير هذه القصيدة، كقوله من قصيدته القافية:

فأدركهن ثانيًا من عنانه ‏ ‏ ‏ كغيث العشي الأقهب المتودق

أخذه علقمة فقال:

فأدركهن ثانيًا من عنانه ‏ ‏ ‏ يمر كمر الرائح المتحلب

وقوله:

ورحنا كأنا من جواثي عشية ‏ ‏ ‏ نعالي النعاج بين عِدْل ومشنق

أخذه علقمة فقال:

ورحنا كأنا من جواثي عشية ‏ ‏ ‏ نعالي النعاج بين عدل ومحقب

على أن هذا البيت روي لامرئ القيس.

وكذلك قوله في النساء:

أراهن لا يحببن من قل ماله ولا من رأين الشيب فيه وقوسا

جاء في كلام علقمة:

إذا شاب رأس المرء أو قل ماله فليس له من ودهن نصيب

وأمثال هذا كثير، ولكن ليس لدينا ما يعين لنا زمن كل قول حتى نتبين أيهما السابق فيه، وقد يجوز في بعض هذه الأبيات أن يكون مما توارد فيه خاطر الشاعرين، وكان شيطانهما فيه واحدًا، أما كل ذلك فبعيد أن يكون من وقع الحافر على الحافر أو من توافق الخواطر.

والأقرب أن يكون امرؤ القيس أسبق في كثير من هذه المعاني كما كان أسبق من صاحبه في غيرها.

(٢) المسمط

وينسب إلى امرئ القيس نوع من الشعر يقال له: المسمط، وهو أن يبتدئ الشاعر ببيت مصرع، ثم يأتي بأربعة أقسمة على غير قافيته، ثم يعيد قسيمًا واحدًا من جنس ما ابتدأ به، وهكذا إلى آخر القصيدة، وقد ذكروا أمثالًا على ذلك قول امرئ القيس:

توهمت من هند معالم أطلال عفاهن طول الدهر في الزمن الخالي

* * *

مرابع من هند خلت ومصايف يصيح بمغناها صدًى وعوازف
وغيرها هوج الرياح العواصف وكل مسفٍّ ثم آخر رادف
بأسحم من نوء السماكين هطال

وفي التاج والمسمط من الشعر أبيات تجمعها قافية واحدة مخالفة لقوافي الأبيات، إلى أن قال: وأورد ابن بري مسمط امرئ القيس: توهمت من هند … إلى آخر ما تقدم.

ونقل عن «العين» قول امرئ القيس:

ومستلئم كشفت بالرمح ذيله　　أقمت بعضب ذي سفاسق ميله
فجَعْتُ به في ملتقى الحي خيله　　تركت عتاق الطير تحجل حوله
كأن على أثوابه نضح جريال

قال الجوهري: ولامرئ القيس قصيدتان سمطيتان إحداهما هذه التي ذكرها، ولم يذكر الثانية. وهكذا هو في «العين».

وقال الصاغاني: ليس هذا المسمط في شعر امرئ القيس بن حجر، ولا في شعر من يقال له: امرؤ القيس سواه.

إثباته ونفيه

ذهب بعض الأدباء في هذا العصر إلى الشك في حقيقة امرئ القيس، ثم انتقل من الشك في ذلك إلى إنكار وجوده بتاتًا، وأقام صرح شكه وإنكاره على شُبه واهية تشهد على أنفسها ببطلانها، وتنادي بلسان حالها على ضعفها. زعم أن الرواة اختلفوا في اسم امرئ القيس ولقبه وكنيته كما اختلفوا في نسبة بعض الأبيات إليه، وألَّف من هذه الخيوط الواهية نسيجًا ظن أنه متين القوى، وثيق العرى، واسترسل في خياله ووهمه ما شاء وشاء له حبه بالإغراب، وطموحه إلى الشهرة على قاعدة «خالف تعرف».

فهبَّ فريق من أرباب العلم الصحيح والعقل الراجح إلى دحض هذا الزعم وبصَّروه بالحقيقة الناصعة، وردوا شبهه على أعقابها بما بينوه من الحجج البالغة والأدلة الدامغة.

وأغرب ما جاء في مزاعمه أنه أنكر امرأ القيس للاختلاف في اسمه ولقبه وكنيته وقبيلته، وأن الكثرة من الأساطير والأحاديث المتعلقة بامرئ القيس وقصته لم تشع بين الناس إلا في عصر الرواة المدونين والقصاص، وأن الذي أنشأ هذه القصة ونمَّاها هو المكان الذي احتلته قبيلة كِندة في الحياة الإسلامية وذكر ما كان للأشعث بن قيس من المنزلة في الفتح والبلاء في الحروب، ولابنه محمد بن الأشعث وحفيده عبد الرحمن الذي خلع عبد الملك بن مروان وثار بالحجاج ثم لجأ إلى ملك الترك وهذا غدر به وسلمه إلى الحجاج، واستنتج من مجموع هذه الأمور أن مثل هذه الأسرة لا يظن أنها لا تصطنع القصص وتؤجر القصاص لينشروا لها الدعوة ويذيعوا عنها كل ما من شأنه رفع ذكرها.

وأن ما يروى من أخبار كندة في الجاهلية متأثر بعمل هؤلاء.

وأراد أن يجعل قصة امرئ القيس لونًا من التمثيل لحياة عبد الرحمن بن الأشعث الذي ثار منتقمًا لحجر بن عدي، وتنقَّل في مدن فارس والعراق ولجأ إلى ملك الترك ثم مات في طريقه.

فإن امرأ القيس ثار لقتل أبيه حجر، وتنقل في قبائل العرب ولجأ إلى قيصر وهذا غدر به ثم مات في طريقه.

وزعم أن القصاص كانوا يخشون عمال بني أمية فانتحلوا قصة امرئ القيس وجعلوها رمزًا لقصة ابن الأشعث.

واتخذ من اختلاف الرواة ببعض الأبيات وفي نسبة بعضها إلى امرئ القيس وإنكارها وسيلةً للشك في امرئ القيس.

وكذلك اتخذ من كون امرئ القيس يمنيًّا وشعره قرشيًّا ذريعة للإنكار.

وزعم أن ما في المعلقة من لهو وفحش يشبه أن يكون من انتحال الفرزدق، وأن هذا النحو من القصص الغرامي في الشعر فن عمر بن أبي ربيعة قد احتكره ولم ينازعه فيه أحد، ولقد يكون غريبًا حقًّا أن يسبق امرؤ القيس إلى هذا الفن ويتخذ فيه هذا الأسلوب ويعرف عنه هذا النحو.

وانتهى به الأمر إلى أن قال: وقل مثل هذا في القصص الغرامي الذي تجده في قصيدة امرئ القيس «ألا انعم صباحًا أيها الطلل البالي.»

ففي هذا القصص الفاحش فن ابن أبي ربيعة وروح الفرزدق، ونحن نرجح إذن أن هذا النوع من الغزل إنما أضيف إلى امرئ القيس أضافه رواة متأثرون بهذين الشاعرين الإسلاميين.

واضطرب كلامه قبل ذلك فقال: فنحن نقبل أن امرأ القيس هو أول من قيد الأوابد وشبه الخيل بالعصي والعقبان، ثم قال: ولعل أحق الشعر بالعناية قصيدتان اثنتان:

الأولى: «قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل.»

والثانية: «ألا انعم صباحًا أيها الطلل البالي.»

فأما ما عدا هاتين القصيدتين فالضعف فيه ظاهر.

ثم قال: وهناك قصيدة ثالثة نجزم نحن بأنها منتحلة انتحالًا، وهي القصيدة البائية التي يقال: إن امرأ القيس أنشأها يخاصم بها علقمة بن عبدة الفحل، وإن أم جندب زوج امرئ القيس غلَّبت علقمة على زوجها.

واحتج لذلك بأن في القصيدتين رقة إسلامية ظاهرة، وألَّا يوجد فرق بين شخصية الشاعرين فيهما بل ليس فيهما شخصية ما، ثم أنكر المفاخرة والتحكيم بزعم أن القصيدتين ليستا من الجاهلية في شيء.

وقد أكثر العلماء والشعراء والأدباء من ذكر امرئ القيس في القديم والحديث وجعلوه مثلًا أعلى في كثير من النواحي وذكروه في كلامهم، فكيف يكون شخصًا خياليًّا لا حقيقة له؟ أم كيف ينظمون تلك الأشعار البالغة أقصى درجات البلاغة، وينسبونها إليه ولا ينسبونها إلى أنفسهم ليكونوا في طليعة المجودين كما كان، ويكتب لهم الخلود بها كما كتب له؟

ومن استقرأ التاريخ واستقصى الأدب العربي يجد امرأ القيس في كل عصر يتراءى في مقدمة الشعراء المفلقين، ويدور ذكره على ألسنة النوابغ وأئمة الأدب في كل عصر ومصر.

وقد أسلفنا أن قومًا وفدوا على النبي ﷺ، وذكروا قوله في العين التي عند ضارج فكان ذلك سببًا لنجاتهم من الهلاك عطشًا، وقومًا آخرين سألوه: من أشعر الناس؟ فأمرهم أن يسألوا حسان، فقال: امرؤ القيس، وصدقه النبي ﷺ في ذلك، وقومًا أرسلوا رجلًا فسأل لبيدًا من أشعر الناس؟ فقال: ذو القروح! وحسان ولبيد عاشا في الجاهلية أكثر من نصف قرن.

وقدمنا قول عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب فيه وقول الفرزدق وغيره من الشعراء والعلماء.

وجاء نافع بن الأزرق يسأل عبد الله بن عباس عن كلمات من القرآن فاستشهد له في جملة ما استشهد به بخمسة أبيات من شعر امرئ القيس وهي:

قفا فاسألا الأطلال عن أم مالك وهل تخبر الأطلال غير التهالك

* * *

وماء آسن بركت عليه كأن مناخها ملقى لجام

* * *

ألا زعمت بسباسة اليوم أنني كبرت وأن لا يحسن السر أمثالي

* * *

أرانـا مُـوضِـعـيـن لأمـر غـيـب ونـسـحـر بـالـطـعـام وبـالـشـراب

* * *

خـفـاهـن مـن أنـفـاقـهـن كـأنـمـا خفاهن ودق من عشي محلب

وقد ذكروا أن الفرزدق كان يروي شعر امرئ القيس وذكره في شعره من قصيدة يفتخر بها على جرير فقال:

وهب القصائد لي النوابغ إذ مضوا وأبو يزيد وذو القروح وجرول

ومما أسلفنا ذكره يتضح لنا أن امرأ القيس كان معروفًا مشهورًا قبل أن يدون التاريخ، وقد روى شيئًا من أخباره الثقات منذ الإسلام إلى يومنا هذا، وفيهم المخضرمون، كحسان ولبيد ووفد جهينة والصحابة الكرام، ولا يتصور عاقل أن تجمع أمة منذ أربعة عشر قرنًا على ذكر رجل ليس له حقيقة في الوجود!

وأبعد من هذا وأغرب أن تنسب قصته إلى الفرزدق، والفرزدق ذكره مفتخرًا به، ولو كان شخصًا خياليًّا ما افتخر به على جرير ولا سكت جرير عنه وهو يتتبع سقطاته وهناته.

وأغرب من هذا الأغرب أن ينكر عاقل امرأ القيس ورحلته إلى قيصر وقد ذكره مؤرخو الروم.

واتفقت كلمة الأدباء على أن الفرزدق كان يروي شعر امرئ القيس وأنه كان يُغير على شعر غيره وينتزعه.

ومن البعيد جدًّا ممن كانت هذه حاله أن ينظم قصائد مطولة وينحلها غيره، وأبعد من المستحيل أن يتفق لشاعر قصائد هن من عيون الكلام ومقلدات الشعر، كالمعلقة واللامية، ثم يعزوها لغيره.

وقد مر أن ابن عباس استشهد ببيت من كافية لامرئ القيس، وهذه لم تذكر في ديوانه، وآخر من قافية له، وثالث من اللامية، ورابع من البائية، وهذا يدل على أن لامرئ القيس من الشعر ما لم يشتمل عليه ديوانه وما ذهب بذهاب رواته، كما يدل على أن القافية واللامية كانتا قبل الفرزدق وعمر بن أبي ربيعة، وأن البائية جاهلية حقيقة وليست بإسلامية، ولا يسوغ لنا اطراح ما سلف من الأدلة على ثبوتها ونسبتها إلى امرئ القيس إلا إذا اطلعنا على أدلة أقوى وأنصع وليس لدى المنكر إلا الوهم المجرد.

أما الاختلاف في الاسم واللقب والكنية والقبيلة، وتعدد شيء من هذا، فقد وقع كثير منه ولم يقتضِ إنكارًا ولا نفيًا: فإن أبا هريرة اختلف في اسمه على خمسة أقوال فأكثر، وفي اسم أبيه على خمسة وثلاثين قولًا.

وأبو عمرو بن العلاء اختلف في اسمه على أحد وعشرين قولًا، وغيرهما … ولم يذهب أحد إلى إنكارهما للاختلاف في نسبهما أو لقبهما.

وهذا الاختلاف مستفيض في اللغة في الأشخاص وغيرهم: ألا ترى تعدد أسماء السماء والسيف والجمل ونحوها؟ وما علمنا أحدًا زعم أن التعدد مقدمة تنتج الجحد والإنكار إلا من متحذلقة هذا العصر.

والسخافة ليس لها حدٌّ تقف عنده، ولا مدًى تنتهي إليه!

المعلقة

(١) منزلتها

تكاد كلمة العلماء بالشعر تتفق على أن أفضل تراث أدبي ورثه العرب من شعر الجاهلية «معلقة امرئ القيس»، ويعدون ابتداءها أفضل ابتداء من مطالع الشعر العربي. وقد بلغت من الشهرة في علم الأدب والشعر، منزلة ليست لغيرها، حتى جُعلت مثلًا أعلى في الجودة، وحتى ضُرب بها المثل في الحسن والشهرة، فقيل: «أشهر من قفا نبك!» و«أحسن من قفا نبك!»

وما زالت هذه المعلقة — ولن تزال — معينًا يستمد منه الأدب العربي ثروة جديدة، وركنًا يقيم عليه صروح مجده في الماضي والحاضر، وهي أشبه شيء بالخزائن المدفونة المشحونة بصنوف من الجواهر والأعلاق النفيسة، كلما ازداد المنقبون فيها بحثًا رأوا مما فيها من الذخائر الرائقة، والآيات الرائعة، ما لم يروه من قبل، فلا يكاد ينفد ما فيها من أنواع الحسن والروعة.

وحسبك دليلًا ناصعًا، وبرهانًا قاطعًا على هذا أنك لا تجد كتابًا في اللغة والأدب (على اختلاف أنواعهما وتعدد أشكالهما) إلا ولامرئ القيس فيه أبيات يُتمثل بها، ويُحتج بها، ويشار إلى مواطن الجمال الباهر والفن الساحر فيها.

فمعلقة امرئ القيس وشعره كله، عماد قام عليه الأدب العربي في القديم والحديث، ومثال احتذاء الأدباء في كل جيل. ومهما تبدل الأدب بتبدل الزمان وأهله، وتغير بتغير حياتهم الاجتماعية والعقلية، فإن في شعر امرئ القيس ما يصلح أن يكون مثلًا أعلى في كل جيل وطور، وفي كل بيئة.

(٢) سبب نظم المعلقة

ذهب بعض العلماء إلى أن امرأ القيس كان يعشق عنيزة وأخذ ثيابها يوم الغدير مع صواحباتها، ثم عقر لهن ناقته ثم ركب معها ناقتها فدخل عليها الهودج، كما تقدم، ثم نظم المعلقة وذكر هذه القصة فيها.

وإذا صح أن هذا وحده هو السبب لنظمها، فقد يؤخذ عليه عدم وحدة الموضوع في القصيدة؛ لأنه ذكر فيها وصف الجواد والليل والبرق والسحاب …

ويجوز أن يكون يوم الغدير سببًا من جملة الأسباب، وأن الشاعر كان مولعًا بالشعر، فاستهل هذه القصيدة بالغزل، وثنى فيها بقصة الغدير لولعه بالنساء والتشبيب بهن، ثم عززها بوصف الجواد؛ لأن ركوب الخيل في المنزلة الثانية عنده من اللذاذة.

واستطرد إلى وصف الصيد والطبيعة، جريًا على سنة الجاهلية في عدم الوحدة واشتمال القصيدة الواحدة على أغراض متعددة.

ومما لا ريب فيه أن هذه القصيدة وليدة الشباب، وربيبة الصبا، نظمها الشاعر حين لم يكن في قلبه ما يشغله إلا الصبوة والطموح في سبيل الشهوة، قبل أن تملأ المصائب قلبه، وتنيخ عليه بكلكلها؛ ولذلك يرى الباحث فيها ماء الشباب يترقرق في تضاعيف كلماتها، ونضرة النعيم تتراءى في أسرَّتها.

أما العوامل التي أثرت في نفس الشاعر، واقتنص معانيه وأخيلته منها في هذه القصيدة، وكان لها الأثر البين فيها، فهي:

(١) لواعج الحب التي تعتلج في صدره لعنيزة، وفاطم، وأم الرباب، وغيرها.

(٢) مشاهد المنازل التي كانت فيها أحبابه ثم رحلوا عنها، والصحاري التي اجتابها، والمياه التي وردها، والأودية التي قطعها، والجبال والأماكن التي شاهد نزول المطر عليها، وشام البرق من جهتها، والمطر الذي رأى آثاره في بعضها.

وقد ذكرها في شعره: كالدخول، وحومل، وتوضح، والمقراة، ودارة جلجل، ووجرة، وضارج، والعذيب، وقطن، ويذبل، والقنان، وثبير، وصحراء الغبيط، وما شاكل ذلك …

(٣) الحياة الاجتماعية التي كان يعيشها الشاعر حين نظمها، فهي تمثل لنا نوعًا من مجانته، وتعيهره، وتذلله لمن يحب، ونوعًا آخر من اجتيابه الصحاري والأودية، ومطاردة الوحش، واتخاذ الأطعمة منه في الفلوات …

ونوعًا ثالثًا من خدمة أصحابه، وحمله الماء على ظهره لهم، ونحو ذلك مما يدل على أن حياته حياة الصعاليك والشذاذ والخلعاء …

(٣) أغراضها

وقد اشتملت هذه المعلقة على أغراض متنوعة يمكن ردها إلى ثلاثة أمور:

الأول: الغزل والتشبيب: ويندرج فيه بكاء الديار، والوقوف فيها، وعقر المطية للعذارى، ودخول خدر عنيزة، وحديثه معها ومع فاطم، وتشبيه المرأة بأنواع من المشبهات، ووصف الليل والشكوى من طوله.

الثاني: وصف الخيل: ويندرج فيه وصف الوحش، وصيده والأودية ويتبعها حديثه مع الذئب.

الثالث: وصف الطبيعة: ويندرج فيه وصف الجبال والصحاري، والمطر والسيل وآثاره.

وقد أطال في الأول لأنه مولع بالمرأة وهي غاية المتمنى والمشتهى عنده.

وكذلك أطال في الثاني؛ لأن ركوب الجواد عنده لذة تقارب أو تقارن لذة المرأة، يدلك على ذلك قوله:

كأني لم أركب جوادًا للذة   ولم أتبطن كاعبًا ذات خلخال!

بل قدم في هذا البيت لذة الجواد على تبطن الكاعب.

ولم يطل في الثالث؛ لأنه أدنى منزلة في نفس الشاعر من سابقيه.

(٤) كلمة في المعلقة

إذا أمعن الباحث النظر في هذه المعلقة، ثم عرضها على محك النقد والتمحيص، يتبين له فيها أشياء هي في الدرجة القصوى من البلاغة، وأشياء يؤخذ بها صاحبها إن كانت سالمة من عبث الرواة وتحريف النساخ.

والغالب على الظن أنها لم تسلم لكثرة ما فيها من الروايات المضطربة. أما محاسنها، وهي أكثر ما فيها، وهي التي جعلها مضربًا للمثل في الشهرة حتى قيل: «أشهر من قِفا نبك!» فهي:

(١) أن أسلوب الشاعر يسهل حيث تطلب السهولة، ويشتد أسره حيث يقتضي المقام ذلك، فكلامه في الغزل رقيق لطيف عذب، يتلاءم مع المتغزل بها رقة ورشاقة، كأنما يتخيره من لؤلؤ رطب.

وكلامه في وصف الجواد والوادي والصيد وما شاكل ذلك متين جزل، كأنما ينحته من صخر صلد، فأسلوبه أسلوب ساحر ماهر لبق.

(٢) أنه مجود في التشبيه بارع فيه، وأكثر ما يكون لديه المشبه به محسوسًا لأنه أقرب إلى التناول وأرسخ في النفوس، ولا يخرج المشبه عما تتضمنه البيئة البدوية، والحياة الفطرية، فهو إذا أراد أن يشبه أعضاء المرأة بشيء يُشعر بالجمال شبهها بالمهاة في عينها، وبالظبي في جيده، وببيضة النعام في لونها، وشبه أناملها بالأساريع، وليس في المحيط البدوي مثل أعلى للجمال في هذه الأنواع إلا هذه الأشياء.

وإذا أراد أن يشبه الجواد، شبهه بالجلمود يحطه السيل من عل، بخذروف الوليد في سرعته، وشبه ظهره بمداك العروس، وشبه عنقه المضرج بالدماء بالشيب المخضب بالحناء.

وإذا أراد أن يشبه البرق شبه خفقاته بحركة اليد، وضوءه بمصباح بان السليط فيه، وهكذا شأنه في كل تشبيه. وهذه التشبيهات توضح المعنى المقصود توضيحًا تامًّا، وليس في البادية شيء أدل على المراد وأبين للغرض منها، وهي تمثل المشبه تمثيلًا صحيحًا تامًّا.

(٣) أنه مجود في الاستعارات، محسن لتخير اللطيف منها، فإنه لما أراد أن يعبر عن طول الليل، شبهه بشيء له صلب وكلكل وأعجاز.

واستعار السهم للعين؛ ليدل على شدة تأثيره في الفؤاد.

واستعار الصيد للقلوب، في قوله: «وهر تصيد قلوب الرجال» ليدل على شدة استيلائها على القلوب.

(٤) أنه بارع في تخير الكنايات، فإنه لما أراد أن يصف المرأة بطيب الرائحة وطراوة الجسم، كنى عن ذلك بأن فتيت المسك فوق فراشها، وبأنها نئوم الضحى، وأنها لا تلبس الفضل للامتهان.

وكنى عن اقتلاع السيل الشجر بقوله: «يكب على الأذقان دوح الكنهبل»، وكنى عن تباهي محبوبته في الجمال، وعن حداثة سنها بقوله:

إلى مثلها يرنو الحليم صبابة إذا ما اسبكرت بين درع ومجول

وكنى عن ارتفاع موضع بقوله: «نيافًا تزل الطير عن قذفاته.»

(٥) أنه ماهر في التصوير فإذا وصف لك شيئًا أحاط بالموصوف من كل ناحية يطلبها تحقق ذلك الموصوف وتفوقه فيها، فقد وصف الجواد من النواحي التي يتطلبها وصفه بالقوة والسرعة فجعله مقيدًا للوحش سريعًا مطاوعًا لا يتعبه الجري ولا يفوته الوحش ووصف ظهره وخاصرتيه وساقيه وجريه، وهذا ما يتطلب وصفه في الجواد من حيث صلوحه للكر والفر وطرد الصيد، وزاد على ذلك فوصف لونه وذنَبه.

ولما عنَّ له السرب وصف لونه واجتماعه ثم تفرقه حتى كأن السامع يراه، وكذلك وصفه السحاب والسيل وآثارهما.

(٦) أنه بارع في تصوير الخيال أو الحال الواقعة فإنه؛ لما قص دخوله على عنيزة الخدر وخروجه بها أرانا كيف كانت تعفي الأثر بذيلها وكيف هصر بفوديها وكيف كان الغبيط يميل بهما.

وأسمعنا لومها إياه ودعاءها عليه حتى كأننا نرى ونسمع ذلك حقيقة.

وكذلك حديثه في الوادي مع الذئب وتصوير اجتماع المها وافتراقها.

فهو مصور بارع يؤثر كلامه العذب في النفوس ما لا تؤثره ريشة المصور.

(٧) أن ابتداء هذه القصيدة أفضل ابتداء صنعه شاعر؛ لأنه وقف واستوقف وبكى واستبكى وذكر الحبيب والمنزل في مصراع واحد.[١]

وأنه ختمها بوصف السيل ولم يتعمد جعله خاتمة كما فعل غيره من أصحاب المعلقات، مع أنها أفضلها، رغبة في اطراح الكلفة وحتى تبقى النفس متعلقة بها طامعة في بقية الكلام.

(٥) ما يؤخذ به في المعلقة

(١) وحدة الموضوع فيها، فإنها جمعت بين الغزل والطرد ووصف الجواد والبرق والسحاب … إلخ.

(٢) عدم التلطف في الانتقال من غرض إلى غرض: فبينا هو يتغزل انتقل إلى وصف نفسه بالدماثة والشجاعة، ثم يقفز إلى الوادي فيدور حديثه مع الذئب ثم يطفر إلى وصف الجواد، وهكذا شأنه في شعره كله.

[١] «العمدة» ٢ / ١٦٠.

(٣) عدم الترتيب الطبيعي في الغرض الواحد: فهو عندما أراد أن يصف محبوبته وصف خصرها وترائبها، ثم انتقل إلى خدها وعينيها ثم نزل إلى جيدها، ثم ارتقى إلى شعرها، ثم هبط إلى كشحها وساقها، ثم ذهب إلى فراشها، ثم وصف يديها.

وكذلك شأنه في الجواد فإنه وصف خاصرتيه وساقيه ثم انتقل إلى ذنبه ثم وصف ظهره.

(٤) عدم إحاطته بالموصوف من كل ناحية إحاطة تامة: فلو أكمل وصف المرأة فوصف ثدييها وحديثها وأنفها وأسنانها وما شاكل ذلك لجاءت صورة كاملة، وكذلك لو وصف أذني الجواد وجمجمته وعرفه وحوافره لكانت الصورة تامة.

(٥) وجود الإقواء في مثل قوله: «كبير أناس في بجاد مزمل.» وقوله: «ونصف بالحديد مكبل.» ونحو ذلك مما أسلفنا ذكره.

ولكن هذه الأمور لا تعد شيئًا في جانب ما فيها من المحاسن والروائع التي فتح بها الباب، ومهد السبيل لمن أتى بعده، والكمال لله وحده.

وقد رأينا أن نجتزئ الآن بهذا القدر على أن نعود إن شاء الله تعالى إلى إتمام القول فيما يتعلق بهذا الشاعر الفذ، وفي شرح البقية الباقية من شعره، حتى يتبين الجاهلون لقدره أن امرأ القيس عماد يقوم عليه الأدب العربي في الماضي والحاضر، وأن له فضلًا على الأدب لا ينكره إلا جاهل أو مكابر.

مآخذ الكتاب

الأصنام لابن الكلبي، م. دار الكتب المصرية، القاهرة.
الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني، م. مصر، القاهرة ١٣٢٢.
الأمالي لأبي علي القالي، م. دار الكتب المصرية، القاهرة.
أمالي المرتضى، م. السعادة، القاهرة ١٣٢٥.
بدائع البدائه لابن ظافر الأزدي، بولاق ١٢٧٨.
تاج العروس للزبيدي.
جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي، المطبعة الخيرية، القاهرة ١٣٣١.
خزانة الأدب للبغدادي، المطبعة السلفية، القاهرة.
خزانة الأدب وغاية الأرب لابن حجة الحموي، بولاق ١٢٧٣.
شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، المطبعة الخيرية، القاهرة ١٣٠٦.
شرح ديوان رئيس الشعراء أبي الحارث، المطبعة الخيرية، القاهرة ١٣٠٧.
شرح شواهد المغني للسيوطي، المطبعة البهية، القاهرة ١٣٢٢.
شرح القصائد العشر للتبريزي، المطبعة السلفية، القاهرة.
شرح المعلقات السبع للزوزني، المطبعة الميمنية، القاهرة ١٣٢٧.
الشعر والشعراء لابن قتيبة، م. التقدم، القاهرة ١٣٢٢.
الصحاح للجوهري.
العمدة لابن رشيق القيرواني، م. السعادة، القاهرة ١٣٢٥.
عيون الأخبار لابن قتيبة، م. دار الكتب المصرية، القاهرة.
الكامل للمبرد، م. التقدم، القاهرة ١٣٢٣.

لسان العرب لابن منظور.
معاهد التنصيص على شواهد التلخيص للعباسي، بولاق ١٢٧٤.
الموشح للمرزباني.
نهاية الأرب في فنون العرب للنويري، م. دار الكتب المصرية، (صدر منه ١١ جزءًا)، القاهرة.

ذكرنا بعض الأبيات في مواطن متعددة بروايات مختلفة إشارة إلى تعدد الروايات فيها.